د . خواجة عبد العزيز

أساسيات في علم الاجتماع

دار نزهة الألباب
للنشر و التوزيع

أساسيات في

علم الاجتماع

مجموع محاضرات جامعية

د. خواجة عبد العزيز

أستاذ بجامعة غرداية

دار نزهة الألباب

لنشر وتوزيع الكتب ووسائل العلم و المعرفة

د. خواجة عبد العزيز

أساسيات في علم الاجتماع

دار نزهة الألباب لنشر وتوزيع الكتب ووسائل العلم و المعرفة

ساحة العقيد لطفي غرداية 47000 هاتف /فاكس : 029.88.35.49

محفوظة جميع الحقوق

الإيداع القانوني : 4377 -2012

ردمك : ISBN 978-9947-880-32-6

لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو تصويره أو تخزينه بأي وسيلة من الوسائل
دون موافقة كتابية من الناشر

All rights reserved .No part of this book may be reproduced , transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَة

منذ الوجود البشري الأوّل والإنسان في علاقة تفاعلية مع أخيه الإنسان، وقد تشكّلت من خلال هذه العلاقة تراكمات معرفية مختلفة، تُجمّع في نمط واحد من التفكير يُطلق عليه تسمية "الفكر الاجتماعي"، والذي امتد في حواره عبر شبكة من التساؤلات المتكررة للمحيط الطبيعي والفيزيقي والاجتماعي، بحثا عن إجابات تصنع ما سماه الفلاسفة بـــ "الحقيقة".

ويتساءل الكثير من الباحثين عن البدايات الأولى لهذا الفكر الاجتماعي: كيف كان؟ وكيف تطوّر ؟...

إنّما من الصعوبة جدّا الجزم – علميّاً – عن حقيقة الإنسان الأوّل، وكيف كان وضعه الفعلي. لهذا تعدّدت واختلفت الأطروحات التي تناولت الموضوع بالبحث والتنقيب بين النظرية "التطوّرية الداروينية" والنظرية "الانتشارية الثقافية" واتجاهات أخرى مناقضة لها، أو مساندة بشكل أو بآخر. وقد تزايد التباعد بين هذه التصوّرات حضورُ التفسيرات الدينية بقوّة، وممارسة دور "الحاضر الغائب" والمُوجّه المخفي الذي لا يدع فرصة إلاّ ويحاول فرض ذاته على ذاتية الباحث الاجتماعي من خلال انتماءاته الثقافية والفكرية والإيديولوجية.

أمّا عن تطوّر الفكر الاجتماعي، فيبقى السؤال الذي يطرح نفسه قائماً هو: ما نوعية هذا التطوّر؟، أكان تطوّرا مستمرّاً متّصلاً بعضه ببعض، أم أنّه كان "منفصلا" يُشكّل مراحل تختلف الواحدةُ فيه عن الأخرى؟ وبعبارات ابيستمولوجية: هل الفكر الاجتماعي موحّد في مساره أم مختلف عن بعضه

بعضاً؟ متّصل أم منفصل؟ موحّد أم مختلف؟. تتجاذب الجوابَ على هذا التساؤل مقاربتان مختلفتان لكلّ منهما مفكروها، إلاّ أنّ الملاحظة التي لا يجب إغفالها كون «الأطروحتين غير صحيحتين، لأنّه في الواقع يتداخل المختلف والموحّد، فقد كان بين الحضارات البشرية المختلفة احتكاك وارتباط عبر الأزمنة، ما نتج عنه تطوّر فكري إنساني شامل اشتركت فيه عدّة شعوب وثقافات الواحدة بعد الأخرى» (عمر لرجان، 89/90، 03).

إنّما تبقى سرعة تطوّر الحضارات متباينة من منطقة إلى أخرى، وإن توحّدت في العديد من الخصوصيات، التي أصبحت بمثابة قوانين تحكمها وتُسيّرها، أهمّها "قانون الانتقالية" الذي يرى بأنّ المجتمعات سارت من الحالة اليدوية إلى الحالة الفكرية، ومن البسيط إلى المعقّد، ومن البدائي إلى الحديث، ومن البدوي إلى الحضري المتمدّن، تحت تأثير مجموعة من العوامل الأساسية المتمثّلة بخاصة في: النمو الديمغرافي، بداية التقنية (الأدوات، النار...)، الأزمات الطبيعية، تزايد كثافة رؤوس الأموال.

ويجمعها "ويل ديورنت" في: العوامل الجيولوجية (الجليد وحركة الأرض)، والجغرافية (أمطار، حرارة..)، والاقتصادية (صيد، تجارة..)، والثقافية (طرق المعاملة، العلم، الاختراع...)، والنفسية (الأمن، اللغة، نظام خلقي...) (ويل ديورنت، 1970، 13-17). وقد وُضعت لهذا التطوّر عدّة مخططات زمنية توضيحية، ترتكز كلّ واحدة منها على أسس معيّنة، يمكن استعراض إحداها في هذا الخطّ التطوّري للتاريخ البشري المثبت أدناه (مع ما يحمله المخطّط من خلفيات إيديولوجية).

تتناول هذه المحاضرات، بدايةً، تطوّر الفكر الاجتماعي عبر أهمّ الحضارات التي عرفها التاريخ الإنساني، مركّزةً على جوانبها الاجتماعية، وما أنتجه الفكر من ممارسات، وما يميّز كلّ واحدة منها، بعيداً عن التأريخية الدقيقة المنحصرة داخل الرقم الزمني، فما يهمّ السوسيولوجي هي السمات العامة لا

الحدث في ذاته.

ثم عرّجَنا على الأبعاد المحدّدة لعلم الاجتماع بخاصة تعريفه وما يحول حوله من إشكالات، وقضية الرواد والمنسيين، والمراحل التي مرّ بها والتموقعات التي تشكّل فيها. لنعالج بعدها مفهوم الظاهرة الاجتماعية وأسس دراستها معتمدين على "قواعد المنهج" لدقّته وكلاسيكيته، وما يأخذه من أهمية بالنسبة للطالب المبتدئ، وعالجنا في فصل مستقل أهمّ أعلام علم الاجتماع ونظرياته. آملين أن تكون هذه المحاضرات نقطة انطلاق للمهتمّ السوسيولوجي في بداية مساره، وأن يستفيد منها الهاوي الاجتماعي للاطلاع على هذا العلم الذي أصبح أكثر من ضروري في حياتنا اليومية.

مخطّط يبيّن التطوّر الزمني حسب أنماط الإنتاج (عمر لرجان، 90/89، 7)

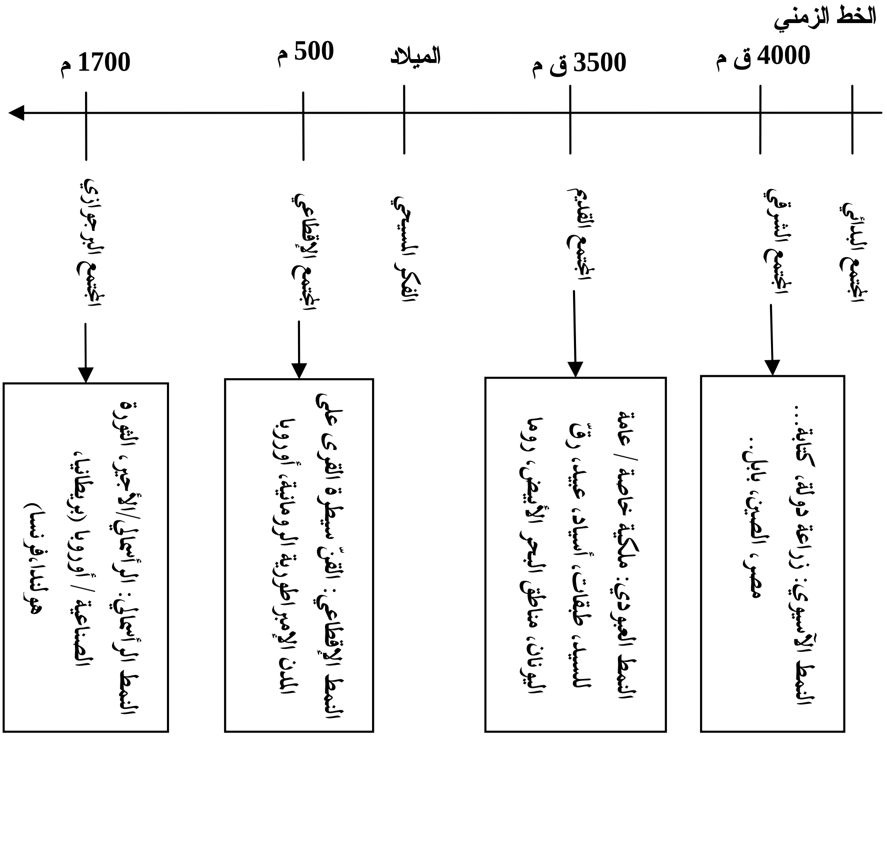

الفصل الأوّل:

تاريخ الفكر الاجتماعي وتطوّره

المبحث الأوّل:
الفكر الاجتماعي في الحضارات الشرقية

تمهيد:

"الحضارة نظام اجتماعي يعين الإنسان على الزيادة من إنتاجه الثقافي، وإنما تتألف الحضارة من عناصر أربعة: الموارد الاقتصادية، والنظم السياسية، والتقاليد الخلقية، ومتابعة العلوم والفنون؛ وهي تبدأ حيث ينتهي الاضطراب والقلق، لأنه إذا ما أمِنَ الإنسان من الخوف، تحرّرت في نفسه دوافع التطلّع وعوامل الإبداع والإنشاء، وبعدئذ لا تنفك الحوافز الطبيعية تستنهضه للمضي في طريقه إلى فهم الحياة وازدهارها" (ويل ديورنت، **1970**، **12**).

هكذا عرّف "ويل ديورنت" الحضارة، لكنّ البحث عن مهد هذه الحضارة البشرية، أو المولد الأوّل لها ما يزال محلّ صراع قائم إلى اليوم بين المؤرّخين وعلماء الأنثروبولوجيا، وذلك لاعتبارات جمّة، أغلبها إيديولوجية أكثر ممّا هي علمية. ورغم أنّ الآراء في معظمها تتّجه إلى ترشيح حضارتين أساسيتين هما: الحضارة الميزوبوتامية في بلاد الرافدين والحضارة المصرية الفرعونية، إلاّ أنّ النقاش يبقى مفتوحاً في مدى أسبقية الواحدة على الأخرى، واستنساخ هذه لتلك، وأيّها تملك تأثيراً أشدّ على أختها.

وهنا يرى رالف لنتون **R. LINTON** «أنّ المراكز الحضارية القديمة نشأت منفصلة عن بعضها بعضًا في خطوط متباينة، وإن وُجد بينها تشابه فإنّ ذلك يعود إلى تشابه ظروفها فقط، وقد نشأ أغلبها على ضفاف الأنهار ما ساهم في تقدّم الزراعة والمواد الأولية وطرق النقل» (لنتون رالف، **1990**، **257**–**259**). وإن لاقت حضارة الفراعنة اهتماما شديداً، إلاّ أنّ زميلتها في ما "بين النهرين" لم تجد ما حظيت به الأولى من عناية ودراسة.

أ- حضارات الشرق الأوسط:

1- الحضارة الميزوبوتامية MESOPOTAMIE:

أ- الموقع والتاريخ:

تقع جغرافيا بين الشام ومرتفعات إيران، أغلب جزئها الجنوبي صحراء يعبرها نهران يعطيانها الخصوبة الضرورية، بخاصة بفيضاناتهما التي تعتبر أخطر من فيضانات النيل. وتقع إلى الشمال هضاب صخرية وجبال مرتفعة (منبع المملكة الآشورية التي تمتاز بذهنيتها العسكرية ونمطها المعيشي الشديد تماشيًّا مع قسوة الطبيعة)، أمّا من جهة الغرب فتحدّها سوريا "أمورّو" التي تعتبر مصدر معظم الهجرات السامية. وقد أثارت أنهار هذه المنطقة أطماع الحضارات الأخرى ما جعلها في حروب متكررة مع بعضها (لبيب عبد الساتر، 1974، 34).

كلمة الميزوبوتامي "Mésopotamie" إغريقية الأصل مُشكّلة من جزأين:

ـــ ميزوس MESOS: وتعني الوسط.

ـــ بوتاموس POTAMOS: وتعني النهر.

وقد تعدّدت التسميات المُطلقة على هذه الحضارة العريقة، لكنّ أقربها ترجمةً لكلمة "الميزوبوتامي" تسميتُها بـــ "حضارة بلاد ما بين النهرين" (دجلة والفرات أو"العراق القديمة").

تعاقبت على هذه الحضارة عدّة إمبراطوريات ضمن إطار واحد، فأعطت لها كلّ واحدة منها طابعها العام والمميز، حتّى إنّ البعض اعتبرها حضارات مختلفة لا حضارة واحدة فقط. وإن كان الشكل العام واحداً، فقد أخذت كلّ إمبراطورية اسمها من الشعب الذي تولّى الحكم خلال تلك الفترة، وأهمّ هذه الإمبراطوريات المتعاقبة:

1) الإمبراطورية السومرية (القرن 32 – 24ق.م): لا يعرف المؤرخون بدقّة أصل هذا الشعب، لكنّ المؤكد أنّهم أوّل من سكن المنطقة، ويرى البعض

أنّهم آريون قدموا من الشمال (إيران أو الأناضول...)، الدليل على ذلك نقلهم واحترافهم للصوف والنحاس (فلا وجود للصناعة الراقية للصوف في مناطق العراق الحارّة، كما أنّها لا تتوفر أيضاً على مادة النحاس)، وهي المملكة الوحيدة غير السامية، وقد مرّت بثلاث مراحل:

1- المدن المستقلة.

2- المدن المستقلة في ظلّ الكاهن باتيزي **Patesie**، وعرفت حروباً شديدة بين هذه المدن نظرا لاستقلاليتها جزئيا (خاصة "لاكاس" و "أومّا").

3- الوحدة تحت إمرة ملك واحد "لوغال زاجيزي **Lougal Zagizi**"، واتخذت "أروك **URUK**" عاصمة لها، وامتدّت حدودها من الخليج إلى المتوسّط، إلاّ أنّها لم تعمّر سوى 50 عاما، لتسقط على يد الأكاديين (2725 ق.م) (لبيب عبد الساتر، 1974، 36)

أهمّ المدن التي أسّستها: "أور **UR**" "المُقَيَّر الحديثة"، "لكش **LAGASH**" "سيبرلا الحديثة"، "لارسا **LARSA**" "المسماة في التوراة باسم إلاسار والمعروفة الآن باسم سنكرة"، "أروك **URUK**" "وهي المسماة إرك في التوراة والمعروفة الآن باسم الوركاء"، "أومّا **OUMMA**"، إريدو "أبوشهرين الحديثة" ونبور "نفر" (ويل ديورنت، 1970، 207). ولم تتنبه هذه القوّة إلى قوّة أخرى كانت تنشأ تدريجيا بجوارها، ألا وهي " الإمبراطورية الأكادية".

2) **الإمبراطورية الأكادية – السومرية** (القرن 24 – 20 ق.م): قدم أصحابها من سوريا "أمورّو" بزعامة السامي الأصل "سارغون الأكادي **Sargon l'Ancien**" (2370 ق.م – 2314ق.م)، وبدؤوا بمدينة صغيرة "كيش" ثمّ تكاثروا فهزموا السومريين، فتغلب العنصر السامي على العنصر الآري، وتمّت إطاحت دولة السومريين. وقد توسعت فتوحات الأكاديين حتّى وصلت المتوسط، تحقيقًا لرغبة "سرغون **Sargon**" الذي وعد بأنّه "سيغسل

سيفه بمياه المتوسط". إلاّ أنّها انهارت نتيجة كثرة الثورات، وحاول حفيد "سرغون Sargon" إعادة مجدها دون جدوى، فسقطت ولم تبق منها إلا "لاكاش" و"أور".

3) **الإمبراطورية البابلية** (القرن 20 – 2 ق.م): ذات أصول سامية هي الأخرى قَدِم مؤسّسوها من "أمورو"، بتشجيعٍ من الحكّام قصد منع العنصر السوماري من الطغيان، فاستقروا في بابل، بذلك تعاقبت على السلطة سلالات ملكية جديدة، عملت على توحيد البلاد، بخاصة ملكها السادس والأكثر شهرة "حمورابي Hammourabi"، الذي وطّد سلطتهم وحكم الإمبراطورية 40 سنة، وتوسعت على يده الدولة حتّى أشور وسوريا "أمورو". لكنّ هذه المملكة عرفت الانحدار تدريجيا بعد موته على يد مملكة "الحثيين" و"الكاشية".

4) **الإمبراطورية الآشورية** (القرن11– 7 ق.م): هي خليط من جنسيات مختلفة يغلب عليها العنصر السامي، نشأت تدريجيا في أحضان المملكة البابلية، بدايةً من "كردستان" و"الموصل" وصولا إلى "أشور" التي أعلنتها عاصمة لها، والتي نقلتها بعد ذلك إلى "نينوى Ninive". أشهر ملوكها "أشور بانيبال" المعروف باهتمامه البالغ بالعمران، وقد شيّد قصراً كبيرا في مدينة " نينوى Ninive" العاصمة، كما كان مولعا بالحروب. وقد تراجعت على يد "الحثيين"، ثمّ استعادت سلطتها على يد "آشور ناصربال" وتفوّقت عسكريا، حتّى إنّها احتلت آسيا الصغرى وفينيقيا وفلسطين ومصر.

5) **الإمبراطورية الكلدانية** (626 – 539 ق.م): تتكوّن من قبائل سامية نزحت من "أمورّو"، وقد تكاثر الكلدانيون في بابل، ثمّ تحالفوا مع "الميديين" بإيران وأسقطوا نَينَوَى (عاصمة الأشوريين) 612 ق.م، فورثت ملكها وأعادت لبابل مجدها خاصة في فترة حكم الملك "نبوخذ نصر"، لكنّها سرعان ما اشتغلت بالترف والبذخ، ما ساهم في انحلال ملكها، وضمّها "كورش Cyrus" الفارسي لملكه، بذلك انتقل مركز الحضارات إلى بلاد فارس.

وهكذا فقدت هذه المنطقة استقلاليتها وانهارت حضارتها إلى أن ظهر الإسلام بعد قرون طويلة وأعاد لها مكانتها العالمية (فركوس دليلة، 1993، ج1، 24 – 28).

ب- الخصائص الحضارية:

أهمّ الخصائص المُميّزة للحضارة الميزوبوتامية:

1 – المنظومة القانونية:

تعتبر أقدم حضارة عرفت نظاماً قانونياً دقيقاً وقائماً بذاته، تُرجمت مجموعاتها القانونية إلى عدّة لغات، وما يزال القضاء الحديث يعتمد على أغلب أجزائها إلى اليوم، ولعلّ أشهر هذه المجموعات قانونا "أورنامو" و"حمورابي"، وهما يضمان نظما مختلفة تتعلق بالجوانب الاقتصادية والزراعية والاجتماعية وغيرها، وأحكاما متفرقة في الرّق، والجرائم والعقوبات... وتمتاز هذه القوانين (خاصة قانون حمورابي) بـــ:

- الاعتراف بالآلهة.
- الدعوة إلى احترام القانون وربطه بالجزاء الديني.
- تناول القضايا الواقعية الملموسة.
- التركيز على الاستقرار الأمني، وأهداف تخدم الازدهار الاقتصادي.
- العدالة وحماية الضعيف.
- القسوة في الأحكام الجزائية.
- الترتيب والدّقّة.
- الاعتراف بالملكية.
- حريّة التعاقد (فركوس دليلة، 1993، ج1، 28 – 36).

وما ساهم في تطوّر هذه القوانين، المستوى الاقتصاديُّ والاجتماعي والديني الذي شهدته هذه الحضارة في مختلف المجالات. كما كان نظام العقوبات

دقيقاً يقوم على المعاملة بالمثل والدية وحفظ حقّ الأشخاص والأموال. وقد تكون العقوبات مالية أو جسدية، تختلف حسب الطبقات (العبيد، الأسياد، الأحرار).

الهدف الأساس من هذه القوانين الصارمة ضمان الاستقرار الاقتصادي، من جهة، لذلك كانت شديدة فيما يخص المعاملات المالية، كفرض عقوبات الإعدام ضدّ السرقة وقاطع الطريق والتطفيف في الكيل، وحماية الحياة الاجتماعية الأسرية والطبقية من جهة أخرى (فركوس دليلة، 1993، ج1، 3، 77) خاصة أن المدينة لم تكن قائمة على التقسيمات العشائرية، إنما على العلاقات المدنية فقط (لنتون رالف، 1990، ج2، 93).

2 – النظام الزراعي:

كان متطوّراً يستجيب لمتطلبات الحياة اليومية والاقتصادية، وما زاد في تقدّمه دعم الحكام له، وقد تجلى ذلك في عدّة مظاهر أهمّها: تسجيل الأراضي، وإنجاز الدراسات المسحيّة، وترتيب نظام توزيع القنوات، والسقي، وتصميم المخططات...الخ.

3- الصناعة والتجارة:

عرفت التقنية تقدما كبيرا خاصة التعامل مع المعادن وصبّها والفخار وصنعته، وأحرزت الصناعة الحرفية تطوّرا ملحوظا من زجاج ونسيج وغيرهما، ومن المحتمل أن النفايات الحرفية التي وجدت فيها تعود إلى عام 2000 ق،م. ما ساهم في تفعيل التجارة الخارجية بخاصة (تصدير القماش مقابل الذهب من الهند ومصر، والنحاس من قبرص وآسيا، والقصدير من القوقاز)، كما كانت بلاد ما بين النهرين مركزا تجاريا نشطا داخليا ما أثر على وسائل النقل البرية والبحرية، وتطوّر النظام النقدي (لنتون رالف، 1990، 69 – 270؛ فركوس دليلة، 1993، ج1، 7 – 40).

4 - النظام الطبقي:

كل الحضارات القديمة قائمة على التقسيم الطبقي، منها هذه الحضارة التي تضم الطبقات التالية:

- **الطبقة العليا**: تضمّ الملك وموظفي القصر، والكتّاب، والكهّان . فالملك يعتبر الكاهن الأكبر، ولا يصبح ملكًا إلا إذا تمّت تزكيته من قبل الكهّان وقد لا يجمع هؤلاء عليه فيُعوّض. أما الكهّان فقد استفادوا من أموال المعابد وشكّلوا طبقة شبه مميزة، لكنّ الكتّاب عددهم قليل، تحولت بعد ذلك مهمتهم إلى وظيفة داخل الجيش قصد حفظ الأسرار.

- **المواطنون الأحرار "الأويلو Awilu"**: تضم التجّار والحرفيّين والمُلاّك، لها الحقّ في الملكية، لكن عليها احترام أوامر الكهّان، ولم تُقص من هذا الحقّ المرأة بل كانت لها إمكانية الملكية. لكن بإمكان الزوج في هذه الطبقة بيع زوجته وأولاده على أن لا يتجاوز هذا البيع مدّة ثلاث سنوات ثمّ تعود له، أو رهنهم في حال الدَيْن.

- **المساكين "المشكينو Mushkinu"**: تضمّ الطبقة الوسطى، والعبيد الذين حُرّروا، والفقراء وبعض الأحرار، يعملون طول الوقت، يمكنهم بيع أنفسهم، يُميّزون بإشارة مخصّصة (عبيد بالولادة أو عن طريق الأسر أو البيع) ويعاملون كسلع. يقومون بأرذل الأعمال وأشقها، ويخضعون لعقوبات أشدّ من التي تُفرض على الأحرار.

- **الرقيق"الواردوا"**: هم محميون قانونياً، ويمكن عتقهم.

5 - المعتقدات الدينية:

أ- **الألوهية**: كغيرها من الشعوب البدائية مرّت الحياة الدينية من حيث "الألوهية" بالمراحل التالية:

- تقديس مظاهر الطبيعة.

– عبادة القوى الكامنة وراء هذه المظاهر كحرارة الشمس، وقوّة المياه خلال فترات الطوفان والفيضان، وهذا ما تجلى بقوة في أسطورة "جلجميش **Gilgamesh**" الشهيرة.

– إصباغ الطابع البشري على الآلهة (لهم نقاط قوّة وضعف)، وميزة هذه الآلهة أنّها قوى طبيعية كالسماء والأرض والشمس والقمر والماء والنار ... قابلة للتجسيد أحيانا، وتأخذ صفات بشرية.

– تأليه "الخصب" أو الزرع نظرًا للطبيعة الزراعية المميّزة لهذه الحضارة (كـــ "ميردوخ" ابن إله المياه الجوفية "إيا").

– المجموعات الثلاثية للآلهة، كمجموعة: آنو (إله السماء)، أنليل (إله الأرض)، إيا (إله مياه الجوف)، ومجموعة: شمش (إله الشمس)، سين (إله القمر)، أدَد (كل عناصر الطبيعة).

– مرحلة تقديس أنصاف الآلهة والعمالقة مثل "جلجميش". (لبيب عبد الساتر، **1974**، **40**)،

وقد تعدّدت المعتقدات الدينية وكثرت المعابد في كلّ مدينة، إذ أنّ لكلّ منها إلهها الرئيس (على شكل تمثال) مع وجود الأقلّ منها شأنًا، ووضع الإله الأكبر في هيكل معيّن، لأنّ السيطرة عليه يعني السيطرة على المقهورين، وتُعامل التماثيل معاملة الملوك (تأثير، حريم، خدم ...)، لها زوجة رئيسة (انتى"**Entu**") وأخريات أقلّ درجة، تنام في المعبد لأنّ الآلهة قد تُوحي لها بقرار معيّن، كما يفعل ذلك الحاكم أيضاً حين يريد اتخاذ قرار مهمّ...(لنتون رالف، **1990**، ج**2**، **74 – 278**).

وتحاول كلّ مدينة فرض إلهها على المدن الأخرى (لأنّ ذلك رمز الانتصار عليها) وترفض عبادة إله مدينة أخرى، وإذا اضطرت لذلك فهي لا تضعه الأوّل في طقوسها. ونفوذ الإله يُعبّر عن نفوذ الدولة المُهيمنة وعن ملكها، فـــ"ميردوخ" إله بابل خلال حكم "حمورابي"، و"أشور" إله الآشوريين مع

ملازِمَتِه "عشتار"، وإن بقيت بعض المناطق مع ميردوخ لكرهها الآشوريين (لبيب عبد الساتر، 1974، 40).

ب- **المعابد**: وشُيدت لهذه الآلهة معابد تُسمّى "الزقورة" أشهرها "برج بابل"، بُنيت على شكل طبقات تُسهّل عملية الاتصال بها. وكانت هذه المعابد جدّ غنية نتيجة تزويدها بالهبات ودعمها من قبل الملوك، حتّى إنّ بعضها شكّل عالمًا اقتصاديًا قائمًا بذاته له كُهَّانه، وحرفيّوه، وفلاّحوه، وفنّانوه، ومحلاّته التجارية، وكنوز تُستخدم للقروض، ومساعدات تُقدّم للمحتاجين وتحرير العبيد، أو تُدّخر لوقت الحاجة كفترات المجاعة. وهي محمية قانونًا، فنهبها يُعرّض صاحبها لأقصى العقوبات التي قد تصل حدّ الإعدام. وتعتبر درجة الكاهن أعلى المراتب الاجتماعية، يمكن توريثها أو بيعها. ولا يعتبر الملك إلهاً (بخلاف مصر) لكنّه ينوب عن الألوهية ويتحدث باسمها ويحميها، لهذا يجب أن يكون ملتزمًا (فركوس دليلة، 1993، ج1، 1 – 47).

ج- **الحياة الروحية**: كانوا يعتقدون في:

– وجود الروح (روخا)، التي تنقسم إلى قسمين: روح الخير، وروح الشرّ.

– قوّة تأثير السحر والشياطين، وصلتها الشديدة بالآلهة لهذا اعتنوا بالتنجيم، والعرافة والطلاسم...

– أنّ النفس لا تموت، لكنّها تذهب إلى أصقاع لا رجعة لها في حياة البؤس، لذا اعتنوا بالحفاظ على الجسد (دون تحنيط)، وأقاموا له تمثالا شبيها به يُوضع مع الجثة في القبر، يُرفق بكل ما يحتاج له هناك (خاصة الذهب).

6 – النظام السياسي:

الحكم مُوزّع بين الملك والكهّان والأسياد. ووظيفة الملك شرفية، لأنّ الحكم من الناحية القضائيّة يندرج في صلاحيات الكهّان والأعيان أحيانا (عهد حمورابي)، أمّا من الناحية الإدارية فهو من صلاحيات الموظفين والأسياد. وقد

يصبح الكاهن حاكما بصفة "شرعية"، والمُلك وراثي. أمّا الضرائب فتُجمع من قبل الموظّفين مع وجود مراقبين يتولّون أمر الشكايات، ووضع حدّ لتجاوزات الولاة (فركوس دليلة، 1993، 8 – 62).

7 – نظام الأسرة:

ربع التشريعات المُنتجة في هذه الحضارة تتعلّق بالأسرة. وتعتبر هذه الأخيرة وحيدة الزوجة إلاّ لظروف طارئة فقط (مرض أو عدم إنجاب)، فالغاية منها قانونًا الإنجاب، لهذا يمكن تطليق الزوجة في حال عدم تأديتها لهذه الوظيفة. ويُعطي قسط من المال "الترهاتو" لوالد الزوجة، لا يتصرّف فيه إلاّ إذا أنجبت ابنته وإلاّ تعرّضت للطلاق. ويُعاقب الرجل في حال الخيانة. للمهر قيمة كبيرة، ينقسم إلى:

– **البيبلو**: يعطى أثناء الخطبة، وفي حال الفسخ يبقى عند المرأة، أمّا إذا كانت السبب في الانفصال يُعاد الضعف للرجل.

– **الشركتو**: يُسلّم أثناء الزواج وهو مِلك للأولاد، ويعتبر بمثابة الإرث.

– **النودونو**: يُعطى خلال الحياة الزوجية، ولا تتصرّف فيه المرأة إلاّ إذا توفي زوجها.

أمّا الطلاق فهو مشروع، له حالتان: الطبيعية بالموت، والإرادية التي لا تتمّ إلا إذا كانت المرأة عاقراً أو خائنة أو مهملة للبيت، وفي هذه الحال قد تنزل منزلة العبيد، ويمكن إضافة امرأة ثانية في حال مرض الزوجة ولها الحرية في الطلاق أو البقاء (قانون حمورابي). ولا يُسمح للمرأة بمغادرة زوجها إلاّ في الحالات القصوى من المعاملة وإلاّ عُوقبت بالموت غرقاً أو الإلقاء من فوق الحصون. كما يمكنها الزواج مؤقتًا إذا خرج زوجها للحرب حتّى يعود، أمّا إذا خرج كارها للمدينة فلا تعود له أبداً (فركوس دليلة، 1993، 1). ورغم هذه المكانة التي كانت تحتلّها المرأة فقد كان بالإمكان بيعها إن أرادت ذلك لعائلة أكثر غنى أو رهنها مقابل دين، وتستطيع استئجار محضنة إن كانت عاقرًا تلد

لها، وتعتبر أطفال المحضنة أبناءها بذلك لا يحقّ لزوجها تطليقها أو الزواج عليها. وللذكر حقّ الميراث فقط إذا كان شرعيّاً أو تمّ تبنيه ولا حقّ للمرأة فيه.

8 - العمران:

تدلّ الآثار القديمة لهذه الحضارة أنّها أوّل من شُيّدت على يديها المدن، وعاشت فترة استقرار وازدهار، وإن بقيت القرى أو الأرياف منفصلة عنها بشكل واضح، مع احتمال وجود علاقات تبادلية بينها وبين الحضارات الأخرى المجاورة لها بخاصة المصرية بداية من **3500** ق.م. وتُشكل منطقة "ما بين النهرين" أكبر موقع للتجمع السكاني، إذ عرفت تزايداً ديموغرافياً كبيراً، لاسيما بعد إنشاء نظام قنوات المياه، ما جلب لها أعدادا كبيرة من السكان وتمازجت فيها أجناس متعدّدة. وكانت المدن مُحاطة بالأسوار الضخمة للدفاع عن نفسها من جهة واستخدامها جسوراً من جهة أخرى، وتقدّمت الكتابة على ألواح الطين المحروقة اليابسة (لنتون رالف، **1990**، ج**2**، **67**).

أتقن حرفيو هذه الحضارة مهنة النحت في البداية لضرورة صناعة تماثيل تُوضع في القبر شبيهة بصاحبها، لكنّهم سرعان ما عوّضوها بنماذج موحّدة لكلّ الموتى، كما كانت العناية في النحت برموز القوة كالأسد، والثور... مع إظهار العضلات بشكل بارز، إلاّ أنّ أشكالهم لم تكن متجانسة نتيجة نقص الحجارة. وبرزوا أيضا في صناعة الخزف والآجر. أمّا بيوتهم فكانت تُصنع من الطين المُجفّف والآجر، وإذا تمّ جرفها بالمياه خلال فترات الفياضات فلا يُعاد بناؤها من جديد، إنّما تُبنى المنازل الجديدة فوقها مباشرة، لهذا نجد مدينة فوق أخرى. وقد خلّفت لنا هذه الحضارة عدّة قصور منها: قصر خور ساياد (نينوى)، قصر نُبوخذ نصّر، برج بابل المشهور، وأغلبها كان في الأصل زقورة أو مباني دينية شاهقة الطول للاتصال بالآلهة ومراقبة الأفلاك... أمّا المقابر فكانت تُحفر تحت الأرض (لبيب عبد الساتر، **1974**، **46**).

9- التعليم:

استخدمت المعابد مراكز للتعليم وتدريب التلاميذ، وتخريجهم كُتّابا أو أطباء أو محامين أو كهنة، وللتلاميذ مكانة مرموقة، ويُصنّفون بعد التكوين إلى: طقوسيين أو عرّافين، ونتيجة لذلك تطوّرت حركة العلوم من معرفة للتنجيم وحركة الأجرام وصيرورة الكون (لنتون رالف، **1990**، **79**، **281**).

وفي مجال العلوم يمكن أن نُسجّل عن الميزوبوتاميين ما يلي:

- إبداع الكتابة المسمارية (تكتب من اليمين إلى اليسار، ومن الأعلى إلى الأسفل).
- أغلب آدابهم كانت حول الرثاء والقليل منها عن الدنيا.
- نظامُ تقويم دقيق ناتج عن بعض الضرورات الدينية، وهو أشبه بنظام التقويم الحديث، وقد بدؤوا بالتقويم القمري ثمّ عدلوا عنه للتقويم الشمسي. ووُضعت السنة التجارية لحماية الربا (الشهر **6** أسابيع، والأسبوع **5** أيام، والشهر **30** يوما، والسنة **360** يوما،...)، وقُسّم اليوم أيضاً إلى **12** فترة، والساعة إلى **60** دقيقة والدقيقة إلى **60** ثانية...
- يبدأ التاريخ مع كلّ ملك جديد أو حدث مهم.
- رمزوا للواحد بـــ (▼) ولكلّ عشر بـــ (◀) وكرّروها للوحدات والعشرات، وعرفوا نظام المجمّعات (فـــالدزينات تساوي **12**، والمثقال **60**، والشكلو **180**) وجدول الضرب.
- تمّ تنظيم الطبّ بخاصة مع حمورابي وإن بقي مرتبطا بالدين، فالطبيب مثلا يُعاقب إذا أخطأ وقد يصل حدّ القتل أو نزع اليد (لبيب عبد الساتر، **1974**، **51**، **54**)

2- الحضارة المصرية الفرعونية Egypte pharaonique:

أ- الموقع والتاريخ:

يتكوّن اسم هذه الحضارة من كلمتين مفتاحيتين: "مصر" و"فرعون"، أمّا

كلمة "مصر" فتدلّ في اللغات السامية على "الحدّ" (أقصى الشيء)، ولعلّ مصر سُمّيت كذلك نتيجة موقعها الجغرافي المتطرّف، والذي يحدّه البحر الأبيض المتوسط شمالاً، والبحر الأحمر شرقاً والصحاري الرملية جنوباً وغرباً (الصحراء الكبرى، صحراء النوبة). وأمّا كلمة "فرعون" فهي لقب مَن حكم مصر، وقيل إنّه اسم كلّ مَلِكٍ من ملوك العمالقة مثل: الأكاسرة أو كسرى للفرس، وقيصر وهرقل للروم والرومان، والنجاشي للحبشة، والتبابعة أو التُبّع لليمن، أو أنّه اسم كانت ملوك العمالقة بمصر تُسمّى به (القرطبي أبو عبد الله محمّد ابن أحمد، 1372، 384)، وهي أيضا كلمة مُشتقة من اسم "برع PERAA" التي تعني "البيت العظيم"، لأنّ الملك كان يُدعا "سيد البيت العظيم"، والتصقت التسمية بملك مصر بداية من عهد الأسرة 18.

يُقدّر المُؤرّخون عمر هذه الحضارة بحوالي 22 قرنا (3200 ق.م)، لتنتقل بعد ذلك المنطقة إلى حكم الآشوريين (671- 663 ق.م)، ثمّ الفرس (525ق م)، ثمّ الإغريق في العصر البلطمي (332- 30 ق.م) فالروم (30 ق.م)، وأخيرًا الفتح الإسلامي على يد عمرو بن العاص (640 م). والفترة التي همّنا هي الفترة القديمة.

أصل المصريّين خليط من عناصر متعدّدة قدمت من بلاد النوبة جنوبًا، وليبيا غربًا، والساميين شرقاً، ورغم هذا التعدّد، فقد التحم الخليط العرقي في شعب أصبح ذو شخصية متميّزة، وما زاد في وحدته "واد النيل" وما كان يجود به خلال فيضاناته من وحل يتراكم على ضفافه ويزيد في اتساع الأراضي الخصبة، لكن تزايد الهجرات حتّم توسيع التمركز العمراني وتقسيم السكان إلى قرى مجاورة.

تنقسم مصر القديمة إلى منطقتين أساسيتين هما:

1- **مصر العليا**: تقع في الوجه القبلي، أو من الفيوم حاليا إلى أسيوط، وقد انفردت بآلهتها وعقائدها ثمّ توحّدت تحت إمرة ملك واحد، والذي تمّ

اعتباره نصف إله (بداية الصيغة الإلهية للملك)، أمّا إلهها فهو الإله "سبت Sept"، الذي يُرمز له بالأفعى، ويُتوج الملك بتاج أبيض. وأبرز مدنها نَخن ونخب.

2- مصر السفلى: تقع بالدلتا أو الوجه البحري، وقد مرّت بنفس مراحل مصر العليا، لكنّها أكثر تقدّمًا من زميلتها، ما زاد في العداء بينهما، ويُتوّج ملكها بتاج أحمر، إلهها "هورروس" (صقر). وقد تمكّن "نارمر" أو "ميناس" (من مصر العليا) فرضَ الوحدة على الدولتين، واتخذ "منف" أو "ممفس" عاصمة له، ولبِس تاجًا مزدوجًا يُسمّى "بتنت **Pshent**" يحمل رمز التاجين معا، وتبدلت النظرة للملك إذ أصبح إلهًا كاملاً وأُطلق عليه اسم "فرعون" أو "الصرح الكبير" (لبيب عبد الساتر، 1974، 8).

ينقسم تاريخ مصر القديمة إلى ثلاثين أسرة حاكمة لكلّ واحدة منها مجموعة من الملوك، تبدأ بالأسرة الأولى على يد الملك "مينا" وتنتهي باحتلال الإسكندر الأكبر (332 ق.م). كما يمكن تقسيمها إلى ثلاث دول: القديمة، والوسطى، والحديثة. وتنتهي كلّ دولة بمرحلة انتقالية نتيجة أزمة أساسها إمّا ثورة شعبية أو تدخل أجنبي.

1) الدولة القديمة (3000 ق.م – 2255 ق.م): تضم عشر أسر، مقرّها "منف" (منفيس أو مصر السفلى القريبة من التقاء الصعيد بالدلتا). وتشكّل أسرها الستّ الأولى أرقى المراحل التي مرّت بها، حتّى سُمّيت بعهد "بناة الأهرام". وكان فرعون يملك كامل السلطات من ألوهية، وكهنوتية وقيادة للجيش وتولية للمناصب، وهو المالك الوحيد للأراضي المصرية باعتبارها ملكية شخصية له، ورثها عن أجداده. وأبرز فراعنتها "خوفو" و"خفرع" و"منكورع" أو منقرع بناة الأهرام. وانتهت بثورات حدّت من سلطة الفراعنة، وتأخّرت بالاقتصاد تأخّرًا شديدًا.

ورغم ذلك فقد كانت تحكم البلاد قوانين تمنع استبداد الحكم، لا يمكن

الخروج عنها أو مخالفتها إلا إذا تمّ تغييرها رسميا. لكن فرعون انتقل تدريجيا إلى الاهتمام بألوهيته وعبادة الناس له، وترك شؤون الدولة للموظفين الذين شكّلوا فيما بينهم طبقة خاصة تتمتّع بامتيازات دينية ومادية، مستحدثةً ألقاباً لها تنتقل عن طريق الوراثة، وذلك بداية من الأسرة الرابعة. وهكذا انتقل المجتمع المصري من حالة المساواتية إلى حالة الطبقية الإقطاعية، وتزايدت وطأة الاستبداد على الشعب من قبل حكام المقاطعات (ضرائب، معاملة سيئة).

2) **الدولة الوسطى** (**2100** ق.م إلى **1650** ق.م): قامت بعد القضاء على حكم الأسرة العاشرة (10)، وتضمّ الأسر الـــحادية عشرة (11) إلى الأسرة السابعة عشرة (17)، وقد نقلت مقرّ عاصمتها إلى طيبة (في مصر العليا)، وحوّلت العبودية من "رع" إله "منف" إلى "آمون" إله "طيبة"، لكنّ الكهّان لم يتركوا الوضع على حاله فأنشئوا علاقات قرابية بين الإلهين تدريجيا. وانصبّ فرعون على التنظيم السياسي والتخفيف من حدّة القمع بداية من الأسرة الثانية عشرة، لكنّ الوضع سرعان ما عاد إلى حاله السابق، ما عرّض البلاد لغزو "الهكسوس" (قبائل هندوأوروبية جاءت إلى سوريا من أواسط آسيا في القرن 20ق.م) القادمين بعرباهم البرونزية، والذين نصّبوا أنفسهم فراعنة وأسّسوا مدينة "أقاريس" عاصمة لهم، ودام ملكهم طويلا نسبيا، حتّى تمكّن أحد ملوك طيبة من طردهم وتأسيس الأسرة الثامنة عشرة وقيام الدولة الحديثة.

3) **الدولة الحديثة** (**1555– 1050**ق.م): امتدت من الأسرة الثامنة عشرة (18) إلى الأسرة العشرين (20)، وأبقت على طيبة عاصمة لها، واستطاعت تدعيم حكمها وجيشها وتوسيع سلطتها إلى بلاد فلسطين وسوريا، ومن أشهر ملوكها (تحموتس أو تحتمس، ستّى الأوّل، رمسيس الثاني) الذين رفعوا مكانة البلاد. لكنّ مصر دخلت مرحلة الانهيار نتيجة سيطرة الكهّان على الحكم، واستفادهم من امتيازات ونفوذ كبيرين عند الملك، حتّى اقتربت مكانتهم به. وبداية من الأسرة الواحدة والعشرين (21) إلى الأسرة الثلاثين (30) عاشت

حضارة الأهرامات مرحلة الانحلال الشبه دائم، وبقيت تابعة لعدّة دول كالآشوريين والفرس (فركوس دليلة، 1993، ج1، 12،80– 86)، ثمّ حكم اليونان مع الإسكندر الأكبر المقدوني.

ب- الخصائص الحضارية:

أهمّ السمات التي طبعت الحضارة المصرية الفرعونية:

أ- النظام الإداري:

كان القصر الملكي يحتلّ مكانة الإدارة المركزية بالنسبة للدولة، يُسانده نظام الوزراء، الذي يشغل وظيفة استقبال الشكاوي واتخاذ القرارات، وذلك بمساعدة "مجلس العشرة" الذي يُنظم الشؤون العامة، و"المجلس الخاص" المقرب من الملك. أمّا الموظفون فلهم هيكل هرمي جدّ منظّم، وظيفته مراقبة النشاط الفردي وإحصاء السكان والتصريح بالأملاك الخاصة وجمع الضرائب. كما أُنشئ نظام الأقاليم (النومن)، حين كانت تابعة للإدارة المركزية، قبل أن تستقلّ عنها تدريجيا بشكل نسبي، وإن بقيّ حاكم القصر المشرفَ العام عليها. فالنظام القانوني في مصر القديمة ضعيف إلى درجة كبيرة لتداخل الجانب الدينيّ بالسياسي (فركوس دليلة، 1993، 7– 92).

ورغم ذلك فقد اكتشف الباحثون معاهدات كثيرة عُقدت بين مصر الفرعونية ودول أخرى، كالمعاهدة المُبرمة بين الملك "رمسيس الثاني" و"ملك الحيثيين"، فهي أقدم معاهدة دولية عرفها التاريخ البشري، تقضي باحترام الدولتين لحقوق بعضهما بعضًا وتبادل المجرمين (عبد الحميد لطفي،1981، 00).

ب) النظام الاقتصادي:

يستند النظام الاقتصادي لدولة مصر القديمة على شريانها الطبيعي "نهر النيل"، فكما قال "هيرودوت" «مصر هبة النيل». لكنّ فيضان هذا النهر استلزم اتخاذ إجراءات احتياطية ووقائية لاستغلال المياه وتوجيهها، فأُبدع بذلك

نظام خاصّ للريّ واستغلال المياه في الزراعة، وابتكر المصريون عدّة أدوات فلاحية، ما يزال بعضها يُستخدم إلى اليوم (الشادوف، النورج، المحراث، المنجل.....) (صلاح مصطفى الفوال، 1996، 1). أمّا الصناعة فارتبطت بمتطلبات الملك وطبقة الأشراف وما تقتضيه المعابد، مُتمثلة في أدوات الزينة بمختلف أشكالها والكحل والزيوت والتذهيب والمساحيق والشعر المستعار للطبقات الراقية والروائح والعطور. وتنقسم التجارة إلى داخلية متطوّرة نتيجة تعدّد مجاري نهر النيل وروافده وامتداداها، رغم بقاء التعامل بالعملة ضعيفا، وخارجية محتكرة من قبل فرعون، لم تتطوّر إلاً في العهد الأخير منها، لأنّ مصر بقيت مدّة طويلة مكتفية بذاتها، تميل إلى العزلة (فركوس دليلة، 1993، ج1، 10).

ج) النظام الاجتماعي:

البدايات الأولى للنظام الاجتماعي المصري كانت دون طبقات، ثم أصبح طبقيا ولم يأخذ صورة واحدة إنّما تعدّدت أشكاله حسب المراحل، فقد كان طبقتان ثمّ أصبح ثلاث طبقات (الطبقة المقدسة المؤلّهة، طبقة الأشراف، طبقة الشعب) ومع ظهور الرقّ انقسم الشعب إلى أحرار وعبيد (غير مصريين وأسرى الحرب) (صلاح مصطفى الفوال، 1996، 1– 38)، وبشكل عام ينقسم النظام الطبقي إلى:

1– الطبقة العليا أو الحاكمة "الإيماخو": وهي طبقة مُتميّزة ماديًا واقتصاديًا تضمّ:

أ– **فرعون**: له السلطة الزمنية والدينية، فهو إله بعد أن كان نصف إله، وكلّ الطقوس الإلهية طقوس لفرعون ابن الإله "رع"، له الطاعة العمياء، لأنّه يملك كلّ شيء بما في ذلك الأشخاص، ويسهر على تنظيم كل شيء من اقتصاد، ودفاع... وغيرهما.

ب- **النبلاء والأشراف**: وهم من ذويه وأنسابه والمخلصين له، وأهمّ منصب هو الوزير "لاتي" المُلقب بـــ "عيون فرعون وآذانه"، مهمته مساعدة الملك، لكنّ سلطته توسّعت حتّى طغت على شخصية فرعون، لهذا أصبح منصبًا وراثيًا.

ج- **الكهنة**: تجمّعت عندهم أموال ضخمة نتيجة حاجة المجتمع لهم فاستأثروا بها، فقد وصل مثلا نصيبهم في الأراضي نصف الأراضي الزراعية لمصر. تمرّسوا في العلوم والسحر ما زاد من سلطتهم الروحية (المعنوية) فأصبحوا طبقة اجتماعية مميّزة، ولهم رئيس مركزه العاصمة، وقد تتعاظم سلطة بعضهم ليصبح فرعونًا (مثل أمنحوتب).

د- **الموظفون**: بدؤوا أقلّية ثمّ تزايد عددهم إلى الآلاف، ولكلّ منهم مهمة معينة (أمن، عدالة، ضرائب...) على رأسهم مدير الإدارة. وأعطيت لهم صلاحيات واسعة وصلت حدّ فرض العقوبات، وما زاد في منزلتهم صعوبة الحصول على هذه المناصب لاحتكارها من قبل أنساب فرعون الذين يحسنون القراءة والكتابة، وقد استبدلوا بعد غزو "الهكسوس" بالقادة العسكريين.

ه- **الكتبة**: الذين يُحسنون الكتابة والقراءة ولنُدرتهم قُرّب الكثير منهم وأصبح من الطبقة النبيلة (لبيب عبد الساتر، 1974، 10- 16).

و- **الجنود**: المصريون بطبعهم شعب مسالم، لكن خلال الأزمات يُستدعى الفلاحون للجيش، ومع الدولة الحديثة تمّ الاحتفاظ بالجيش ومنع من الالتحاق به الفلاحون كي لا يتأثر قطاع الفلاحة، فاستعان الملك بالمرتزقة من السوريين والليبيين السودانيين والأحباش، خاصة خلال غزو "الهكسوس" ، ثمّ تمّ تميزهم في فترات زمنية معيّنة، وبلغ الحدّ ببعضهم أن ملك أراض واسعة غير خاضعة للضرائب، وأصبحت من الفئات المقرّبة للكهان، فقد اكتسبوا مكانتهم بذكائهم (دهائهم) وشخصيتهم وحزمهم، ولهم شرف تصدير موائد فرعون (صلاح مصطفى الفوال، 1996، 6) وحياة الجيش عموما مرهقة.

2- الطبقة المحكومة أو الدنيا: يُعتبر أفرادها ملكية خاصة لفرعون، تتألّف من الفئات التالية:

أ- الفلاحون: وهم السواد الأعظم من الناس، غير مالكين للأراضي، لا يحصلون إلاّ على مداخيل عملهم، تابعين للأسياد لهذا قد يصبحون عبيدا، ويرتبطون بالأرض يُباعون معها، يمتازون بالصبر والطاعة ويدفعون الضرائب وإلاّ تمّ طردهم من الأرض. يخافون فترات الفيضان وما بعد الحصاد لأنّ العمل خلالها يقلّ، يزرعون مختلف المحاصيل ويربّون مختلف الأنعام (ما عدا الخيول) ويشاركونها السكن، ولأنّ جوّ مصر يساعد على "الخمول" -كما يرى بعض الأنثروبولوجين- فقد فَقَدَ الفلاحون الأمل في البحبوحة والرخاء.

ب- العمال: يتمثّل نشاطهم في الحرف التقليدية، خاصة النسيج والخزف والحليّ، فقد بدؤوا أعمالهم في القصر عند فرعون ثمّ استقلّوا بحرفهم، وأصبح بعضهم من الميسورين للهبات التي يحصل عليها من الملك.

ج- العبيد "حمو": هم أدنى الطبقات يُعاملون كأشياء ويعملون في القصر، ويُباعون في الأسواق، ولفرعون عدد كبير منهم، قد يهدي لأقربائه بعضهم، وقد يُحرّر البعض منهم ليصبح موظفًا أو قائداً في الجيش (فركوس دليلة، 1993، ج1، 13- 115). ولنظام الرقّ عدّة أصناف كرقيق فرعون الإله، ورقيق رجال الجيش، ورقيق الكهنة، ورقيق الأثرياء. وعلى السيد احترام العبد لأنّه سيُسأل عنه في الآخرة، وله حرية الاختيار في الزواج (بأمة أو حرّة)، وشهادته مقبولة. وقد كثر عدد العبيد فأقام لهم فرعون "رعمسيس الثالث" معسكرات وأجبرهم على العمل في الحقول، ثمّ سمح لهم بالزواج، وأُعطيت لهم أراضي لزراعتها، مع دفع الضرائب مثل الفلاحين. كما اعتمد عليهم لتدعيم مراكزه ضدّ الكهنة (لبيب عبد الساتر، 1974، 10- 16).

أمّا نظام الزواج فقد كان في البداية أحادياً، ثمّ أصبح نظامًا متعدّدًا، مع امتياز في المرتبة للزوجة الأولى، كما عُرف نظام التسرّي للنبلاء. وانتشر أيضاً

ما يُسمّى "بالزواج الإلهي" عند الملوك أو الزواج بالمحارم بخاصة من الأخوات والبنات قصد الحفاظ على الدم الملكي، ثمّ توسّع وانتشر بين الطبقات الأخرى في المجتمع. وكان عقد الزواج في البداية دينيا ثمّ تحوّل إلى عقد مدنيّ خالص. تندر حالات الطلاق في مصر القديمة، وللزوجة حقّ حلّ العلاقة الزوجية كالرجل، فحال المرأة فيها أحسن من جارتها بأثينا وروما (خاصة في ظلّ قانون بوخوريس **Bocchris** الملك في عهد الأسرة الــ 24). أمّا الإرث فيُقسّم بين الأولاد والزوجة، ولم يدم ذلك طويلا ليتّسع إلى الإخوة والأخوات، ثمّ إلى الابن الأكبر فقط وهو يقسمه على إخوته كيفما يشاء، ثمّ أصبح أكثر عدلا بالتساوي مع قانون "بوخوريس" (فركوس دليلة، 1993، ج1، 16– 121).

إضافة لما سبق فقد تميّزت الأسرة المصرية بالزواج المبكر وكثرة الإنجاب مع التبكير فيه، والاعتراف بدور الزوج ومكانته فيها. وقد ساد "النظام الأمسي" (الأموي) بدايةً، ومع قيام النظام الإقطاعي في فترة الأسرة الخامسة أُقيم "النظام الأبسي" (الأبوي). وسعى نظام (الرودو) في الدولتين الوسطى والحديثة إلى إزالة مسمّى الأبناء غير الشرعيين باعتبار السراري أعضاء داخل الأسرة (صلاح مصطفى الفوال، 1996، 9– 54).

والشعب المصري رغم طبقيته يعتزّ بنفسه، ويسخر من عادات الآخرين، يوثّر في غيره ويرفض أن يتأثّر بهم، وهذا ما حدث مثلاً مع الهكسوس الذين تشبّهوا بالفراعنة، وقد امتدّ تأثيرهم حتّى مناطق سوريا وفلسطين، وكان ملوك الشرق يبعثون بأبنائهم ليتعلّموا عندهم فإذا عادوا إلى الديار نشؤوا على التربية المصرية ونشروها (لبيب عبد الساتر، 1974، 16).

د) الحياة العلمية:

أعطى المصريون مكانة خاصة للعلم والتعلم حتّى إنّهم خصّصوا له إلها يُسمّى "تحوتي"، ولا يمكن تولي المناصب العليا إلا ببلوغ درجة كبيرة من التعلّم. ينقسم النظام التعليمي إلى ثلاثة مستويات: المستوى الأول (4– 10): تتكفّل به

الحكومة بالنسبة للطبقات العليا، والأسرة بالنسبة للطبقات الأخرى. والمستوى الثاني (10– 15) خاص بالطبقات الراقية. أمّا المستوى الثالث فيتم في المعابد (مثل معبد "عين شمس" بالإسكندرية، معبد أون)، وينقسم إلى: دراسات كهنوتية ودراسات دنيوية (مكاييل، جغرافيا، طب، فن، وغيرها)، والتي تنقسم هي الأخرى إلى دراسات مدنية ودراسات عسكرية (صلاح مصطفى الفوال، 1996، ص ، 55– 60). وقد أُعفي الطلبة من الضرائب، كما كان المصريون يفتخرون بكونهم عصاميّين من أبناء الطبقة البسيطة أو من الفلاحين (لنتون رالف، 1990، ج3، 30).

أهمّ ما يمكن تسجيله عن المصريين في مجال العلوم:

– **الكتابة الهيروغليفية**: شعر المصريّون بضرورة كتابة أفكارهم خوفًا من ضياعها، فربطوها بالمجال الديني وسمّوها "الهيروغليفية" أي "الصور المقدّسة". وتعود معرفة رموز هذه اللغة إلى سنة 1822، بعد قراءة "شامبوليون Champollion" لحجر الرشيد الذي وجده عند أحد جنود حملة "بونابرت" (1799)، فقد عثر على نصين أحدهما باليونانية والآخر بالهيروغليفية، وبالتدقيق اكتشف أنّهما ترجمة، فتمكّن من فكّ معظم رموز هذه الكتابة. وقد مرّت الهيروغليفية بمراحل هي: التصويرية (تدلّ الصورة على معاني معينة)، المقطع الصوتي، ثمّ تداخل المرحلتين السابقتين، ثمّ الجمع بين التصويرية والرمزية والمقطعية. يصل عدد حروف هذه اللغة إلى 700 حرفًا. وقد اختزلها الكهّان في "الهيراتيقية Hiératique"، أمّا العلمانيون فقد جمّعوها في "الدوميتيقية Domitique" التي هي اللغة الحيّة للكتابة القبطية (ويل ديورنت، 1970، 258).

– **الطب**: تعتبر مصر مركزا للعديد من المعارف الطبية والصيدلانية وصناعة الأعشاب، فما زال التحنيط مثلا يحتفظ بسرّه إلى اليوم، إذ حتّم ضرورة معرفة تجويف جسم الإنسان، لكنّ الطبّ بقي مرتبطا بالسحر، إضافة إلى استخدام الكثير من الأعشاب للعلاج من أمراض مختلفة، وأبرز أعلام هذا

الفنّ "سنحوت" بكتابه "التوليفات".

– **المهن والعمارة**: تقدّموا في مجال التعدين وصناعة الزجاج وفنون العمارة، وما الأهرام إلا دليل قويّ على ذلك. كما مارس الموظفون فنّ التوثيق وإحصاء المهن فتطوّرت اللغة الهيروغليفية على يدهم (3560– 3200 ق م)

– **الجامعات**: أُنشئت بمصر إحدى أكبر الجامعات القديمة المتمثّلة في جامعة الإسكندرية (بداية القرن 3ق.م)، والتي تتلمذ بها كبار المفكرين، من أبرزهم قائمةٌ طويلة من أعلام الإغريق أمثال: أرشميدس، وبطليموس، وأقليدس، وجالينوس، وبولس، وضمّت في مكتباتها عددا كبيرا من المؤلّفات (صلاح مصطفى الفوال، 1996، 9– 54، 20– 24).

– **الرياضيات والفلك**: هم أوّل من قسّم السنة إلى 12 شهرا، واليوم إلى 24 ساعة (الساعة المائية ليلا والشمسية نهارا). وبحساب فيضان النيل المنتظم لاحظوا أنّ عدد الأيام هو 365 يوما (السنة النيلية)، فقسّموها إلى أربعة فصول. ويبدأ التأريخ عندهم بزمن تولّي الفرعون الجديد للسلطة (العام السادس من حكم الفرعون كذا). عرفوا الأعداد بتكرار خط عمودي (|)، والعشرة بـــ (ہ) والمئة بـــ (9)، واستخدموا بعض الكسور. وتمرّسوا في حساب المساحات وتحديدها لأنّ النيل يُخفي تفاصيل الأراضي بعد فيضانه، لهذا وجب إعادة رسمها من جديد، وطبّقوها على المباني (لبيب عبد الساتر، 1974، 20– 22).

ه- النظام الديني:

يقول "هيرودوت" عن ديانة المصريّين: «إنّ المصريين أشدّ البشر تديّنا، ولا يُعرف شعب بلغ في التديّن درجتهم فيه، فإنّ صورهم بجملتها تمثّل أناسًا يُصلّون أمام إله، وكتبهم في الجملة أسفار عبادة...ونسك» (صلاح مصطفى الفوال، 1996 2001، 41، 44). وتعكس دراسة طبيعة الفكر الاجتماعي الفرعوني مدى الارتباط الشديد بين هذا الأخير والنسق الديني الكهنوتي، وعدم

القدرة على الفصل بينها وبين الحياة المدنية والاقتصادية السائدة (عبد الله محمّد عبد الرحمان، **2001**، **15**). وأهمّ ما يميّز الحياة الدينية عندهم:

أ- الألوهية: الحامي الأساسي للنظام الديني هم الكهّان، الذين ينقشون مهامهم في جدران المعابد ليحترموها (مثل ما هو في أبواب معبد "أدفو")، والآلهة قد تكون حيوانية أو شبه حيوانية، محليّة أو وطنية، تُحدَّد مكانتها وفقًا لمكانة الإقليم الذي تنتمي إليه. وما يطبعها في العموم التعدّد والكثرة من إقليم لآخر، ومن أهمّ آلهتهم المشهورة: "رع **Ràa**" إله الشمس، و"نوت **Nout**" إله السماء، و"جب **Gheb**" إله الأرض، و"نون **Noun**" إله الماء الأزلي وأصل كلّ شيء، و"ماعات **Màat**" إله العدل...، ولكلّ مدينة إلهها ("أزوريس" في "أبيدوس"، "بتاح" في "ممفيس"، "آمون" في "طيبة"، "هوروس" في "إدفو"، "هاتور" في "دندرة") تحاول فرضه على زميلاتها، ويبقى فرعون الإله الأكبر لهم (فركوس دليلة، **1993**، ج**1**، **3**).

وقد مرّت الآلهة بمراحل، تكمن الأولى منها في عبادة القوى الداخلية التي تسكن الحيوانات خوفا منها (الأفعى في الصحراء، التمساح في النيل)، ثمّ اعتبار البشر أنصاف آلهة وخُدّاماً لها، ثمّ تأليه البشر (فرعون) (لبيب عبد الساتر، **1974**، **24**).

ورغم هذا التعدّد فقد عرفوا في بعض المراحل الفكرَ التوحيدي بخاصة في عهد الأسرة الثامنة عشرة (**18**)، على يد ثورة الملك "أمنحوتب الرابع" (أخناتون/ ق**14**ق م)، الذي أعلن الحرب ضدّ الآلهة المصرية الأخرى خاصة "آمون"، وأمر بمحو كلّ صيغ الجمع الدالة على "الآلهة" من جدران المعابد، وغيّر اسمه من "أمنحوتب" (اسم إله) إلى "أخناتون" (أي المكرّم للإله آتون، و"آتون" تحريف كلمة "أدون" السامية التي تعني "السيّد" ومنها اشتقت كلمة "أدونيس") (عبد الحميد لطفي،**1981**، **2001**، **199**)، إلاّ أنّ المصريين سرعان ما عادوا إلى آلهتهم القديمة بموت "أخناتون"، وحوّلوا "آمون" إلى "أمون- رع"

(لبيب عبد الساتر، **1974**، **27**– **28**).

ب- **الروح والآخرة**: يُؤمن المصريون القدماء بالحياة الآخرة وبالحساب الذي سيلقونه أمام الإله الأعظم (أزوريس)، كما يعتقدون في "عقيدة الحلول" أو انتقال روح الإله إلى فرعون، الذي يملك بدوره ثلاث أرواح: روح الدنيا، والروح العليا الساكنة في السماوات والأرض، وروح الجسد، لهذا وجب الحفاظ على جسده بعد الموت، وعلى هذا الأساس أيضًا بُنيت الأهرام واستحدث التحنيط (صلاح مصطفى الفوال، **1996**، **1**، **44**). وتنقسم الروح، في عمومها، إلى جزئين: "الكا" التي ترتبط بالجنين وتنفصل أثناء الميلاد لتعود خلال الموت وتستقر في القبر، لذا وجب العناية بها، و"البا" التي تتحرّر بعد الموت مباشرة، وقد تعود في صورة حيوان أو إنسان، وهي الوحيدة التي تُلاقي الحساب في الحياة السفلى، أمّا "الاندفاع الحيوي" بعد الموت فيُسمّى الـــ "خا" وهو طير ينفث الروح في الميت (با) ليُصبح كائنا منتصرا (الـــ "أخ")، هكذا تكون الحياة الآخرة = خا + با + أخ (لبيب عبد الساتر، **1974**، **27**– **28**).

ج- **المعابد والمقابر**: تعتبر الأهرام مقابر في أصلها الأوّل، بُنيت على شكل سراديب تحت الأرض تغطّيها مصطبة، وعدّل فيها الفرعون "سنفرو **Snefrou**" فوضع لها عدّة مصاطب خوفاً من سرقة اللصوص لها، لما تحمله من ثروات الملك، وتدريجيا تشكّل الهرم المدرّج "هرم سقارة"، وهذا هو منطلق بناء الأهرام، وأهمّها أهرام مصر: خوفو، خفرع، ومنكرع بمنف العاصمة (لبيب عبد الساتر، **1974**، **27**– **28**). ومن عادة أصحاب هذه الحضارة وضع كتاب يُدعا "كتاب الموتى"، يتضمّن أسرار الخلود مع الميّت يستعين به بعد موته في مواجهة الحساب أمام "أوزيريس" والعبور إلى الأبدية بسلام، لأنّه إذا أخفق سيُلقي به في "الملتهمة".

ورغم كلّ هذه المعالم الدينية، يبدو أنّ المصري القديم كان «يميل إلى معرفة الطرق والأساليب التي يمكن بواسطتها السيطرة على الآلهة، ويستخدم

قوّتها لمصلحته الخاصة أو لمصلحة الجماعة. ولم يكن يميل أبدا إلى البحث في المشاكل الخاصة بأصل الآلهة أو حقيقة طبيعتها، ولهذا السبب لم يستطع أبدا أن يصل إلى نظام لاهوتي متماسك، بل إنّ الأساطير المصريّة في مجموعها أساطير غير منطقيّة ومتناقضة. ويبدو أنّ المصريين يفضّلون عدّة أساطير تشرح جميعها ظاهرةً واحدةً أكثر من أسطورة واحدة محدّدة» (لنتون رالف، 1990، ج3، 6– 48).

ب- حضارات الشرق الأقصى:

1- الـــــــهند:

أ- التسمية والتاريخ:

كلمة "هند" مشتقّة من نهر "الأندوس" (السند)، التي تعني الأرض الواقعة وراء "الأندوس"، والتي يسكنها الهنود أو الهندوس، ويرى "غوستاف لوبون" أنّها مشتقّة من الإله "آندرا" (أحمد شلبي، 1997، 3).

تتميّز الهند بتنوّع تضاريسها من سواحل بحرية (المحيط الهندي) ونهرية (نهر السند وأنهار البنجاب) إلى جبال ضاربة في السماء (قمم الهمالايا)، وصحارى جافّة لا تضاهيها إلاّ الصحراء الكبرى، وهي مفتوحة على طريقين فقط الشرقي والغربي وماعدا ذلك فبحار عميقة أو جبال وعرة. فهي من الناحية الجغرافية تُحدّ بسور جبلي ضخم شمالاً، وهضاب مثلثة قديمة التكوين جنوباً، وسهول رسوبية شكّلتها أحواضها النهريّة وسطاً (أهمّها: الغانج، السند، البراهمابوترا)، أمّا مناخها فهو مداريّ متفاوت الرطوبة، مع رياح موسمية. كما تتميز أيضاً بتنوّع أجناسها، فهي «بلاد الأسرار والأساطير، مجتمع شعوب وطبقات، بل مجتمع مجتمعات، تكثر فيه الأديان وتتعدّد اللغات والألوان» (أحمد شلبي، 1997، 3). ولعلّ من أهمّ الموجات البشرية التي عرفتها عبر تاريخها هي: الآرية، والفارسية، واليونانية، والعربية، والمنغولية.. فالشعب الهندي خليط صُهر داخل طابع خاص.

يجب الفصل بين مرحلتين من تاريخ الهند: المرحلة السابقة للغزو" الآري" والمرحلة الآرية.

1- مرحلة ما قبل الحضارة الآرية: أقدم الحضارات في الهند تعود إلى السكان الأصليين (الدرافيديون) قبل القرن 29 ق.م، ثمّ التورانيون (الشعوب الصفراء) وزنوج الهند، والآثار الدالة على تطوّر هذه الحضارة قليلة لم تُكشف إلا حديثا.

2- المرحلة الآرية: وهي تنقسم إلى:

أ- مرحلة الحضارة الآرية: التي ارتبط اسمها بتقدّم الحضارة الهندية، مع الغزو الآري عبر ممرات "خيبر" و"بولان"، ويعتقد الغربيون أنّ الآريين قدموا من أوروبا (الجنس الأبيض) نحو الشرق، واستقر عدد منهم في الهند، لكن الأرجح أنّ الآريين جنس آسيوي الأصل، قدم من وسط آسيا وباكستان (نهر جيحون) بأعداد كبيرة نتيجة أزمة أصابت المنطقة – غير معروفة بدقة- نحو إيران والهند ونحو أوروبا أيضاً، وكان ذلك حوالي القرن الخامس عشر قبل الميلاد (15ق.م)، ولم يتزاوجوا مع الهنود، لأنّهم كانوا يعتبرونهم عبيداً، وما ساعد على استقرارهم قدومهم مهاجرين بصحبة نسائهم وأطفالهم، فلم يأتوا محاربين (رجالا فقط) بقدر ما جاؤوا لاجئين، وهو ما حافظ على نسلهم وعدم الاختلاط بغيرهم، ما أدّى إلى كثرة الألوان الجنسية في هذه المنطقة. ورغم ذلك فقد تمّ تمازج الأجناس الأخرى بالتورانيين بصعوبة كبيرة، وعبر قرون طويلة، فولّد تمايزاً شديداً للطبقات الاجتماعية (أحمد شلبي، 1997، ج4، 6- 28). وقد أدخل الآريون معهم الحصان وتصنيع الحديد واللغة "السنسكريتية" (الهندو- أروبية).

ب- مرحلة الإصلاح: بقيت الهند ممالك متنازعة إلى أن تمّ الإصلاح على يد "البوذية" و"الجانية".

ج- **الغزو الفارسي واليوناني**: تعرّضت في القرن السادس قبل الميلاد للغزو الفارسي على يد "داريوس" (دارا)، ثمّ الغزو اليوناني على يد الإسكندر. ثمّ قام "تشاندراجوتيا" بتأسيس مملكة وطنية امتدت إلى أفغانستان، أهمّ ملوكها "أشوكا" (273- 232 ق.م) وبلغت مستوى كبيراً من التطوّر، ثمّ تعرّضت للغزو وأصبحت مجموعة من الممالك والإمارات.

د- **الغزو العربي**: تمّ على يد محمّد بن قاسم، وتزايدت الفتوحات الإسلامية بخاصة مع محمّد الغزنوي (997- 1030م) ومحمّد الغولري (1173- 1206م) الأفغاني، وقطب الدين أيبك الذي أسّس سلطنة "دلهي".

ه- **الغزو المغولي**: في القرن السادس عشر (16م) احتل "باتر" سليل "تيمورلنك" سلطنة "دلهي" (1526)، ووحّد البلاد.

و- **الاستعمار الإنجليزي**: بدأ من خلال التجارة في القرن السادس عشر (16م) وظهر بشكل علني قبل عام 1947 تاريخ استقلال الهند والباكستان، وقد شهدت المرحلة انتفاضات متعدّدة أهمّها انتفاضة "المهاتما غاندي" (لبيب عبد الساتر، 1974، 304- 306).

ب- الخصائص الحضارية:

أهمّ الخصائص التي تميّز الحضارة الهندية:

1- النظام الاجتماعي:

التمايز الطبقي جدّ قويّ في الهند نظراً لتعدّد أعراقها، خاصة بعد الوجود الآري، فقد تشكّلت من الآريّين طبقة البراهمة (**Brahaman**) والمحاربين (**Kastria**)، ومن التورانيّين طبقة التجّار والصنّاع (**Vaisya**)، ومن الهنود الذين اختلطوا بالآريين طبقة الخدم والعبيد (**Suda**)، أمّا الهنود الذين آثروا العزلة في الجبال فتكوّنت منهم طبقة المنبوذين.

اكتسب الآريون الكثيرَ من العادات الجديدة بعد استقرارهم في الهند،

منها الامتناع عن ذبح الحيوانات وأكل اللحوم إلاّ ما كان للقرابين، وفُقدان المرأة لمكانتها وحريّتها، وتعدّد الآلهة، وتوسّع الحياة الروحية، وكثرة اللهجات واللغات حتّى إنّها وصلت 240 لغة و300 لهجة أو أكثر (أحمد شلبي، 1997، ج4، 6– 28، 9– 31)، فالهند أكثر بلاد العالم تمازجاً في الأجناس، وهي ميدان خصب «لدراسة الطرق الفعّالة في التطوّر الإنساني لو عرف المرء بالضبط العناصر الجنسية التي شاركت في تكوين السكان الحاليين... فعادة حرق جثث الموتى عادة قديمة بكلّ تأكيد في معظم أنحاء الهند، بالرغم من أنّ لها مميّزات ذوقية وصحية إلاّ أنّها لا تساعد على الإطلاق أيّ مشتغل بدراسة الأنثروبولوجية وتاريخ الأجناس في أيّ منطقة هناك» (لنتون رالف، 1990، ج 3، 69).

2- المعتقدات الدينية:

ما يُعطي الخصوصيةَ للحضارة الهندية طابعها الديني، فلا نكاد نجد هندوسياً إلاّ ويملك مجموعةً من الآلهة يعبدها، حتّى إنّه قد يعبد النمر الذي يفترس غنمه، أو الخطّ الحديدي الذي صنعه الأوروبي. وعُرف قدامى الهنود بعبادة الحيوانات (بخاصة البقر) وقوى الطبيعة، وعبادة بعض أعضاء الإنسان كعضو التلقيح معتقدين أنّه سبب الخلق وسمّوه إله "Linga"، ولعلّ ذلك ناشئ من العهد الطوطمي الأوّل أو عقيدة حلول الإله في بعض الأحياء، وتعتبر البقرة عندهم أكثر المعبودات قدماً وثباتاً وتبجيلاً إلى يومنا هذا، معتقدين أنّها "أمّ الإنسانّ، وخير دليل على رباط الأخوة بين الإنسان والحيوان. وأهمّ آلهة الهند أيضا: وارونا إله السماء، أندرا إله الرعد، أعن إله النار، وايو أو واتو إله الرياح، وللشمس الإله عدّة مسمّيات منها: مترا ووشتوا....

«إن هذه الديانة توزّع الآلهة حسب المناطق وحسب الأعمال التي تُناط بهذه الآلهة، فلكلّ منطقة إله ولكلّ عمل أو ظاهرة إله» (أحمد شلبي، 1997، ج 4، 3– 37)، لكنّ أقدم الديانات في الهند الهندوسية (البرهمية)، التي لم تهتم كثيرا

بقضية الألوهية، سواء كانت أحادية أو متعدّدة أو منعدمة، إنّما ما كان يهمّها الاعتقاد في قانون "الكارما" (لأفعال وتصرّفات الفرد تبعات أخلاقية تُحدّد حياته المستقبلية بعد الموت)، ومبدأ تناسخ الأرواح وتكرار المولد من فرد إلى آخر، ولكنّ الاختلاف بين الطوائف الهندوسية ناتج عن كيفية تحقيق هذا الانعتاق. وتقوم المعتقدات الهندوسية على ستّة مفاهيم هي:

«1- سمسارا، الدورة السببية الكبرى والعالم الذي تتناسخ فيه أرواح الكائنات الحية وأرواح الآلهة

2- كارما، الفعل وتبعاته الأخلاقية

3- دهارما، السنة الكونية

4- موكشا، الانعتاق من الدورة السببية

5- براهمن، اللامتغير الأبدي والقاع الكلي للوجود

6- أتمان، النفس المتجزئة، والنفس الكلية أيضا» (فراس السواح، 1998، 54؛ أحمد شلبي، 1997، ج 4، 99).

لكنّ المذاهب الدينية قسمان:

- **الأستيكة**: تؤمن بالدين عامة، وأنّ الفيدات الأربع كتاب مقدّس هبط به الوحي، وتعترف بسلطة البراهمة، ولها ست مذاهب: نيايا، فايشيشيكا، سانيخا، اليوغا، بيرقاميمانسا، الأفيدانتا.

- **الناستيكة**: إلحادية لا تؤمن بالله ولا باليوم الآخر، حلّت محلّ الفيدية، آخرها: البوذية والجانية (لبيب عبد الساتر، 1974، 308).

كما مرّت الحياة الدينية للهند بعدّة مراحل هي:

1- العصر الويدي الأوّل: ويشتمل على ثلاث مراحل هي:

أ - مرحلة انتشار الأفكار البدائية (القرن 15 ق.م - القرن 08 ق.م): وتضمّ الآلهة التي جلبها الآريون معهم وبعض الآلهة الهندية البيئية، فعبدوا عناصر

الطبيعة من سماء وشمس وأرض ونار وريح... وغيرها، ثمّ شخّصوها فالسماء هي الأب، والأرض هي الأمّ...

ب – **مرحلة البراهمانات** (البرهمية) " القوة العظيمة السحرية الكامنة ": تبدأ بكتابة "الويدا" أو "الفيدا" (كلمة سنسكريتيّة تعني الحكمة والمعرفة)، من قبل الريشيين أو الحكماء والعرفاء في حوالي القرن 08 ق.م، ثمّ ظهور جماعة مختصّة من أهل النظر مهمّتها معالجة الشؤون الدينية، لكنّها انحرفت وغيّرت تعاليم "الويدا" لتساير مصالحها المقدّسة، وتحافظ على قدسيّتها وعدم امتزاجها بالسكان الأصليين، فاستحدثت بذلك نظام طبقات قائم على أساس ديني. وبداية من هذه المرحلة ظهرت " الهندوسية " أو الديانة الرسمية للهند (التي ما تزال مستمرة إلى اليوم).

ج – **مرحلة تلخيص الويدا** (حوالي القرن 06 ق . م): تمّ فيها تلخيص "الويدا" في أسفار مقدّسة تُسمّى " الأوبانيشادات "، وامتدت هذه المرحلة إلى ما بعد الميلاد بعدّة قرون.

2- **عصر الإلحاد** (حسب تصوّر أتباع الويدا): وهو العصر الذي انحرفت فيه الأفكار السائدة عن أصول "الويدا"، فظهرت الفلسفة المادية التي زعزعت البراهمنة، ثمّ "الجينية" و"البوذية". وضعفت الويدية بداية من نهاية القرن 06ق.م.

3– **العصر الويدي الثاني**: عادت "للويدا" مكانتها الدينية، وتوسّعت شروحاتها وتفسيراتها، وركّزت على الخصائص الدينية والاجتماعية، بخاصة شروحات "منو" وقوانينها التي وضعت المعالم الواضحة للهندوسية الحديثة واستقرارها (أحمد شلبي، 1997، ج 4، ص 39 – 40)

بالإضافة إلى الهندوسية فأهمّ الديانات التي كانت سائدة في الهند:

أ- **الجاينية**: ظهرت في حوالي القرن السادس قبل الميلاد (06 ق.م) نتيجة طغيان البراهمة وتعسّفهم على الطبقات الشعبية الأخرى، بخاصة طبقات

الكشتيريا (أغلبهم من الحكّام والمحاربين). وكان ذلك على يد 24 قدّيسا آخرهم مهاويرا (بمعنى البطل العظيم، ويُسمّى أيضاً جينا أي المتغلّب والقاهر، واسمه الحقيقي "وردهاماتا" أي الزيادة). وتعني كلمة "الجينية" قهر الشهوات والتغلّب على الرغبات المادية، فهي تقوم على الزهد في الملذات والتقشّف فيها، والتبتّل والتضرّع عن طريق رياضات شاقّة قصد الوصول إلى أعلى الدرجات الروحية، وتَعتبر نفسها ديانة مسالمة، لا تؤمن بوجود الإله، إنّما ترى أنّ كلّ روح مستقلّة بذاتها يحكمها التناسخ، ولكن مهاويرا وأتباعه الـــ 24 تَحَوّلوا – بعد انحرافها– إلى آلهة. وتقسّم الجينية العلم إلى خمس درجات:

1- الإدراك عن طريق الحواس أو الذهن.

2 – العلم عن طريق الوثائق المقدّسة .

3- العلم بالوجدان المحدود.

4 – العلم بالوجدان المحيط .

5- العلم بمخبآت الضمائر والتصورات في السرائر (أحمد شلبي، 1997، ج 4، 11 – 133).

«وتقوم تعاليم الجاينية على الإيمان المطلق بالإنسان كسيد وحيد لنفسه، وبقدرته على تحقيق الخلاص والانعتاق دون معونة من أية جهة علوية أو تحتية كانت [...] وفي هذا يقول المهاويرا:"أيها الإنسان أنت صديق نفسك. فلماذا تبحث عن صديق خارج ذاتك ؟"». (فراس السواح، 1998، 80)، وتعتقد أيضا بأنّ الأرواح تحتفظ بهويّتها بعد تناسخها، تصل مرحلة النيرفانا (الخلاص من الجسد والمادة) بعد تسع تقمّصات، والكون أزلي قائم على المادة.

ب- البوذية: نشأت عند النيبال، في نفس الفترة التي ظهرت فيها الجينية وللأسباب نفسها. زعيمها "ساكياموني" أو "سذهاتا"، الذي كان يعيش حياة القصور والبذخ (تزوّج وأنجب طفلاً قبل ذلك)، لكنّه قرّر فجأة في 29 من عمره الخروج للبحث عن سرّ الحياة وبؤس الإنسان ونبذ الحياة، لهذا سُمّي في

البداية "غوتاما" (الراهب أو أسير الفلسفة الهندوسية، وسُمّي أيضاً "مرني" أي المتبتّل المنعزل)، والتجأ إلى حياة العزلة والتقشّف وعرّض جسمه لألوان شتّى من التعذيب، دون جدوى، فهجر هذا المنهج، وعزم على العودة إلى المدينة، لكن في طريقه حدث له "الانجلاء" (رسالة التنوير الكبرى) فجأة حين كان مستلقيا للراحة تحت إحدى الأشجار والتي سمّيت "الشجرة المقدّسة". هكذا اكتشف معنى الحياة، فسُمّي "بوذا" أي العارف أو الـــمتنّور، وسُمّيت دعوته "النظام" وهي تدعو إلى السماحة، وإزالة الطبقات، ونبذ التعصب الديني، وعدم قتل الحيوانات، واحترام الطبيعة، ومن خلال التخلّي عن الأنانية الضيّقة، والابتعاد عن الملذّات والأموال، يصل الإنسان إلى كشف "النرفانا "(الصفاء الروحي) (أحمد شلبي، 1997، ج4، ص 141 – 190)، التي تقوم على أربع حقائق:

1- الحقيقة الأولى: الحياة شقاء.

2- الحقيقة الثانية: سبب الشقاء والألم هو الرغبة.

3- الحقيقة الثالثة: القضاء على الشقاء ممكن بالقضاء على الرغبة والابتعاد عن ملذات الحياة، وهذه بداية الطريق إلى النرفانا.

4- الحقيقة الرابعة: طريق النرفانا ذو مراحل ثمانية: الرؤية السليمة، الذوق الفكري السليم، الخطاب السليم، السلوك السليم، سبل العيش السليمة، السعي السليم، اليقظة السليمة، التأمل السليم (فراس السواح، 1998، 88).

وقد صاغ ديانته في عبارات سهلة:1- لا تقتل كائنا حيًّا. 2- لا تأخذ ممّا ليس لك. 3- لا تكذب. 4- لا تشرب المسكرات. 5- لا تقم على دنس. موصيًّا أتباعه بالتغلب على الغضب بالشفقة، وعلى الشرّ بالخير، وعلى الكراهية بالحب، معتمداً على الحوار والمثل والمناقشات المفتوحة (لبيب عبد الساتر، 1974، 311).

تتفادى البوذية الحديثَ في موضوع الإله لأنّه مثار الجدل، لكن -وكغيره من الشخصيات الدينية- رفع أصحاب هذه الديانة زعيمهم "بوذا" بعد وفاته إلى درجة الإله، رغم أنّ بوذا ذاته لا يؤمن بالألوهية، وفكره قائم على مبدأ "لا عقائد بل عمل". ويرى البعض نتيجة ذلك أنّ البوذية أقرب إلى الفلسفة منها إلى الدين. وما زاد في انتشارها اعتناق "أشوكا" الإمبراطور لها، وقد التحمت البوذية بالهندوسية لتُعطي مذهبا جديدا هو مذهب "جنانا يوجاه"، ولم تعد البوذية بمفهومها القديم إلاّ في تايلاندا وبورما وسيلان (كتبها المقدّسة مكتوبة باللغة البالية)، أمّا البوذية الجديدة فقد اختلطت بالآراء والنظريات الفلسفية وأخذت بتقاليد شعوبها، فسُمّيت "المذهب الشمالي"، وهي منتشرة في الصين واليابان والتبت والنبال واندونيسيا، وأقيمت لها معابد ضخمة في كلّ هذه الأماكن (أحمد شلبي، 1997، ج4، ص 141 – 190).

3- الحياة العلمية:

أهمّ ما يمكن تسجيله عن الحياة العلمية والثقافية:

– **الأدب**: كان شفوياً قائماً على اللغة السنسكريتية (لها قواعد دقيقة)، وأقدم أشكاله "الملحمة"، فهم أوّل من أبدعها في التاريخ، منها: ملحمة "الماهايهاراتا" (تحت إشراف الآلهة)، وملحمة "رامايانا" (الأهوال والحبيب الوفي)، كما أبدعوا في فنّ المسرح كمسرحية "ساكونتالا" أقدم المسرحيات (ق 4)، وكان الأدب ممزوجا بالخرافة.

– **العلوم**: اهتموا بالفلك ففسروا الكسوف والخسوف، وقالوا بكروية الأرض ودورانها، وقسّموا السنة إلى 12 شهرا، والشهر إلى 30 يوما، واليوم إلى 30 ساعة، وحدّدوا موقع القطبين وأهمّ مدارات الكواكب، وأنشؤوا نظاماً حسابياً متفوّقاً، واستخدموا النظام العشري، ووضعوا قواعد للجبر، أمّا في العلوم الطبيبة والكيميائية فقد صنعوا الصابون، والزجاج، والإسمنت... واستعملوا التقطير، والتبخير، واللحام، والتصفية، والتشريح للعمليات

الجراحية، والعلاج بالنبات...

– **العمارة**: لم تتطوّر كثيراً، إنّما كانت تتميّز بالكروية والقرمودية، وقد تأثّرت بها مختلف الحضارات المتعاقبة عليها، كالفارسية والمغولية، والإسلامية، والأوروبية... (لبيب عبد الساتر، 1974، 308)

2- الــصين:

أ- التسمية والتاريخ:

يشكّل هذا "العملاق النائم" أكبر بلد في العالم سكّاناً، ما يجعل من تاريخه قوّة ذات وزن معتبر في المسيرة البشرية، والخاصية الأساسية المميّزة للحضارة الصينية القديمة (وإلى اليوم) المحافظةُ على الحياة الإنسانية "العظيمة"، لذلك ارتبطت بالأخلاق. فلم يكن الهدف من إقامة الفلسفات والمعابد فهم العالم فحسب إنّما جعل الإنسان يبدو فيه "عظيما"، وهذا هو القاسم المشترك بين الأفكار التي مرّت على الصين عبر مختلف أطوارها، وإن اختلف مفهوم العظمة من مذهب إلى آخر. فالتاوية (الطاوية) ترى أنّ "العظمة" في التوحّد مع النهج الداخلي للكون، أمّا الكونفوشيوسية فتتصوّرها في النزوع الإنساني نحو القلب والفضائل الاجتماعية، في حين تجمع الكونفوشيوسية الجديدة (التحام الكونفوشيوسية والبوذية) بين العنصرين الداخلي والخارجي، رغم أنّ التأكيد في كلّ الحالات كان ينصبّ على الحياة الروحية على حساب الجسم (كولر جون، 1995، 17)

جغرافيا تقع الصين بين بطاح سيبريا وصحاري آسيا الوسطى وجبال همالايا، تتخلّلها أحواض نهرية سهّلت من عملية الاستقرار منها: حوض "الهونغ هو"، "اليانغ – تسي – كيانغ". شعبها من الجنس الأصفر يغلب عليه الطابع المغولي، قدم في موجات متعاقبة، ميزته الصبر واللباقة.

يقسّم البعض تاريخ الصين حسب الأسر الحاكمة (الملكية)، إلى ثلاث

مراحل كبرى هي: المرحلة نصف الروحية، وكان الحكم فيها صينيا، والمرحلة المغولية خلال التوسع الصيني، والمرحلة الماندشوية (**Mandchoue**). أمّا تاريخها السياسي فينقسم إلى الفترات التالية:

1- المرحلة الصينية: بدأت تجمّعات الصينيين كمزارعين بسطاء في حوض "الهونغ هو"، ثمّ تزايدت ثروتهم فطمع فيهم البرابرة، ومرّت بالحقب التالية:

أ- المرحلة الإقطاعية: لمواجهة الأخطار اتّحد الفلاحون في مجموعات على رأسهم أسرة معينة تسيّرها، فتولدت مراكز للقوّة وانقسمت البلاد إلى ولايات إقطاعية منذ القرن 8 ق.م، ثمّ تناقصت بين القرن 5 و3 ق.م التجمعات باندماجها لصالح العائلات الكبرى، وتنافست العائلات لضمّ أكبر مساحة ممكنة، فسيطرت عائلة "تسين **Shang**" في الشمال الغربي، و"تشيو **Zhou**" في الجنوب ضمن مملكتين كبيرتين.

ب- بداية الامبراطورية: أخضع زعيم عائلة "تسين" كامل البلاد لملكه وأعلن نفسه أوّل إمبراطور على الصين (221 ق م)، وخوفا من الغزو المغولي أمر بتشييد سور "الصين العظيم"، فأسّس أوّل دولة مركزية قسّمها إلى 36 ولاية، وشق الطرق، ووحّد الكتابة وفرض الضرائب، وقضى على الإقطاع ومَلَّـــك الأراضي للفلاحين.

ج- مرحلة التوسّع: بعد توسع الإمبراطورية تعرضت لقلاقل عدّة وانقسمت إلى ممالك متنافسة، ثمّ أعاد "جو- تسي" توحيدها لصالح أسرة "هان" التي حكمت أربعة قرون (206 ق.م- 220 م)، ووصلت حدودها إلى كوريا ومنشوريا والهند الصينية وتركستان في حكم "وو- يِ"، وحققت أوّل تجربة اشتراكية (المواد الطبيعية والنقل وتبادل ملكية الأمّة)، وألغى "وانج –مانج" الرق. لكنّها أصيبت بالضعف في النهاية فغزاها التتار من الشمال وقسمتها الحروب في الجنوب. تمازج الشعب الصيني والمغولي فوحّدوا البلاد مرّة أخرى

تحت حكم أسرة "تانغ" (618- 959م)، وتوسّعت دولتهم إلى التبت وسيطروا على طريق الحرير، ما سهّل انتشار الديانة البوذية والتعاليم الزرادشتية، مع بقاء الوفاء للكونفوشيوسية.

2- **الغزو المغولي**: استشرى الضعف في الإمبراطورية بداية القرن العاشر، وانقسمت إلى خمس ممالك متصارعة، ما دفع "تاي- دزو" لفرض نفسه بالقوّة على البلاد تحت أسرة "سونج" (960- 1280م)، وسرعان ما أغار "جنكيزخان" على الشمال وخرّبه ثمّ أعاد الكرة مرّة أخرى حفيده لتسقط أسرة "سونج" وتخلفها الأسرة المغولية "يوان" (1280- 1368م)، لكن نظرا للضعف الإداري للمغول (رغم قوّتهم العسكرية) فقد استعانوا بالصينيين، وبمرور الزمن ذاب المغول في الصين. ثار الصينيون سنة 1368 على المغول وأسّسوا أسرة وطنية مستقلة "أسرة مينج"، احتكرت فيما بعد القيادة الإدارية وأسندها لرجال الثروة والنفوذ.

3- **الحكم المنشوري**: تعرّضت الصين لغزو منشوريا سنة 1659م، فاستولت الأسرة المنشورية "تسنج" على السلطة، وبلغت البلاد أوجّ تطوّرها خلال هذه الفترة، نتيجة تفتحها على الغرب. لكن المدّ الاستعماري امتدّ إليها عبر عدّة حروب خاصة حرب الأفيون (1839- 1842م)، كما تعرّضت لحرب اليابان وتقسيم الصين (1894 - 1895).

4- **الصين الشعبية**: تحوّلت الصين بفضل مثقفيها تحت قيادة زعيمها "صان يات صن" إلى جمهورية سنة 1911، وقامت بمحاربة الاستعمار الياباني وتأسيس جمهورية الصين الشعبية سنة 1949 بزعامة "ماو- تسي تونغ" هكذا انتهت فترة الحكم الملكي، لتدخل الصين مرحلة الجمهورية عبر تاريخها الحديث (لبيب عبد الساتر، 1974، 314- 316).

جدول يمثل الإمبراطوريات الصينية **Dynasties chinoises**

(Microsoft ® Encarta ® 2007. © 1993- 2006 Microsoft Corporation)

اسم الأسرة	التاريخ
Dynastie Xia1	**2205- 1766 av. J.- C.**
Dynastie Shang	**v. 1750- v. 1027 av. J.- C.**
Dynastie Zhou	**1027- 221 av. J.- C.**
Zhou orientaux	**1027- 771 av. J.- C.**
Zhou occidentaux	**770- 221 av. J.- C.**
Dynastie Qin	**221- 206 av. J.- C.**
Dynastie Han	**206 av. J.- C.- 220 apr. J.- C.**
Han antérieurs	**206 av. J.- C.- 9 apr. J.- C.**
Xin	**9- 23 apr. J.- C.**
Han postérieurs	**23- 220**
Période des Trois Royaumes	**220- 265**
Wei	**220- 265**
Shu- Han	**221- 263**
Wu	**222- 280**
Dynastie des Jin occidentaux	**265- 316**
Dynasties du Nord et du Sud	**316- 581**
Jin orientaux	**316- 420**
Wei du Nord	**386- 534**
Qi du Nord	**550- 576**
Zhou du Nord	**556- 582**
Liu- Song du Sud	**420- 479**
Qi du Sud	**479- 502**
Liang du Sud	**502- 557**
Chen du Sud	**557- 589**

Dynastie Sui	581- 618
Dynastie Tang	618- 907
Période des Cinq Dynasties	907- 960
Liang postérieurs	907- 922
Tang postérieurs	923- 935
Jin postérieurs	936- 946
Han postérieurs	947- 950
Zhou postérieurs	951- 960
Dynastie Song	960- 1279
Song du Nord	960- 1127
Song du Sud	1127- 1279
Liao	904- 1227
Xia	1038- 1227
Jin	1115- 1234
Dynastie Yuan2	1279- 1368
Dynastie Ming	1368- 1644
Dynastie Qing3	1644- 1912

ب- الخصائص الحضارية:

أهمّ الخصوصيات التي تميّز الحضارة الصينية:

1- تاريخ التعدّد الديني:

قسّم المؤرخون التاريخ الصيني وفقاً لعدّة معطيات، ولعلّ أقربها للجانب السوسيولوجي التقسيمُ الثقافي القائم على مُعطى التطوّر الديني، والذي يرى أنّ البلاد مرّت بالمراحل التالية:

1- مرحلة ما قبل الكونفوشيوس: وتنقسم إلى قسمين:

أ- فترة الأمن والسلام: وتضمّ أسرة "شانج SHANG" (حوالي القرن 14ق.م)، ثمّ أسرة شعب الـ "زوو ZHAU" (حولي سنة 1122ق.م)، والتي توسّع ملكها إلى أبعد الحدود، ففوضت ولاةً على الأقاليم البعيدة من زعماء القبائل والنبلاء، وعرفت مدة طويلة حالة الأمن والاستقرار، وتميّزت الحياة الدينية بعبادة السماء والعظماء، وقد شُيّدت لهم هياكل وقُدّمت لهم قرابين دون الحديث عن قضايا الخلود، وكانت أقرب إلى الخرافة والخيال.

ب- فترة الدول المتحاربة: لم يدم الأمن في هذه المملكة الواسعة، بسبب الصراعات القائمة بين حكّام المناطق وتمرّد القن، وانقلاب الحكّام الإقطاعيين على بعضهم بعضاً. فعاشت الصين حالة اضطراب وقلاقل مستمرة، وبحلول سنة 770ق.م تحالف الحكام الإقطاعيون ضد السلطة وقتلوا الملك، وسيطروا على الحكم، وإن تركوا أسرة زوو ZHOU تحكم، لكن في إطارها الشكلي فقط، وانتقل الحكم الحقيقي لتحالف الإقطاعيين، وتزايدت المؤامرات وتغلب الخداع والمكر على الساحة السياسيّة، وانتشرت الحروب والفقر والمعاناة والموت، ما أفقد ثقة الشعب في الدين.

2- المرحلة الكونفوشيوسية:

ولد كونفوشيوس سنة 551 ق.م، وكان مصلحاً وداعياً إلى التغيير الاجتماعي، معتقداً أنّ المشكلة الحقيقية للشعب تكمن في السلطة الحاكمة، لذا على هذه الأخيرة أن تُدار لصالح الجماهير لا للصالح الخاص، ومن أجل الوصول إلى ذلك على الحكام التحلي باستقامة الشخصية وتفهّم احتياجات الشعب انطلاقاً من قاعدة: «أنجز للناس ما كنت حريًّا بإنجازه لنفسك» (كولر جون، 1995، 17- 319). وما ساهم في تطوّر الكونفوشيوسية دعمها من قبل السلطة الحاكمة، ما جعل منها الديانة الرسمية للأمة الصينية شعباً وسلطةً (ووين، 1996، 8- 36) وأهمّ الدعاة الذين عملوا على تطوير هذا الفكر وانتشاره المصلح منشيوس (371- 289ق.م).

3- مرحلة تعدّد الفلسفات:

رغم ما قدّمته الكونفوشيوسية للمجتمع الصيني من تغيّر للأوضاع، لكنّ حالة البؤس والفقر عادت لتسيطر على الواقع مرّة أخرى، ما فتح المجال واسعاً أمام فلسفات وديانات أخرى للظهور أهمّها (الطاوية) على يد المصلح "لاو-تسو **Lau Tzu**" في أواخر القرن السادس قبل الميلاد، والذي دعا إلى حياة البساطة والتقشّف والتخلّي عن دافع الربح، والتخلّص من الأنانية والرغبات، و«لا ينبغي القيام إلاّ بتلك الأفعال التي تتسق مع الطبيعة»، وهو أوّل من نادى بفكرة الخلود عند الصينيين، وقد جمعت تعاليمه في الكتاب المشهور بعنوان "رسالة في التاو وقوته **Tao Te Ching**". «وكلمة تاو تعني في الأصل الطريق، وقد استخدمت [...] مقترنة بالسماء، فقيل طريق السماء بمعنى الطريقة التي تفعل بها قوّة السماء» (فراس السواح، 1998، 44).

وقد عارض الطاوية مذهبٌ آخر هو "الموهية" التي ظهرت على يد "مو-تسو **MOTSO**" (468 -376 ق.م)، إذ دعا إلى إعطاء الإنسان رفاهية أكثر، واعتبر المنفعة المعيارَ الأساس للسعادة قائلا: "طوّروا الصالح العام وأزيلوا الشرّ"، ويرى أنّ الفائدة تقاس بما يستفيد منه الناس من ثروات أكثر. إضافة إلى هذين المذهبين الأساسين نشأت مدارس أخرى أقلّ أهمية منها مدرسة الأسماء (الاهتمام بالعلم) ومدرسة اليان يانج **YAN YANG** (أصل الكون) والمدرسة القانونية (سلطة الدولة واجبة لتحقيق رفاهية البشر) وغيرها.

4- مرحلة البوذية الصينية أو الكونفوشيسية الجديدة:

رغم الدخول القديم للبوذية إلى الصين، إلاّ أنّها بقيت معزولة لمدّة طويلة، ولم تعرف التقدّم إلاّ بعد التحامها بالكونفوشيوسية والطاوية، ما أعطى لها انتشاراً واسعاً، فتأسّس بذلك الفكر العام للصين على يد هذه البوذية الجديدة بداية من القرن 5 م، وهي تقوم على التأمّل الذي يتمّ الوصول من خلاله إلى الطبيعة الحقّة للأشياء، وقد تمّ رفض بعض عناصر البوذية القديمة بخاصة النزعة

الهروبية الأنانية ونبذ العائلة والمجتمع، فما "الكونفوشيوسية الجديدة" أو "البوذية الصينية" إلاّ تركيب لعناصر متفرّقة من الكونفوشيسية والطاوية وتأطيرهما في قالب بوذي قديم .

ملخص الفلسفة الصينية أنّ الكونفوشيوسية تمثل القطب الموجب منها (يانج **YANG**)، والطاوية القطبَ السالب (ين **Yan**)، وهما ضروريان لكلّ فلسفة، وبهما يتمّ الانسجام بين المبادئ (كولر جون، **1995**، **25– 331**). ورغم هذه الديانات بقي الصيني متمسّكا "بالدنيوية" لا يؤمن بالخلود، و لا يقتنع إلاّ بما هو آني، يشتم آلهته إذا لم يستجب لدعائه ويقذف بها في النهر، وعدم الإيمان بالخلود، والتمسك بالدنيا جعل انتشار الإسلام والمسيحية ثقيل في هذا البلد (لبيب عبد الساتر، **1974**، **324– 326**).

2– سيطرة الطابع الزراعي:

الزراعة إحدى أهمّ الركائز الأساسية في أسرتي "شانغ" و"تشو"، فإن شهدت أغلب الشعوب القديمة النظامَ الزراعي خلال بعض فترات حياتها، فإنّها كانت أطول في الحضارة الصينية، وبنسبة مُزارعين أعلى. وبقيّت الأرياف مركز الثقل في الاقتصاد، وظلّ المزارع متمسّكاً بأرضه قصد ضمان التموين الذاتي لأسرته متحمّلاً نتيجة ذلك ضرائب باهظة تفرضها عليه الدولة.

لا نجد عند الصينيين مدنا كبرى، فقد كانت مدنهم أقرب في شكلها إلى الريف لعدم قدرتها على الاكتفاء ذاتياً وارتباطها الشديد بالزراعة، حتّى غدت الثقافة الزراعية السمةَ المميّزة للصيني، إذ كانت البداية بالأسلوب الجماعي، ثمّ انتشار الملكية الفردية تدريجياً (الدول المحاربة) ليصبح الأسلوب فرديا، لكنّ الأسرة شكّلت دوما مجموعة إنتاجية قائمة بذاتها، من خلال عنايتها بالزراعة والصناعة اليدوية المترلية.

3- قداسة النظام الأسري:

الأسرة، بمفهومها الواسع من عشيرة وقبيلة، هي القاعدة الأساسية لحياة الصينيين، و"الجذر" الذي لا يزعزع بالنسبة للفرد، والأساس الذي لا مناص منه للتأييد أو الدعم المعنوي، فلا سعادة إلاّ بها، لأنّها تمثّل الشعور بالواجب المقدّس، ولا وجود للفرد إلاّ بها وليس العكس، وكلّ نجاح لا يتمّ إلاّ لها، ولا افتخار إلا بها، فجوهر الحياة كلّها "واجب الأسرة". وأهمّ ما يميز الأسرة الصينية:

«- نظام ربّ الأسرة.
- عبادة الأجداد والأسلاف.
- احترام الكبار وتبجيل العشيرة.
- النظام الأبوي.
- احترام الرجال واستصغار النساء.
- مفهوم الأسرة الكبيرة.
- تعدّد الأبناء.
- نظام المحظيات.
- وراثة الأبناء للآباء
- الشعور ببر الوالدين» (ووين، 1996، ، ج1، 02)

والخضوع لربّ الأسرة واجب يتمّ إلى أقصى درجاته، فلا حرية للفرد في ذلك، لأنّ الآباء هم الذين يقرّرون كلّ شيء لأبنائهم. وتنبني الطبقية على أساس الانتماء الأسري، منقسمةً إلى: طبقة الأسرة الحاكمة (توارث الحكم)، وطبقة النبلاء أو الإقطاعيون، وطبقة الفلاحين. والمكانة الاجتماعية متوارثة، والتمسك بها تعبير عن احترام مشاعر الأجداد. ويقوم النظام العشائري على:

- أنّ الأسرة أصل الدولة، وما هذه الأخيرة إلاّ إعادة بناء لها .
- تنظيم الدولة، والذي يرتكز على تبعية الفرد لترتيبه العشائري.

- أساس العشائر هو النظام الأخلاقي والتماسك والوحدة (ووين، 1996، ، ج1، 6 ، 109).

4- الطابع العلمي:

أهم ما يمكن تدوينه هنا هو:

1- الفلسفة: يَعتبر الصينيّون أفكارَهم بنات ذواهم لم يتأثّروا فيها كثيرا بغيرهم، وأنّ بلدهم أقدم بلد للفلسفة غير الدينية، وأهمّ مؤلفاهم وأعلامهم القديمة:

- كتاب " التغيّرات" الذي يرى أنّ الحقائق الكونية قائمة على مبدأ التعارض (ذكر- أنثى/اليانغ والين).

- كتاب "الطريقة والفضيلة": لـــ "لو- دزو" (المعلم القديم)، وهو يرى أنّ الإنسان خير بطبعه أفسدته المدينة لهذا عليه العودة للطبيعة.

- كتاب "كتب القانون الخمسة": لـــ "كونغ- فو- دزه" (الملقب كونفوشيوس)، وهو يعتمد السؤال في الطرح، ويقع في خمس مجلدات: الفيلسوف وآداب المجاملة، التعليق على كتاب التغيّرات، كنه الحياة والأخلاق الفاضلة، حوليّات الربيع والخريف (أحداث وطنه)، تاريخ الصين، كما جمعت آراء كونفوشيوس في "الأحاديث والمحاورات"

- كونفوشيوس وأتباعه ومعارضوه: شكّلت آراء هذا المفكّر محوراً لعدّة مناقشات، ومن أهمّ أتباعه (تلاميذه) "منشيس" الذي سادت آراؤه مدّة طويلة، إذ يرى أنّ الإنسان خيّر بطبعه، لكن فساد الحكم هو الذي يفسد المحكوم، لهذا فوظيفة الحاكم الأولى هي محاربة الفقر. أمّا أهمّ معارضيه فهو "يانغ جو" الذي يعتقد أنّ الحبّ الشامل هو الحلّ الأساس للمشكلة الاجتماعية، والأنانية مصدر كلّ شرّ، والحياة لذة فقط ولا وجود لله ولا البعث.

2- الأدب: تطوّر فنّ القصّة عندهم، لكنّ ميلهم كان أكثر للتاريخ، وأهمّ مؤلفات هذين الفنّين: قصّة "حكم العرفة الحمراء" (24 مجلد)، "الممالك

الثلاث"، "كتاب التاريخ" (هذبه كونفوسيوش)، "السجلّ التاريخي".

3- **العلوم**: وهبوا للعالم الطباعةَ، والورق، والحبر، والعملة الورقية، والبارود، والبوصلة، وآلة تسجيل الزلازل، واهتموا بالفلك، حيث قسّموا اليوم إلى 12 ساعةً، والسنة إلى 12 شهراً، وحدّدوا مواعيد الكسوف والخسوف. كما تقدّموا كثيرا في فنّ العلاج بالأعشاب والطب.

4- **الفنّ**: - لم يهتمّوا به في أوّل الأمر، ثمّ تزايد تدريجيا وانقسم إلى نوعين: الملتزم، والمتحرّر. وكان الجمال محصوراً في النبات والحيوان ثمّ انتقل إلى الإنسان متأخراً. وتطوّر فنّ الخزف بشكل مذهل فصُنعت منه أغلى التحف العالمية، حتّى غدت هدايا للملوك، وعرفوا أيضاً فنّ الموسيقى ووضعوا لها السلّم الموسيقى المعروف اليوم "دو- ري- مي- فا - سول- لا - سي"، وقسّموها إلى مستويات، واستخدموا عدّة آلات موسيقية: بوق، مزمار، صفّارة، كمان، دفّ، طبل، أجراس، صنوج (لبيب عبد الساتر، 1974، 318- 322).

المبحث الثاني:
الفكر الاجتماعي في الحضارات الغربية

تمهيد:

تاريخ الحضارات الغربية متقدّم مقارنةً بالحضارات الشرقيّة، وهو حصيلة إفرازات سابقة وتأثّر مباشر وغير مباشر بالحضارات السابقة في مناحي الحياة المختلفة، إلاّ أنّ ذلك لا يمنع من وجود خصوصيّات بارزة تميّزها عن غيرها. وتقبع في مقدّمة الحضارات الغربية كلّ من الحضارة الإغريقيّة والحضارة الرومانيّة، وما تحملانه من إرث ثقيل ما تزال بعض مظاهره باقية إلى اليوم في مجالات عدّة.

1- الحضارة الإغريقية GRECQUE:

أ- الموقع والجذور:

بلاد اليونان حاليّاً هو الجزء الجنوبي لشبه جزيرة البلقان، وقديماً يُضاف له شواطئ آسيا الصغرى وجزر إيجة، وقد توسّع إلى البحر الأسود ثمّ مستعمرات الشواطئ الشمالية من المتوسط حتّى إسبانيا. أمّا جغرافيّاً فهو ذا سهول قليلة، وبحار كثيرة، وجبال متعدّدة أهمّها: البارناس، وأوديو، ساعدت على استقلالية المدن، مع أشباه جزر متفرّقة وأرخبيلات.

تعود الأصول الأولى لليونان إلى:

1- الآخيّون: نزح لها في البداية الكريتيون خلال النصف الثاني من عام 2000 ق.م ونقلوا لها حضارهم، ثمّ تدفقت عليها في القرن 20 ق.م عناصر هندية أروبية (آريّون) هم "الآخيّون"، الذين قدموا من الشمال اليوناني (منطقة تيسالي THESSALIE)، وجلبوا معهم أسلحتهم (البرونز)، فاستطاعوا فرض لغتهم وعاداهم عليها، وسرعان ما انصهروا مع الكريتيين، وانقسموا بعد ذلك إلى عشائر ثمّ دويلات مختلفة نظرا للطبيعة الجبلية للبلاد، شهدت تطاحنات

بينها، وقد برز منها: "تيرنتا" و"ميسين" القريبتين من البحر، واللتان توحّدتا دفاعاً عن مصالحهما البحرية، وتصديتا لكلّ من يعارض هذه المصلحة بالأخص "كريت" و"طروادة" (بين بحر إيجة والبحر الأسود)، هكذا تحوّل الآخيون من بدو إلى مزارعين مع احتكاكهم بالكريتيين، وأخذوا عنهم أصول الزراعة خاصة الكرمة والزيتون ثمّ توسّع نشاطهم للتجارة.

2- **الدوريّون**: هند أوروبيّون (آريّون) أيضاً، شديدو القوّة هاجروا من نهر الدانوب (09 ق.م) (وفي روايات أخرى من المناطق الوسطى بجبال "الدوريد Doride" في القرن 13ق.م)، واستعبدوا الآخيّين، نتيجة تمكّنهم من صناعة السلاح بالحديد، وقد امتزج العرقان فكوّنوا بذلك أصل الشعب الإغريقي، إنّما هاجر عدد معتبر من الآخيين إلى آسيا الصغرى نظرا لإساءة الدوريين لهم. وتشكّلت بعد ذلك مدن صغيرة متنافسة فيما بينها، برزت معها المعالم الأولى للحضارة الإغريقية، وسمّيت هذه المدن بالمدن الأيونية (لبيب عبد الساتر، 1974، 128- 132).

3- **المدن اليونانية**: وهي المدن التي تشكّلت بعد توسّع الحضارة اليونانية وهي تتكون من شعوب مختلفة الانتماءات، وهنا نشير إلى أنّ المدينة (Polis) عند اليونان تعني الدويلة، وهي تضمّ إضافة إلى القرية الأساسية قرى مجاورة لها مع وجود نظام مشترك بين كلّ الإغريق يحكمها، بدأت في شبه الجزيرة اليونانية ثمّ توسّعت مع المستعمرات اليونانية وأخذت نفس النمط في تكوينها، وما شجع على هذا الاستعمار: استعباد الدوريين للآخيّين، الصراعات القبلية والأسرية، تشجيع الغالبين للمغلوبين على الهجرة، وعزوف الذين شاركوا في حرب طروادة عن العودة، والبحث عن أراض زراعية جديدة، وتطوّر التجارة والبحث عن أسواق جديدة. وأهمّ المدن اليونانية:

أ- **إسبارطا SPARTA**: كانت "آخية" ثمّ احتلها الدوريّون، وما يطبع هذه المدينة:

1- **الإصلاحات**: خضوعها لإصلاحات مهمّة تُسمّى بـ "إصلاحات ليسورغ"، وهي تقوم على:

- العزلة الاقتصادية وتعزيز الزراعة وتضييق التجارة مع الخارج.
- الاختصار على الضروري من الحرف.
- العزوف عن الملاحة.
- تقسيم المجتمع إلى ثلاث طبقات: المواطنون (عددهم قليل 40 ألف) لهم كامل النفوذ ويخضعون لتربية عسكرية شديدة، العامة وهم صغار الملاك ويدفعون الضرائب، العبيد وهم الأغلبية دورهم خدمة المواطنين والعامة كما يمكن بيعهم أو قتلهم (لبيب عبد الساتر، 1974، 136).

2- **التربية العسكرية**: وهي خاصية أساسية تميّز طبقة المواطنين في أسبارطا، يتم إعداد المواطن في الثكنة على الخشونة واحتقار الكبار والعبيد وطاعة القوانين (المعاقون يرمى بهم من الجبل)، ثمّ عليه اختطاف عروسه حين يبلغ الثلاثين سنة من عمره، وبناء بيته مع تبعية جزئية للجندية التي لا يتحرّر منها إلاّ في الستين ليتفرغ للحياة السياسية.

3- **نظام الحكم**: يجمع بين الملكية والأرستقراطية والديمقراطية (دستور ليسورغ)، إذ يحكم البلاد ملكان من الدوريين (تزيد سلطتهما خاصة في الحرب)، مع مجلس للقضاة (الأفوريون) يتكوّن من 15 عضوا منتخبين لمدة سنة (من العائلات العريقة)، ومجلس للشيوخ (جيروزيا) يتكون من 28 عضوا منتخبين تفوق أعمارهم الستين (الانتخاب بالتصفيق) ووظيفتهم مراقبة القضاة الخمسة، ومجلس للشعب (أبيلا) يتألّف من سبعة آلاف من الذكور يفوق سنهم الثلاثين دورهم المصادقة على القوانين (يجتمع حين يكتمل البدر) وهو مجلس ضعيف السلطة (لبيب عبد الساتر، 1974، 134- 138)

ب- **أثينا**: كانت قرية صغيرة ثمّ توسعت وضمّت شبه جزيرة "أتيكا"، أصل سكّانها آخيون قاوموا الدوريين ثمّ انصهروا فيما بينهم ليشكّلوا نواة

المدينة، وكان لأثينا دور كبير في مقاومة الغزو الفارسي، ما جعل المدن اليونانية الأخرى تدين لها بالفضل وتدفع لها نفقات سنوية، بذلك تسلّطت على القرى الأخرى واستطاع حاكمها "بيريكليس" الرفع من مكانتها الفكرية وحماية الديمقراطية بها، لكنّ الأشراف سيطروا على الحكم واستبدوا، فنادى الفلاحون إلى الثورة، وطُلِبَ من "داركون" تحويل القوانين من الصبغة الشفوية القابلة للتأويل إلى الصيغة الكتابية لكنّها كانت في غاية الشدةّ ولصالح الأشراف.

ومع تزايد الغضب الشعبي اُستعين بـــ "صولون" (أحد الحكماء)، فسنّ تشريعات جمعت بين العامة والأشراف، وحالت دون وقوع الثورة، سُمّيت بقوانين "رفع الأعباء" معدّلا بها الكثير من شرائع "دراكون" فأرضى بذلك الجميع، كما ألغى الديون وصكّ النقود (الدراخم) وشجّع التجارة وطالب بتحرير المستعبدين، وإزالة الملكيات الكبرى وتوزيعها بالتساوي، لكن باعتزال "صولون" عاد الخلاف بين الأشراف الإقطاعيين، وكبار التجّار، والفلاحين. استولى "بيستراتس" على الحكم لصالح الفقراء (الفئات الشعبية)، ووزّع المال على الفلاحين وأعاد البطّالين إلى العمل وشجّع التجارة الخارجية، وخفّض من الضريبة، وحافظ على دستور "صولون"، ثمّ خلفه ابناه واستغلّ ذلك الأشراف لإحداث الانقلاب. ثمّ أنشأ كليستنيس "الأكليزيا" وألغى كلّ تمييز طبقي، وساوى بين الراشدين، بذلك بدأت جذور الديمقراطية وحكم الأكثرية ترسي أقدامها وفقد الأشراف دورهم.

ب- التطوّر والتاريخ:

مرّت الحضارة الإغريقية بثلاث مراحل:

1- اليونان القديمة (القرن 10 إلى 6 ق.م).

2- اليونان الكلاسيكية (القرن 6 و5 ق.م).

3- اليونان الهيلينية (القرن 4- 3 ق.م).

لكن المرحلة الأكثر تطوّراً هي المرحلة الوسطى، والتي كانت أثينا على

رأسها، لهذا سنركز على هذه المرحلة وهذه المدينة بالذات دون غيرها.

يرى أرسطو أنّ الحكم يمرّ بحلقة دورانية، تبدأ بالحكم الملكي المطلق "Manarchia" الذي يُسيطر فيه فرد واحد، مستعيناً بمجموعة من الأشراف والكهّان، وبمرور الزمن يستولي هؤلاء الأشراف والكهّان على السلطة ويكوّنون شكلاً جديداً من الدولة يُدعى حكم الأقلية "Oligarkia"، وبتجذّرهم في الحكم واستغلالهم للطبقات الدنيا على كلّ المستويات، يصبح هذا الحكم أرستقراطياً "Aristokratia"، لكن أمام تزايد الاستغلال تثور الطبقات الشعبية عليهم مطالبةً بالمساواة السياسيّة والمدنية، بذلك ينتقل الحكم إلى النظام الديمقراطي "Demokratia"، وبتوسع هذا النظام وعدم حسن تسييره يأخذ شكل النظام الفوضوي "Anarkia"، فتكثر الاضطرابات والقلاقل، لهذا وجب ظهور شخص صارم يضع حدّا لهذه الفوضى المتصاعدة فيُقيم حكماً استبدادياً فرديّاً يُصبح بالزمن حكما ملكيا مطلقا، وهكذا تعود الدائرة لبدايتها الأولى مرّة أخرى.

شكل يبيّن تطوّر السلطة حسب أرسطو

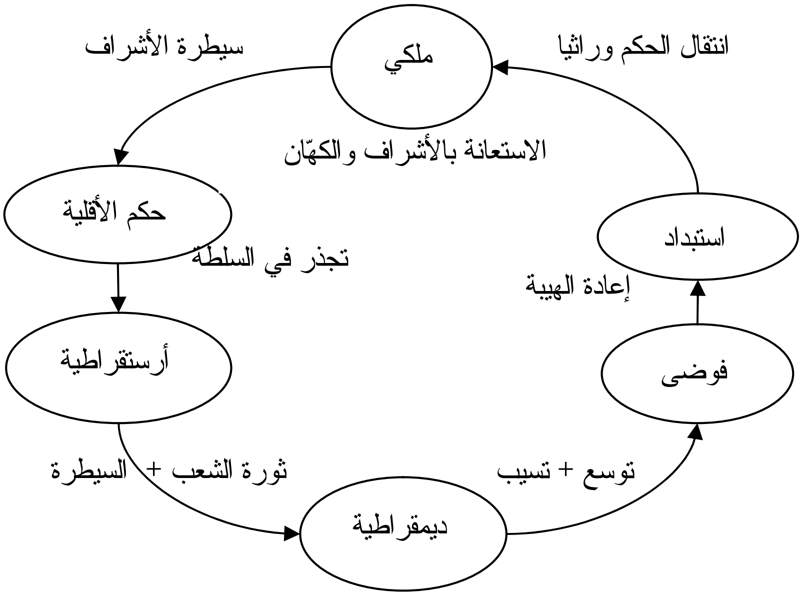

تنطبق هذه الصورة الدائرية انطباقاً شبه تامّ على تاريخ الحكم في أثينا قبل الحروب الفارسية، لكنّ الأمر يختلف بعدها، إذ وصلت الحضارة اليونانية قمّتها، بخاصة فترة حكم "بريكلاس Perikles"، وانحدرت نحو الانحطاط بعد حرب " البيلوبونيز Péloponnèse" .

أوّلا- أثينا قبل الحروب الفارسية: عرفت هذه المرحلة الحقبات الأرسطية السابقة، وهي كما يلي:

أ- العهد الملكي الأرستقراطي: يعود الفضل للملك " كيكروبس Kekrops " (إله الحرب والعقل) في إقامة ملك أثينا وتركيزه، وقد حكم بعده ثلاثون ملكاً من ذرّيته، آخرهم " كوردوس Kordos "، واستطاع كبار الإقطاعيين السيطرة على جميع مناصب الحكم الاقتصادية والعسكرية والسياسيّة في القرن 8 ق.م، لكن عدم استعمالهم الراشد للسلطة أدّى إلى أزمات أطاحت بهم على يد بعض المصلحين الاجتماعيين، الذين استولوا على الحكم قصد إعادة تنظيمه.

ب- مرحلة الإصلاح الاجتماعي: قام بعض هؤلاء المصلحين بتجديد نظام الحكم، وتحسين التعامل أكثر مع الشعب، ولعلّ من أهمّهم:

1- الحاكم دراكون Dracon: وضع عقوبات شديدة، وساوى بين المواطنين والعبيد، وأرسى قوانين جدّ صارمة تضمن للعدالة مجراها (حتّى أصبح اسمه مرتبطاً بالقساوة)، فحدّ من الفوضى التي عمّت البلاد، لكنّ قسوة قوانينه وأنظمته لم تدم لأكثر من ثلاثين سنة، لتعوّض بمجموعة أخفّ منها على يد "صولون".

2- الحاكم صولون Solon: أحدث إصلاحات واسعة سياسياً واجتماعياً، وازدهرت أثينا في عصره، ومن أهمّ إصلاحاته:

- تقسيم الأملاك الكبرى وتجزئتها بتعميم حقّ الإرث للأبناء والبنات.

- تحريم بيع الأبناء وقتلهم.
- منع قتل أو بيع المدين أو استرقاقه إن كان عجوزا.
- حماية الزراعة والصناعة والتجارة بوضع الموازين والمكاييل.
- إنشاء نظام نقدي لضمان الاستقلالية الاقتصادية لأثينا.

وضعت هذه الإصلاحات حدوداً أمام تجاوزات الأرستقراطيين وزادت من التطوّر الاجتماعي، حتّى وصفه (أي صولون) معاصروه، وبخاصة أرسطو، " بـــأب الديمقراطية وواضع أصولها".

3- الحاكم بيزيسترات Pisistrate (حكم من 561 إلى وفاته 527ق.م): واصل الإصلاحات التي بدأها سابقيه، وركّز على الحدّ من سلطات الطبقة الأرستقراطية وتميّزها، بتشجيع التجارة والتقريب بين الطبقات، وأعطى الأفضلية للطبقة الوسطى، ما ساهم طبيعياً في وضع الأسس الأولى للنظام الديمقراطي .

ج – مرحلة الانحراف (الانتقالية): قبل إرساء النظام الديمقراطي مرّت أثينا بمرحلة انتقالية سادها الطغيان والتوتّر، نتيجة تولية "بيزيسترات" الحكمَ لابنه الأكبر "هيبياس HIPPIAS"، بمساعدة أخويه "هيبارخوس HIPPARCHOS" و" تيسالوس THESSALOS"، فجرت الأمور بشكل جدّ طبيعي إلى أن قُتل "هيبارخوس" غدراً، فثارت ثائرة "هيبياس"، وبثّ الجواسيس في كلّ مكان وشدّد قبضته على الشعب يُرهبهم ويستفزّهم، لكن سرعان ما استطاع الحاكم " كليستان CLISTHENES" -بمساعدة إسبارطة- السيطرةَ على الحكم وطرد الأسرة الحاكمة، فأقام النظام الديمقراطي سنة 510 ق.م، والتي استمرّت إلى غاية الحروب الفارسية حوالي سنة 480ق.م .

ثانيا- أثينا بعد الحروب الفارسية: أدّت الحروب الفارسية الإغريقية إلى استيلاء الفرس على أثينا، ودخول قلعة "الأكربول" (وهي قلعة مبنيّة على صخرة عالية، جُمعت في قمّتها المعابد والآثار النفيسة لأثينا)، وقتل ما تبقى من

المحاربين وسلبت المعابد، وانتهت هذه الحروب سنة 478ق.م، فانتقلت أثينا إلى عهد جديد، انقسم إلى قسمين:

أ- عهد الازدهار: تقدّمت البلاد وازدهرت على يد الحاكم "بريكلاس" (443 – 431ق.م)، في جميع المجالات الاقتصادية والاجتماعية والسياسيّة، وأصبحت أثينا مركزاً للحضارة الكلاسيكية، لكنّ أطماعه التوسعية أثارت غضب إسبارطا **SPARTE** الراغبة في الاستقلالية، وكان نتيجة ذلك "حرب البيلوبونيز".

ب- عهد الانحطاط: تقع البيلوبونيز **Péloponnèse** شمال إسبارطا وغرب أثينا، خاضت فيها المدينتان حرباً ضروساً طويلة دامت ثلاثين سنة (431 – 401ق.م) انتهت في البداية بالسلام (421ق.م) وانصياع أثينا مقابل المحافظة على إمبراطوريّتها رغم ما تكبّدته من خسائر كبيرة، خاصة بعد اجتياح الطاعون للمدينة ووفاة بريكلاس. لكنّ الغرور الإسبارطيّ حمل الجيش على الزحف عليها حتّى الهزيمة والاستسلام الذريع، فانتهى الأمر بانحطاط أثينا بالكامل في القرن 05ق.م (فركوس دليلة، 1993، ج1، 24، 134).

ثالثا- الهيلنة: وهي تمتد من غزو الإسكندر للشرق إلى الفتح الروماني ففي خضم الصراع بين أثينا وإسبارطا برزت مدينة جديدة في الشمال تُسمّى "مقدونيا"، واستطاع "فيلبوس" التوسيع من نفوذها واستعد لغزو الفرس لكنّه اغتيل، وخلفه ابنه الإسكندر (وفي عمره 20 عاما تتلمذ على يد أرسطو) الذي غزى آسيا الصغرى وبلاد الفرس ومصر ووصل إلى الهند، لكنّ جنوده أبوا الذهاب إلى آخر الدنيا فعاد إلى بابل، وفي طريقه أصيب بحمى فمات (30عاما). وقد كان يعطي اسمه (الإسكندرية) لإحدى المدن في كلّ بلد يغزوه ويُطالب جنوده بالزواج من نساء تلك البلاد لتأمين الثورة، إضافة إلى إبقاء المواطنين الأصليين في الإدارة... بذلك تمازجت معتقدات الإغريق بالشرق (لبيب عبد الساتر، 1974، 176– 182).

ج- الخصائص الحضارية:

أهمّ الخصائص المميّز للحضارة الإغريقية والأثينية بخاصة:

1- النشاط الاقتصادي:

اعتمدت أثينا الزراعة وصيد الأسماك مصدرا للعيش، وبقدوم المصلحين (أواخر القرن 07ق.م) وتزايد السكان أصبح هذان النشاطان غير كافيين، فتوسّعت الأعمال إلى التجارة، التي جعلت من أثينا أهمّ المراكز في البحر الأبيض المتوسط. اعتمد النشاط الزراعي على الزيوت والخمور بكميّات هائلة استدعت وجود وسائل لتصديره، فصُنعت لها آنية خاصة ما زاد في تقدّم الصناعة، ومن خلال النشاط التجاري والصناعي ظهر نظام النقود والعملات. و في عهد "صولون" تزايد الحدّ من فائدة الديون، وضبطت المكاييل، أمّا عهد "بريكلاس" فعرف الأمن والاستقرار السياسي وتقدّم أسطول أثينا.

2 - النظام الاجتماعي:

ينقسم من حيث الطبقات إلى فترتين:

أ- **ما قبل العهد الديمقراطي**: ينقسم هو الآخر إلى فترتين:

أولا: ما قبل إصلاحات "صولون": تقوم الطبقات على أساس الألقاب الشرفية والحرف، وهي أربع:

- طبقة الأشراف والنبلاء (**Eupatridae**): تضمّ كبار الإقطاعيين والموظفين، ولها تأثير مباشر على السلطة، وغالباً ما كانت قرارات الحكم خاضعة لمصلحتها.
- طبقة صغار المزارعين (**Georgoi**): وهم ملاّك القطع الأرضية الصغيرة، يقتاتون منها.
- طبقة الحرفيين والتجّار (**Demiurgoi**): تضمّ العاملين في هذين النشاطين بشكل حرّ، وضعيتهم أحسن من وضعية المزارعين.

- طبقة المعدومين والأجانب (Thetes): يؤجِّرون ذواتهم للزراعة أو الصناعة، فهم أحرار دون حقوق مدنية أو سياسية .

ثانيا: بعد إصلاحات "صولون": قامت الطبقات على أساس مادي، وبتنظيم "صولون" للسوق سمح للعديد من الطبقات بالارتقاء في السلم الاجتماعي، وتتكون الطبقات من أربع أصناف هي:

- الصنف الأول: يملكون أرضاً، وينتجون 500 مكيالاً أو ما يعدلها، وهم من ذوي الوظائف العليا.

- الصنف الثاني: يملكون أرضاً وينتجون بين 300 و500 مكيالاً أو ما يعدلها وهم من الفرسان.

- الصنف الثالث: دخلهم بين 200 و300 مكيالاً أو ما يعادلها، من المزارعين والحرفيين وصغار التجّار.

- الصنف الرابع: لا يتجاوز دخلهم 200 مكيالاً، وقد زال هذا الصنف بحلول المرحلة الديمقراطية بما يناسب هذا النظام السياسي ويساير الوضع الاجتماعي.

ب - **العهد الديمقراطي**: وحّدت الديمقراطية بين الشعب الأثيني وأزالت الطبقات، لكنّها قسّمت الأفراد حسب درجة المواطنة إلى ثلاث طبقات:

1- **المواطنون**: لهم كامل الحقوق المدنية والسياسيّة بمقتضى المواطنة، والتي يُشترط فيها:

- الذكورة، فالمرأة تعيش في "حريم"، لا حقّ لها في المواطنة.
- الولادة الشرعية من أثيني وأثينية.
- بلوغ سنّ الرشد (18 سنة) .

2- **الأجانب**: لا حقّ لهم في المواطنة، فهم محرومون من الزواج والملكية ومن التجارة والصناعة، والمشاركة في الحياة السياسيّة، وإذا أراد أحدهم ذلك وجب عليه الدخول تحت ضمان مواطن أثيني، وإلاّ تعرض للقضاء أو أُنزل إلى

درجة العبيد .

3- **العبيد**: هم ملكية خاصة للسيّد، لا حقّ لهم في الزواج أو تكوين عائلة، محميون من طرف القانون فلا يُقتلون، ويمكن تحريرهم إذا أسرف السيّد في الإساءة لهم (فركوس دليلة، 1993، ج1، 34- 140).

تقوم الأسرة الأثينية على أحادية الزوجة، ويُشكّل الرجل مكانةً محوريةً في القرارات، ولا حقّ للمرأة في المواطنة أو المشاركة في النشاط السياسي أو القضائي، فكلّ تصرفاتها مرهونة بوليها (الأب، الزوج، الابن، الأخ)، أمّا الأبناء فيعود قرار قبولهم أو رفضهم أو بيعهم للأب، وقد مُنع ذلك بعد إصلاحات "صولون"، وللأبناء المعترف بهم فقط الحقّ في الميراث، كما أنّ التبني حقّ مشروع .

3- النظام الديني:

عرف مرحلتين أساسيتين:

أ- **قبل عهد بريكلاس**: يقوم الدين على الأساطير والخرافات أو ما يُسمّى "الميتولوجية **Mythologie**" في فهم أصل الكون، وهو يستند على تعدّد الآلهة وتناقضها، ويعتبرها أشبه بالبشر، لأنّها تحبّ وتحقد وتتألّم فهي "مجرد صورة مكبّرة للبشر"، والفارق بينها وبين البشر يكمن في ضخامة حجمها وقدرتها على الخلود، ولكلّ عائلة أو قبيلة أو مدينة إلهها (بعضها أصلي والآخر دخيل) تُشعل له نار يجب أن لا تنطفئ، كما قدّسوا الأبطال دون جعلهم آلهة، لأنّهم وُلدوا من علاقة تمّت بين بشر وآلهة. وقد مرّت الألوهية بثلاث مراحل:

- **المرحلة الأرضية**: كانت الآلهة تحت أرضية، وشاعت بين الفقراء.
- **المرحلة الأولمبية**: الآلهة أولمبية شاعت بين الأغنياء.
- **المرحلة الصوفية**: وفيها بُعثت الآلهة من الموت، وشاعت بين فئة من العامة (لبيب عبد الساتر، 1974، 15- 155)

لكنّ الفلسفة عملت على السخرية من الدين وشكّكت فيه خاصة أنّه لم يصل درجة القدسية، وقد كثرت الأعياد الدينية وكانت محبّبة لما يُصاحبها من الألعاب الرياضية وإقامة للمسرحيات، ولكلّ مدينة أعيادها لكنّ أشهرها أعياد أثينا وعيد الربيع أو "السكر" (لبيب عبد الساتر، 1974، 58).

ب – التأثّر بالديانة الشرقية: تأثّرت المعتقدات، في عهد "بريكلاس"، بالديانة الشرقية نتيجة الاحتكاك بينهما، فأصبحت ديانة اليونان روحيةً أكثر منها جسدية، وارتبطت بالميتافيزيقا ومصير الإنسان بعد الموت، وتزايد ممارستها من طرف الكهّان خاصة الكاهنات، لاعتقادهم أنّ المرأة أكثر استعداداً لتلقّي الوحي. ومن أبرز نتائج ذلك استعمال السلطة للدين، إذ أصبح كلّ عمل سياسي يرتبط ارتباطاً شديداً بالطقوس الدينية أو الممارسات التقرّبية، وكلّ عمل ديني يحمل معنى سياسيًّا، والهدف من ذلك تقوّية روح المواطنة وزيادة الشعور بالمصلحة العامة، لأنّ الديانة حقّ من الحقوق الأساسية للمواطنة الحقّة حسب النظام الديمقراطي (فركوس دليلة، 1993، ج1، 43– 145).

4 – النظام السياسي (الديمقراطية):

أُقيمت الديمقراطية لأوّل مرّة على يد الإغريق ("صولون"، و"بيزيسترات" ثمّ توسّعت مع "كليستان"، و"بيرسكلاس")، وهي تقوم على مبدأين: مبدأ المساواة فالكل سواسية أمام القانون وخاضع له، ومبدأ الحرية وقد فصّل فيه الفلاسفة، إنّما هي بشكل عام حقّ الفرد في العيش حرّا، واختيار نظام الحكم وضمانه بنفسه. وتنقسم السلطة التشريعية إلى ثلاثة مجالس:

1– المجلس الشعبي (الإكليزيا Ecclésia): أنشأه "كليستنيس"، يضمّ كلّ المواطنين البالغين سنّ الـــ 18 فما فوق ويُعاملون بنفس الدرجة، يُعقد في مسرح الهواء الطلق كلّ 04 أشهر ويؤجّل في حال الأزمات، ولم يكن الفقراء يحضرونه في البداية فخُصّص لهم تعويض مالي مقابل الحضور، لذا امتلأ بالبطّالين والمتسكّعين. وظيفة هذا المجلس اتخاذ قرارات الحرب والسلم والمراقبة المالية،

وتعيين الحكّام، والتصويت على بعض القوانين ومراقبة القضاة، وسماع صوت المعارضة، ومعاقبة مقترحي القوانين التي أثبتت فسادها، والحكم على "من هو خطير" بالنفي، لكنّ تدخّله كان محدوداً قضائياً إلاّ في بعض القضايا الخطيرة .

2- المجلس المحدّد (البولي Boule): أنشأه "صولون"، يتكوّن من **500** مواطناً من ممثلي الأشراف وكبار التجّار، يزيد عمرهم عن **30** سنة، ويمثل كلّ **50** منهم إحدى القبائل بالتداول، ويضمّ **10** لجان (**50** عضو في كلّ واحدة)، دوره دراسة القرارات قبل عرضها على مجلس "الإكليزيا" ثمّ استدعائه، ومراقبة عمل الحكّام والسياسة الخارجية وقضايا الأشغال العامة والحسابات (من بناء وصيانة)، وهو بمثابة محكمة قضائية متخصّصة في الرقابة ومقاضاة الموظّفين، ومحاربة الخيانة أو مسّ أموال الدولة .

3- مجموع الحكّام (الماجسترا Magisrats): يتكوّن من ذوي المناصب العليا في الدولة إضافة إلى قادة الجيش، وقد فُرضت عليهم قيود شديدة لمنع تسلّط الأقلية سواء من حيث مدّة الحكم (**03** أشهر أو سنة)، أو المرشّحين لها (من كلّ أفراد الشعب) أو طرق تعيينهم (الإكليزيا) أو الرقابة عليهم أو تعدّد مناصبهم (مالية، أسواق، معابد....) (فركوس دليلة، **1993**، ج**1**، **46- 158**) .

أما المجالس الخاصة بالسلطة التنفيذية فتضمّ:

1- مجلس الأرخنة: يتمّ تعيينه بالقرعة من ذوي الصفات العالية يترأس الاحتفالات والمراسيم الدينية.

2- مجلس القادة العشر: يُنتخبون من أعلى مراتب الجيش، ويكون على رأسه أوّل رجل للدولة، يمكن انتخابه عدّة مرّات مثل "بيركليس".

3- مجلس القضاة: يهتمّ بالأمن والضرائب والريّ والتخطيط المدني، وهو ركيزة الإدارة، كان العمل فيه مجّاناً ثمّ خُصّص لأعضائه أجر فامتدّ من الميسورين إلى عامة الناس. إضافة إلى مجالس متعدّدة تقوم على قاعدة "يُعاقب العبد في جسده والحرفي في ماله" (لبيب عبد الساتر، **1974**، **146- 150**)

5- الحياة العلمية:

أهمّ ما يطبع الحياة العلمية:

- **الملاحم**: أهمّها ما جمعه "هوميروس" في "الإلياذة" و"الأدويسية" (أوّل من ألفهما)، فالإلياذة تروي أحداث حرب طروادة أو إليون (ومنها أخذ اسمها)، أمّا الأوديسية فتحكي انسحاب الآخيين من آسيا الصغرى.

- **الفن المسرحي**: من أعلامه "هزيود" ومسرحياته الشعرية، و"سوزفوكليس" الذي كتب 70 مسرحية، و"أسفيلوس" صاحب 118 مسرحية، و"يوريبيد" (75مسرحية)، و"أرستوفانيس"... وقد شيّدت المسارح وأُقيمت التمثيليات التي بلغ مدة عرض بعضها ثلاثة أيّام كاملة.

- **التأريخ**: من أعلامه "هيرودوتس" (أبو التاريخ)، و"توسيديدس" (خاصة ما كتبه عن البيلوبونيز).

- **الخطابة**: أشهر أصحابها ايزوقراط، ديموستينيس...

- **الفلسفة**: كانت وسيلة لتفسير الظواهر والهروب من التفسيرات الدينية غير المقنعة، أهمّ روادها سقراط، وأفلاطون، وأرسطو... وغيرهم كثير.

- **العمارة**: ازدهرت على يد "بيريكليس"، ومن أجمل مخلفّاتها معابد "الأكروبوليس" (هضبة مجاورة لأثينا) وبالخصوص معبد "البرتينون".

- العلوم: اشتهرت بها مدينة "أيونية" بالخصوص، ومن أهمّ البارزين فيها: طاليس، انكسيمندر، فيتاغورس، أبوقراط... (لبيب عبد الساتر، 1974، 175).

2- الحضارة الرومانية Romaine:

أ- الموقع والتاريخ:

إذا كان الفكر الفلسفي سِمَةُ الحضارة الإغريقية، فإنّ التنظيم والقانون صبغ الحضارة الرومانية، وميّز فكرها بالطابع العملي، فقد أتاحت لها الفتوحات

الواسعة فرصة الاطلاع على عادات الشعوب الأخرى، ولو لم تقدّم روما شيئاً جديداً – كما يقول بوتول – على المستوى الاجتماعي إلاّ أنّها تبقى «الواضعة الحقيقية للقانون الحديث والتي عرفت كيف تستخلص منه عبر عدّة قرون المبادئ الأساسية، وبذلك أمكن الانتقال من ضيق القانون القديم وشكلياته إلى وضع القانون الطبيعي» (بوتول جاستون، د.تا، 7).

وتنقسم روما عرقيًّا إلى الليغوريين في الشمال، والإيطاليين بالوسط (تربطهم علاقة قرابة بالآخيّين والدوريين) الذين ينقسمون إلى عدّة فصائل أهمّهم "اللاتين" و"السابنيون"، إضافة إلى الإغريق النازحين، لكنّ أهمّ هذه الأعراق هم "الأتروسكيون **Etrusques**" (أصلهم من ليديا **Lydie** هندأوروبيين) الذين قدموا من آسيا الصغرى (**19** ق.م) واستقرّوا في شواطئ بحر "التيراني" فبنوا فيها عدّة مدن وحصّنوها واستغلوا المناجم، وقد تطوّر توسّعهم إلى أن وصل سهل "البو"، فاتفقوا مع القرطاجيّين على الزحف نحو الشمال، حيث أخضعوا وأسّسوا (لأنّها كانت مجرّد قرية صغيرة) روما على نهر "التير"، وحكموها إلى أن نشبت ثورةٌ تزعّمها نبلاء روما فأطاحت بالملكية الأتروسكية وأقامت الجمهورية (لبيب عبد الساتر، **1974**، **184**)، وبدأت الجمهورية في التوّسع هي الأخرى إلى مناطق إيطاليا، لكن سرعان ما هاجمها "السلتيون" فتوقّف توسّعها، ثمّ أعادت تنظيم نفسها فعادت للتوسع وأخضعت "اليونان الكبرى" ومدّت شبكة طرقات واسعة لتسهيل قمع الثورات، ثمّ تفرّغت لحليفتها قرطاجة وأخضعتها بعد حربين، وبذلك بلغت في امتدادها شواطئ المتوسط الغربي حتّى موريتانيا، والفرات شرقا حتّى حدود فارس وكلّ شواطئ المتوسط.

مرّ تاريخ روما بالمراحل التالية.

1– العهد الملكي (754– 509 ق.م): قامت روما فعلياً على يد الملك "رومولوس **Romulus** " الذي عمل على توحيد الأجناس السابقة الذكر، لكنّ

شعب "الاتروسك" كان أكثر تقدما من غيره، فأدخل عاداته وحضارته على الشعوب الأخرى. لكن النظام الملكي لم يستمر نتيجة تعسّف الملوك الذين حكموا روما، ما أسهم في تأسيس الدولة الجمهورية.

2- **العهد الجمهوري** (509- 27 ق.م): توسّع حكم روما إلى كامل شبه الجزيرة الإيطالية ومناطق عدّة من البحر الأبيض المتوسط كسردينيا وصقلّيا، وإن عانت روما كثيراً مع قرطاجة في حروب ضروس عُرفت "بالحروب البونية Punique أو القرطاجية " (254 – 146 ق.م)، واستطاعت في النهاية احتلالها، واتخاذها بوابة تدخل عن طريقها تدريجيا إلى الشمال الإفريقي. إضافة إلى احتلالها للغال (فرنسا) وإسبانيا وآسيا الصغرى، ما أدّى إلى نشأة الإمبراطورية الرومانية.

3- **العهد الإمبراطوري** (27 ق.م – 565 م): عرف مرحلتين: مرحلة الإمبراطورية العليا التي بدأت بالإمبراطور "أغوسطس Auguste" وانتهت بالإمبراطور "ديوقليتيان" Diocletien، ووصلت أقصى درجات تقدّمها. ومرحلة الإمبراطورية السفلى التي استمرت إلى وفاة الإمبراطور "جوستينيان Justinien " وشهدت روما خلالها التدهور والانحلال واضطرابات سياسية عديدة، وقد انقسمت جغرافيا إلى: الإمبراطورية الشرقية عاصمتها "بيزنطا Byzance "، والإمبراطورية الغربية عاصمتها روما (فركوس دليلة، 1993، ج1، 66- 169)..

ب- الخصائص الحضارية:

أهمّ الخصائص المميّزة للحضارة الرومانية:

1- النظام القانوني:

يعتبر التطوّر القانوني لهذه الحضارة أصل القوانين اللاتينية الحديثة، وذلك نتيجة التوسّع الاقتصادي في مرحلة الجمهورية، والتقدّم الديني خاصة بعد ظهور

المسيح عليه السلام (فركوس دليلة، 1993، ج1، 69). وأهمّ المجموعات القانونية السائدة:

– **قانون الألواح 12** (450 ق.م): الذي هو حصيلة الثورات الاجتماعية المتكرّرة، وتأثّر في مضمونه بالقوانين الأثينية (خاصة قانون صولون).

– **قانون الشعوب**: استُحدث لاحتواء التوسّع الجغرافي وتزايد الأجانب، مضيفاً منصباً جديداً يتمثّل في "حاكم الأجانب"، وهو أكثر مرونة من الأوّل هدفه تسهيل التعامل الاقتصادي مع الأجانب.

– **القانون البريتوري**: أنشأ "البريتور" أو الحاكم الروماني قانوناً يتناسب مع الازدهار الذي شهدته روما وتوسّعاتها، وهو يمثّل مجمل آراء الفقهاء وأحكامهم. إضافة إلى مجموعات أخرى منها قانون "تيودوز **Théodosien**"، وقانون "جوستينيان **Justinianus**"، ولكلّ مجموعة خصوصياتها حسب الماجسترا (نظام الحكم) السائد (فركوس دليلة، 1993، ج1، 83– 196، وانظر أنواع الماجسترا في المرجع نفسه، ج1، 97– 207).

2– التطوّر الاقتصادي:

اعتمدت روما في العهد القديم على الزراعة وتربية المواشي، فاتّخذت منها مقياساً لحساب مقدار ثروات كلّ فرد، والكمّ الذي ينبغي عليه دفعه من الغرامات، وجعلت من رؤوس المواشي عملة لها. أمّا الصناعة فبقيت شبه منعدمة ما جعل المبادلات التجارية قليلة، ومقتصرة على المحاصيل الزراعية خلال السوق الأسبوعي.

بالتوسع التجاري دخلت روما في احتكاك مع الشعوب الأخرى، وانقلب المزارعون إلى تجّار، وتزايدت التجارة الخارجية من الاستيراد إلى تصدير المواد والبضائع المصنّعة، فتقدّم بذلك النظام النقدي والقوانين التي تحكمه، وتدخّلت الدولة لفرض الضرائب على التجّار. ونظراً لاستتباب الأمن والاستقرار خلال فترة الإمبراطورية العليا ازدهرت وسائل النقل، وأُدخلت العملة الذهبية

للمعاملات التجارية، بعد أن كانت تستعمل في الشرق فقط. لم يكن الوضع كذلك في عصر الإمبراطورية السفلى، التي تدهورت فيها النظم وزادت الحروب واتجه الأغنياء لإخفاء النقود واكتناز الذهب، ما جعل الدولة ترفع من قيمة الضرائب والرسوم، فأدى ذلك إلى التضخّم وارتفاع الأسعار وضعف التجارة وشلّ الصناعة. فانعكست هذه الوضعية على الواقع الاجتماعي للمواطن الروماني (فركوس دليلة، 1993، ج1، 70– 172).

3– النظام الاجتماعي:

كانت الطبقات الاجتماعية في العهد القديم منقسمةً إلى طبقة الأشراف التي تربطهم أواصر القرابة، ولكلّ أسرة منهم عادات خاصة بها، ويعيش تحت تصرّفهم عدد من العبيد والأجانب بموجب عقد التزام، وقد يصبح العبد أجنبياً في حال عتقه. وطبقة العامة الذين يعيشون –بجوار الأشراف أحراراً– من عملهم الزراعي والحرفي. وبتوسّع النظام الجمهوري زادت الهوّة بين الطبقات، فتكوّنت الطبقات التالية:

أ– **طبقة الأغنياء**: تضمّ النبلاء الذين سيطروا على الأراضي، والفرسان الذين استحوذوا على التجارة.

ب– **طبقة الفقراء**: وهي الأغلبية الساحقة، تضمّ صغار المزارعين والحرفيّين، وليست لها حقوق سياسية إلا بعض الامتيازات المدنية الضيّقة (بيع وشراء)، ولا حقّ لها في الاطلاع على القوانين.

ج– **طبقة العبيد والموالي**: كان عددهم صغيراً، ومع تزايد الفتوحات ترك الرومان الفلاحة والتجؤوا إلى الجندية (أنظر في ذلك: دياكوف، كوفاليف، 2000، ج2، 469)، وزاد النزوح نحو المستعمرات والمدن، فاكتضت بالنازحين خاصة "روما"، وانتشرت بذلك خدمة الأغنياء وتحوّل العامة إلى موالي. لكنّ الأثرياء فضّلوا شراء عدد ضخم من العبيد من المستعمرات المتزايدة فأصبح

الموالي دون عمل، وتفاقم الوضع نتيجة انتشار "البطالة"، وإساءة معاملة العبيد فقام هؤلاء بثورة ضدّ الأغنياء بزعامة "سبارتكوس" دامت مدّة عامين.

اشتدّ الصراع الطبقي أكثر مع سيطرة الأشراف واحتقار العامة ومنعهم من كلّ الحقوق بخاصة حقّ الاطلاع على القوانين والمشاركة السياسية، فانفجر العامة وهدّدوا بهجرة روما جماعيًّا، ونتيجة الحركات الاجتماعية والثورات الشعبية، تمكّنت العامة من تمديد حقوقها تدريجيًّا، فأُنشئ لها مجلس خاص "جمعية شعبية" تُدعى "حماة العامة" تنتخب من يحمي مصالحها، وأصبح من حقّها الاطلاع على القوانين والزواج من الأشراف وتقلّد بعض المناصب السياسيّة (القنصلان، حاكم الإحصاء، حاكم الأسواق...)، وحتّى الحقّ في ممارسة بعض الوظائف الدينية كالكاهن الأعظم (فركوس دليلة، 1993، ج1، 72– 177).

رغم ذلك، ونتيجة تزايد العبيد تفشّت البطالة وارتفعت حدّة الغضب الشعبي، فأنشأ الأغنياء دوراً للملاهي والرياضة وتقديم وجبات يومية للفقراء...، كما قام "غراكوس" بتوزيع الأراضي على الفلاحين لكنّه اغتيل، وحدث نفس الشيء مع أخيه، ثمّ قرّر "يوليوس قيصر" بعد ذلك إعطاء حقّ "المواطنة الرومانية" لكلّ حرّ، وتحسين معاملة العبيد، وتقليص الفوارق الاجتماعية. إنّما تزايد ثراء الأغنياء أكثر فانقسم المجتمع بعد ذلك إلى مواطنين ورعايا للمواطنين يُوحّدهم "حقّ التمثيل في المجالس"، وانتشر البذخ بشكل جدّ مفرط في المجتمع الرماني (الحمامات، دُور اللهو، دُور الخمر، الدُور الفخمة، الملاحق، الحدائق...) ما عجّل في انهياره (لبيب عبد الساتر، 1974، 190– 196)

أمّا الزواج فقد وُضعت له ضوابط قانونية واجتماعية عدّة، بداية بتحريم زواج الأقارب، ووجوب الكفاءة بين الزوجين طبقيًّا بعدم زواج العامة من الأشراف، أو المعتوق من الحرّ، أو العبد من الحرّ، كما مُنع أعضاء مجلس الشيوخ من الزواج بالمغنّيات والممثّلات، وعدم زواج الرجل بالمرأة التي خطفها

أو زنى بها، وبعد ظهور المسيحية مُنع الزواج من اليهود.

ومن أركان الزواج إرادة ربّ الأسرة لأنّ الأبناء خاضعون كليّة لآبائهم. وحين تنتقل المرأة لبيت زوجها يتنقل معها كلّ مالها وتصبح جزءًا منه، ولا تُقبل باعتبارها زوجةً بشكل نهائي إلاّ بعد الإنجاب، ومن حقّ ربّ الأسرة طردها في حال عدم إنجابها بعد سنة، وإذا مات عنها زوجُها انتظرت سنة قبل زواجها (تسمى"مدّة البكاء"). وقد تغيّرت هذه الأنظمة كثيراً في ظلّ القانون البريتوري، وشُرع نظام التبنّي بأنواعه للذكر والأنثى، تحت الطابع الديني (لا المدني) بين الرومانيين فقط لا الأجانب، وللطفل المتبنّى كامل الصلاحيات المعطاة للطفل الحقيقي بخاصّة الإرث (فركوس دليلة، 1993، ج1، 08- 219).

4- النظام الديني:

أخذت البدايات الأولى للديّانة عند الرومان شكل الاعتقاد في الخرافات وقدرات الكاهن في كلّ شيء، مع إبقاء الشعلة الخالدة ("جانوس" إله النور والسلام) متوقّدة بمدخل البيت. امتزجت آلهة الإغريق بالرومان بخاصة ما جاء به اليونان في مرحلة الهيلنة، ولا فارق بين كثير من آلهتهم إلاّ في التسمية، وتأثّروا أيضاً بميتولوجيّتهم، فقلّدوهم في طريقة بناء المعابد وإن أضافوا لها التماثيل، وللكاهنات مجمّع خاص. لكن الأمر انتهى بالسخرية والتهكّم من الآلهة، خاصة بعد أن أُعطيت صفة الألوهية لبعض القادة.

وللديّانة الشرقية أيضا بمختلف اتجاهاتها، تأثيرها في ممارساتهم الطقوسية خاصة منها الديانة العبرانية (ديانة موسى) من بداياتها الأولى حتّى آخر أنبيائهم "يوحنّا" الذي بشّر بمجيء المسيح (لبيب عبد الساتر، 1974، 198- 206). وينقسم النظام الديني إلى مرحلتين:

أ) ما قبل الديّانة المسيحية: وهنا يجب الفصل بين مراحل هي:

- **المرحلة الملكية:** ارتبط فيها الدين بكلّ مجالات الحياة، ولا فارق بين

الديني "فاص Fas" واللاديني "يوس Jus "، فالعهود مثلا كلّها مصبوغة بطابع ديني، من ذلك العقد المبرم بين الشريف والأجنبي، وبحكم صبغته الدينية فإنّ مخالفته تؤدي إلى قتل الشريف لأنّه ألحق العار بالعشيرة كلّها، وكذا الحال في القضاء والمناصب السياسيّة وغيرها.

– **العهد الجمهوري**: بدأ الفصل بين "الفاص" و"اليوس"، ما ساعد في وضع القواعد الأولى للقانون الروماني المدني (فركوس دليلة، 1993، ج1، 78–183) .

– **مرحلة الإمبراطورية العليا**: لاحظ "أغوسطس Auguste" تراجع المعتقدات الدينية للآباء، فأعاد بناء 82 معبدا، واعتبر نفسه"محامي القداسة"، هكذا دخلت روما مرحلة تقديس الانتصارات، واعتبار الملوك آلهة بعد موتهم. وتُفسّر هذه الاعتقادات الجديدة سبب تأخّر تبنّي المسيحية، التي انتشرت شعبيًّا كردّ فعل للاضطهاد السياسي والاجتماعي، لكنّ الحكّام رفضوها باعتبارها "قدحا للذات الملكية" (Lèse Majesté).

ب) العهد المسيحي: اضطهد اليهود المسيحيّين الأوائل (التلاميذ والرسل) ما جعلهم يفرّون وينتشرون في بقاع العالم منها اليونان (سُمّوا لأوّل مرّة بالمسيحيين في أنطاكية)، لكنّهم لم يسلموا من هذا القمع في روما لأنّهم مسّوا آلهتها (كان يُسمح بالديانات شريطة عدم المسّ بآلهة روما) "فنُزعت أنوفهم وآذانهم وألسنتهم ودُقّ الحديد في بطونهم..." ما زاد إصرارهم أكثر وإقبالهم على الاستشهاد. ونظراً لطبيعة هذه الديانة القائمة على مفاهيم التسامح والمحبّة أقبل عليها الفقراء بشدّة ما زاد في التمييز الطبقي للمسيحيين، ولم يتوقّف الاضطهاد حتّى عام 313م حين تمّ الاعتراف بها علنا في "براءة ميلانو Milano" على يد "قسطنطين"، وأصبحت الدين الرسمي الوحيد على يد الإمبراطور "تيودوسيوس" سنة 380م، وتقلّصت المعتقدات القديمة، بل حُوربت الوثنية وأُغلقت معابدها، وتمتّ مطاردة اليهود، وأعطيت لرجال الدين المسيحي

امتيازات خاصة. أثرت المسيحية بوضوح على القانون الروماني وتجلّى ذلك في الكثير من البنود، كتحريم الربا والحدّ من الطلاق ومنع بيع الأطفال وممارسة بعض الألعاب العنيفة مثل المصارعة، والتخفيف من الرقيق، ثمّ أُنشئت الكنائس في كلّ ولاية تجمعها كنيسة أساسية واحدة، وفوق كلّ هذه الكنائس الأساسية للولايات الكنيسة الأمّ في روما (وما تزال إلى اليوم) (لبيب عبد الساتر، 1974، 198- 206).

5- الحياة الفكرية:

كانت بين روما وأثينا علاقات علمية شديدة، إذ أنّ المفكرين الرومانيين تلاميذُ المدارس اليونانية، وإن لم يُضيفوا لها كثيراً ماعدا قدرتهم على المقارنة بينها، والأخذ بجانبها العملي ورفض الجوانب النظرية. ولعلّ أغلب مفكري روما تأثّروا بالمدرسة الرواقية (فلسفة تدعو إلى التقشّف والزهد ومحاربة شرور العالم حتّى وإن أدّى ذلك إلى فناء النوع الإنساني)، منهم المفكّر "لوكريشيوس Lucretius" (99 - 55ق.م) الذي قام بدراسة مقارنة لعادات الشعوب القديمة (حسب ما ورد له شفوياً) واستخلص قوانين تحكمها، كقانون البقاء للأصلح، وقانون السببية "لكلّ حدث سبب"، وأبعد حركة التاريخ عن جانبها الديني، داعيـــا إلى إقامة أخلاق طبيعية تجمع بين البشر دون أن تحدّها حدود الدين.

وينتمي لهذا الاتجاه الرواقي أيضاً الخطيب ورجل القانون "شيشرون Cecero" (43 ق.م - 106)، وسينكا Senca (الرسائل) وغيرهما ممّن نادى بأسبقية السلطة السياسيّة على السلطة الدينية (عبد الحميد لطفي، 1981، 218- 220). فقد دعا شيشرون مثلا في كتابه "الجمهورية" إلى إقامة دولة كاملة بعيدة عن أسبقية امتلاك التعليم والثروة، إنّما على امتلاك قدرة العقل والحكمة والتمييز بين الصواب والخطأ، لهذا وجب على سلوكات الأفراد إزاء الدولة أن ترتكز على السعي نحو الحصول على المكافأة، لا على الجزاء والعقاب السلبيين (عبد الله محمّد عبد الرحمان، 2001، 20).

أمّا "سينكا لوقيوس" (5ق.م– 65 م) فقد ذهب إلى الدعوة للأخوّة بين بني البشر باختلاف لغاتهم وأنسابهم، ومساعدة البعض للآخر، وإن «كان ماديًّا خالصاً، يرى أنّ الروح هي الأخرى ماديّة. لكنّه في بعض الأحيان ينسى هذا الموقف الأصلي، ويتحدّث عن الصراع بين الجسم والنفس على نحو يقرب من كلام أفلاطون [...] ويرى أنّ العزلة لا تفيد، لأنّك إذا كنت لا تستطيع تغيير نفسك، فبالأحرى لا يستطيع تغييرُ المكان أن يغيّرك، وأينما ذهبت فلا مناص لك من الصراع مع نفسك» (عبد الرحمان بدوي، 1984، 84– 585).

وقد برز الرومان في فنّ العمارة فلم يتركوا بلدا إلاّ وخلّفوا فيه بصماتهم العمرانية، وشواهدهم في قرطاجة وجميلة وتيمقاد وغيرها شاهدة على ذلك، ومن أهمّ بناياتهم أيضاً بناية "الكوليزيوم".

المبحث الثالث:
الفكر الاجتماعي في الحضارة الإسلامية

تمهيد:

إذا كان تاريخ الحضارات السابقة يقوم على دعامة واحدة سواء في بُعدها الروحي الخالص الذي يُقدّس الماورائي على المادي، أو في بعدها المادي التنظيمي الذي لا يعترف بالإنسان إلاّ باعتباره أداةً للتنظيم والتنفيذ، فإنّ الحضارة الإسلامية حاولت جاهدةً أن تتموقع بينهما، فأهمّ خاصية تميّزها هي "التوازن والاتزان" أو "الوسطية" كما وصفها النصّ القرآني على أنّها "الأمّة الوسط".

1- العرب قبل الإسلام:

أ- الموقع والتاريخ:

"بلاد العرب أكبر أشباه الجزائر في العالم، ويبلغ أكبر أطوالها 1400 ميل وأكبر عروضها 1250 ميلاً، وهي من الوجهة الجيولوجية امتداد للصحراء الكبرى، وجزء من الإقليم الصحراوي الرملي يمتد إلى صحراء جوبي مخترقاً بلاد فارس" (ويل ديورنت، 1970، 4436). وتقع شبه الجزيرة العربية جنوبي غربي آسيا على مساحة تصل 30000 كم^2، يحدّها من الشرق الخليج العربي وبحر عمان، ومن الجنوب المحيط الهندي، أمّا من الغرب فالبحر الأحمر، ومن الشمال بلاد الشام وبلاد الرافدين، ، وللجزيرة العربية موقع استراتيجي كونها محور التبادلات التجاريّة بين المتوسّط والمحيط الهندي. ويُسمّى سكّانها عرقيّا "الجنس الشرقي" (معنى "عرب" قحل)، وهو جنس توسّع إلى عدّة مناطق واستعمر أخرى في الشمال ومصر وغيرهما، وكان يعيش على شكل قبائل منفصلة. ومن الناحية المناخية يسود هذه المنطقة جفاف الصحراء عموماً، مع مناطق صالحة للزراعة في الجنوب والشمال.

تأسّست قبل الإسلام في الجزيرة العربية عدّة دويلات أهمّها:

1) دويلات الجنوب:

أ- الدويلة المعينية: يعود تاريخها إلى ألف سنة قبل الميلاد، وقد وصلت في توسّعها حدود جنوب فلسطين، وعُرفت بتطوّرها من الناحية التجارية بخاصة في مدينتي "حضرموت" و"نجران"، اللتان اتخذهما عاصمة لها.

ب- الدويلة القتبانية: عاصرت الدولة الأولى، وجعلت من مدينة "عدن" مقرّاً لها، واستطاعت السيطرة على مضيق باب المندب، إلاّ أنّها اندمجت داخل دولة السبئيين فاندثرت وفقدت خصوصيتها (في القرن 2 ق.م).

ج- الدويلة السبئية: تُنسب إلى "عبد شمس بن يشحب"، الذي أُطلق عليه اسم سبأ لغاراته المتعدّدة وسبيه لمجتمعات كثيرة. وقد قدم مع قبيلته من الشمال فاستقرّوا في اليمن بجوار المعينيين، واحتلوا "مأرب" وأقاموا في "صرواح" ومدّوا نفوذهم منها لمختلف مناطق الجنوب، وقام الحكم فيها على قاعدة دينية، وعُرفوا ببناء الحصون والسدود من ذلك سدّ مأرب (القرن 7 ق.م)، وأحكموا قبضتهم على الطرق التجارية البحرية بين الهند ومصر من جهة، وبين سوريا وفلسطين إلى اليمن عبر الحجاز من جهة أخرى.

د- الدويلة الحميرية: قامت حوالي سنة 115 ق.م، سيطرت على مملكة سبأ، وطوّقت الطرق التجارية الرئيسة. تدمّر أغسطس الروماني من هذا الوضع (25 ق.م) فأرسل جيشاً لإخضاع مأرب، ففشل لكنّه بفضل الإمدادات احتل عدن وأصبحت الطرق التجارية تحت رقابة روما. في حين عبر الحميريون البحر واحتلوا الحبشة ناشرين فيها لعاداتهم وتقاليدهم بين الزنوج والأحباش.

انتشرت اليهودية بين الحميريين بعد الميلاد وتعصّبوا لها واضطهدوا المسيحيين، فاستغاث هؤلاء ببني جلدهم بالحبشة فسيطروا على ملوك الحميريين (522 م)، وتولّت الحكم أسرة حبشية تحالفت مع الروم. جرّ هذا الوضع الفرس

للتحالف مع الحميريين وطرد الأحباش وإقامة دولة فارسية (575 م) استمرّت إلى غاية الفتح الإسلامي. أقام الحاكم الحبشي كنيسة ضخمة في صنعاء، وأراد تحويل الحجّاج العرب نحوها فعزم على تهديم الكعبة، وكان ما عُرف فيما بعد بعام الفيل (570 م).

2) دويلات الشمال:

أ- الدويلة النبطية: انتقل الأنباط من وسط الجزيرة العربية (حوالي سنة 500ق.م) واستقروا بجوار الفرات، وامتدت دويلتهم إلى غاية بلاد الشام، عُرفوا بالخط الآرامي النبطي (الذي دُوّن به القرآن)، سيطروا على الطرق التجارية وحافظوا على استقلاليتهم خلال الاكتساح الروماني، إلى أن أطاح بدويلتهم الإمبراطور الروماني "ترجان"، وأقام بدلها المقاطعة العربية.

ب- الدويلة التدمرية: نهجت هذه الدويلة سياسة الحياد أمام الصراعات القائمة في المنطقة، وتمكّنت سنة 260م بقيادة "ذينة بن السميدع" قمع الفرس بسوريا وإرغام الرومان (الإمبراطور غلينوس) على الاعتراف به، وخلفته بعد وفاته زوجته "زينب" أو "زنوبيا" (الزباء)، وامتدت الدولة إلى أقصى حدودها خلال حكمها، من الفرات إلى الإسكندرية بمصر. لكن الرمان تذمّروا من الوضع فجهّزوا بقيادة "أرليانوس" جيشا أطاح ملكها وضمها لسلطتهم.

ج- دويلة الغساسنة: تمتدّ دويلتهم على مناطق من الأردن وشمال العراق إلى خليج العقبة، وبتحالفهم مع الروم شكّلوا مقاومة شديدةً أمام الفرس في المناطق الشرقية، وانضموا للدولة الإسلامية سنة 636م. أشهر ملوكهم "الحارث الخامس".

د- دويلة اللخميين (المناذرة): أسّسها في القرن الثالث الميلادي "نصر بن ربعة بن لخم"، على الفرات بالحيرة، ونتيجة تنافسها الشديد مع الغساسنة اتخذ منها الفرس درعاً واقياً لهم في العراق لصدّ الروم من الناحية الغربية، وقد حاول ملكهم "النعمان الثالث" الاستقلال عن الفرس فاستدرجه كسرى الثاني

لعاصمته المدائن وخلعه عن الملك، فثار العرب وحاربوا الفرس فهزموهم في واقعة "ذي قار" سنة 610م.

3) دويلات الوسط:

أ- دويلة الكنديّين: أصولهم من الجنوب قدموا بقيادة "حجر بن عمرو"، استوطنوا نجد واتجهوا للعراق والشام شمالاً، وعمان جنوباً، وبعد خلافاتهم مع المناذرة استولوا على الحيرة (من 505 إلى 529م).

ب- دويلة أو جمهورية "مكّة": يُشكّل موقعها نقطة عبور القوافل، بالرغم من كونها كانت مقاماً دينياً فقط، إلاّ أنّها تحوّلت إلى جمهورية تجارية بفضل تمرّس سكانها للتجارة، والذين ترأسوا هذا المقام بما أتاح لهم من مغانم كبيرة ومناصب شرفية في مقدّمتهم أكابر قريش. ويعود مجد قريش لـــ"قصيّ" الذي بنى دار الندوة قصد تجميع كبار مكّة للتشاور في شؤون المدينة (لبيب عبد الساتر، 1974، 226- 231).

أمّا ديانات العرب قبل الإسلام، فأهمّها:

أ- الوثنية: هي الديانة الأكثر انتشاراً عندهم، ولاعتقاد العربي في مظاهر الطبيعة وتأثيراتها الغيبية اتخذ لها منحوتات وغير منحوتات لاسترضائها، كما كان العرب يُتاجرون بهذه الأصنام ويعتبرون مواضعها حرماً. والأصنام قد تكون فردية، أو قبيلية مثل: "ود"، "سواع"، "يغوث"، "يعوق"، "نسر"، "هبل"، "بعل"، "جهار" وغيرها مما يزيد عن 300 صنماً، كما قد تكون عامّة تشترك في قدسيتها أغلب القبائل من ذلك: "اللات" (التي هي صخرة بيضاء مربعة الشكل ترمز للصيف وتوجد بالطائف)، "العزّى" (تتكوّن من ثلاث شجيرات بوادي النخلة وهي رمز للخصب) ، "مناة" (رمز الموت والقضاء والقدر وهي حجر أسود يقع بين مكّة ويثرب، ويعتبر أقدم الآلهة، وأقيم له معبد خاص).

ب- المسيحية: نظراً لتواجد دولتين مسيحيتين محاذيتين للعرب، الأحباش

من الجنوب والروم من الشام، فقد انتشرت هذه الديانة بينهم، واعتنقتها قبائل بأكملها مثل "بني الأسد"، "تغلب"، "تميم"، "قضاعة"، "كندة"، وتعاطفت دويلات أخرى معها مثل الغساسنة والمناذرة، وقام المبشرون بدور فعال في نشرها بالحجاز خاصة.

ج- اليهودية: لم تنتشر اليهودية انتشار المسيحية، لأنّ وصولها للجزيرة العربية لم يكن عن طريق المبشرين إنّما بقدوم الجماعات اليهودية المضطهدة في فلسطين على يد الإمبراطور "تيطس" الذي هدّم "الهيكل" بدعوة التآمر على دولته، وأقامت هذه الجالية في مناطق مختلفة بخاصة اليمن والحجاز، وعملت في التجارة والزراعة أحياناً، تأثرت بعض القبائل بهم فاعتنقت اليهودية مثل "بني نمير"، و"بني كنانة"، وملك الحميريين "ذو نؤاس" الذي تعصّب لها بشدّة.

د- الصابئة والمجوسيّة: ديانة انتقلت من بلاد فارس، تقوم على المعتقدات الفلكية، وكان انتشارها ضيقاً جدّا لدى العرب.

ب- الخصائص الحضارية:

أمّا الخصائص الحضارية المميّزة للعرب قبل الإسلام، فيكن إجمالها في:

1) الحياة الاقتصادية:

أهمّ ما يطبع ذلك:

- انتشار حياة البداوة والارتحال في مناطق الوسط للطابع الصحراوي الجاف الذي يميزها، فقد "كان خمسة أسداس السكان بدواً رحلاً، يشتغلون بالرعي وينتقلون بقطعانهم من مرعى إلى مرعى حسب فصول السنة وأمطار الشتاء." (ويل ديورنت، **1970**، **4441**)، إضافة إلى حياة الزراعة والري والاستقرار في الجنوب والشمال وتدلّ على ذلك الأراضي الزراعية الواسعة وسدّ مأرب وغيرهما.

- توسّع النشاط التجاري، نظراً لأنّ شبه الجزيرة العربية محاطة بحضارات

مطبوعة بنشاطها التجاري منذ القدم هي الأخرى من جهة، وعبور الطرق التجارية الرئيسة فوق أرضها من جهة أخرى. فعملوا باعتبارهم وسيطاً بين المتوسّط والهند، والبحر الأحمر والخليج العربي، وتحكّموا في طرق القوافل في كلّ اتجاهاتها، وأقاموا أسواقاً للتبادل التجاري والأدبي، أهمّها: سوق عكاظ، عُمان، دبي، عدن... واحتفظوا لأنفسهم بكلّ أسرار ذلك.

– بقيت الصناعة ضعيفة، لقلّة الموارد المادية عند العرب واحتقارهم للعمل الصناعي، واكتفوا بدبغ الجلود والحياكة وصقل السيوف.

2) الحياة الاجتماعية:

يميّزها ما يلي:

– بقيت القبيلة النمط المسيطر على الحياة الاجتماعية والسياسية رغم تواجد بعض الأشكال التنظيمية الأخرى، فالولاء القبلي يعلو على كلّ شيء (ويل ديورنت، 1970، 4439).

– القبيلة وحدة أسرية مكبّرة، تتكوّن من بطون، وأفخاذ، وعشائر، يترأسها شيخ القبيلة الذي تتوفّر فيه شروط السنّ، والحكمة والتجربة والشجاعة، يستعين برؤساء العشائر، ويُوكل لهم مهمّة إكرام الضيف، والحماية وحفظ النساء والاستجارة. تقوم القبيلة على العرف غير المكتوب، وترتحل جماعياً، وتقاتل جماعياً، وتتحمّل أخطاء الفرد جماعيًّا، وتتقاسم غنائمه.

– يعتزّ الفرد بعادات قبيلته ويتعصّب لها، ويفتخر بذلك، لهذا لم تستقر الدويلات لأنّ الروح القبلية طغت على الروح القومية وفتّتتها إلى أجزاء متصارعة، وصلت حدّ الخضوع للآخر "غير العربي" عداءً لجاراتها.

– للمرأة العربية مكانة مميّزة، فقد احتلت مواقع ذات شأن كالكاهنة، والعرّافة والمتنبّئة، والشاعرة والفارسة المحاربة، والسياسية البارعة. وارتبطت حركتها بالحرص على الشرف، ولأنّ العرب كثيرو التنقل خافوا من أثر هذا

البعد، فانتشرت عندهم عادة الوأد.

– انتشرت عندهم أنواع مختلفة من الألعاب التي تخفّف عنهم قساوة الطبيعة، أهمّها الصيد، وسباق الخيل، ولعب الكرة، والأرجوحة، والميسر، وتعاطي الشعر.

3) الحياة الفكرية:

– عرف العرب لهجات عدّة، لم يكن من الصعب التواصل بها فيما بينهم، فنجد لغة معين وسبأ وحمير جنوباً، والتي تتألف من 29 حرفاً، تُكتب مستقيمة (الخطّ المسند)، ويرى البعض أنّها تطوّرت عن اللغة السينائية (سيناء) المنحدرة عن الهيروغليفية المصرية القديمة. أمّا في الشمال فلم تكن لهم حروف فاستعاروا الحروف الآرامية المستديرة (النبطي النسخي)، وهي التي كتب بها القرآن والمعروفة حالياً.

– لم يرد عن أدب العرب وعلومهم في الجاهلية الأولى شيء كثير ما عدا بعض ما اكتشف من الحفريات وأغلبه مغمور تحت الرمال إلى اليوم، أمّا عن الجاهلية الثانية التي سبقت الإسلام مباشرة فأهمّ ما ورد كان شعراً، اللسان الرسمي للعرب، وعلى رأسه المعلّقات السبع.

– من خلال الحياة العامة يبدو أنّ العرب عرفوا الرياضيات والهندسة والجغرافية، والفلك، ومارسوا الطبّ مخلوطاً بالسحر، وتقدّموا في فنّ الفراسة والقيافة (اقتفاء الأثر) والريافة (اكتشاف الماء).

– أهمّ منجزاتهم العمرانية ما تبقى من بعض المدن، منها: سدّ "مأرب، "البتراء" موطن النبطيين، مدينة "تدمر" في الشام التي بنيت بالحجارة الغرانيتية المنقولة من صعيد مصر، وقصر "غمدان" أضخم قصور الجنوب (لبيب عبد الساتر، 1974، 231 – 238)، أنظر تاريخ الكعبة وعناية العرب بها قبل الإسلام في: ويل ديورنت، 1970، 4447 – 4448).

2- الحضارة الإسلامية:

أ- التأسيس والتطوّر:

ولد محمّد ﷺ سنة 571م، وهو "لفظ ... مشتق من الحمد وهو مبالغة فيه، كأنّه حمد مرّة بعد مرّة، ويمكن أن تنطبق عليه بعض فقرات في التوراة تبشّر به" (ويل ديورنت، 1970، 4450). وهو قرشي النسب من أبوين فقيرين، مات أبوه قبل وفاته، وكفله جدّه "عبد المطلب"، وبعد وفاته عادت الكفالة لعمّه "أبي طالب". اشتغل بالرعي ثمّ التجارة، وبرز منذ صغره بذكائه وفطنته وأمانته، فأوكلت له "خديجة بنت خويلد" إحدى شريفات قريش تجارتها ثمّ تزوجت به. وكان ينزع إلى الخلوة في غار "حراء" حتّى نزل عليه الوحي، وأوّل من صدّقه زوجته من النساء، ومن الرجال أبو بكر الصديق وعثمان بن عفّان، والزبير بن العوام. دعا إلى التخلّي عن عبادة الأصنام التي كانت مصدر ثروة قريش فدخل في صراع معهم وتعرّض أتباعه لأشدّ أنواع القمع والتعذيب، فأمرهم بالهجرة للحبشة، وبعد تزايد شدّة الضغط عليه ومقاطعته، أمرهم بالهجرة إلى يثرب، ثم التحق بهم سنة 622م، وحوّلها إلى مدينته وأقام فيها دولته، لهذا اتخذ المسلمون من تاريخ الهجرة معلماً زمنياً لتاريخهم في عهد عمر بن الخطاب.

حوّل محمّد ﷺ مجتمع المدينة من أسبقية الشعور القبلي إلى أولوية الانتماء الديني، وهنا يقول ديورنت :"وكان حين غادر مكة قد قطع كثيراً من صلات القرابة، فلما جاء إلى المدينة اعتزم أن يستبدل بصلات الدم صلات الأخوة الدينية في الدولة الجديدة، كما أراد أن يقضي عل أسباب الغيرة بين المهاجرين الذين جاءوا من مكة والأنصار الذين أسلموا من أهل المدينة... فآخى بين كلّ واحد من إحدى الطائفتين" (ويل ديورنت، 1970، 4461)، مع ضمان حرية الاعتقاد وتشريع القوانين وفقاً للدستور الأوّل المتمثّل في الصحيفة القرآنية، وتوسيع رقعة دولته بالإقناع في البداية ثمّ القتال بعد ذلك حسب الظروف المتاحة، وأهمّ المعارك الفاصلة في حياته غزوة "بدر" سنة 2 هـ/ 624 م ثمّ فتح

مكة سنة 8 هـ/630 م. وبإزالة مظاهر الديانة الوثنية والتفاف القبائل حول الديانة الإسلامية، انطلقت مرحلة التفاوض مع الدول الكبرى.

تقوم الديانة الإسلامية على: وحدانية الإله، الإيمان بالرسل وأنّ آخرهم محمّد ﷺ، الاعتراف بالكتب السماوية محرّفة عدا القرآن، الإيمان بالملائكة واليوم الآخر والحساب والعقاب. أمّا أركانه فخمسة: الشهادتان، وإقامة الصلاة، وصوم رمضان، والزكاة، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً.

"وإذا ما حكمنا على العظمة بما كان للعظيم من أثر في الناس، قلنا: إنّمحمداً كان من أعظم عظماء التاريخ، فقد أخذ على نفسه أن يرفع المستوى الروحي والأخلاقي لشعب ألقت به في دياجير الهمجية حرارة الجو وجدب الصحراء، وقد نجح في تحقيق هذا الغرض نجاحاً لم يدانه فيه أي مصلح آخر في التاريخ كلّه، وقلّ أن نجد إنساناً غيره حقّق كل ما كان يحلم به. وقد وصل إلى ما كان يبتغيه عن طريق الدين، ولم يكن ذلك لأنه هو نفسه كان شديد التمسك بالدين وكفى، بل لأنه لم يكن ثمة قوة غير قوة الدين تدفع العرب في أيّامه إلى سلوك ذلك الطريق الذي سلكوه، ... وقد كبح جماح التعصّب والخرافات، وأقام فوق اليهودية والمسيحية، ودين بلاده القديم، ديناً سهلاً واضحاً قوياً، وصرحاً خلقياً قوامه البسالة والعزة القومية. واستطاع في جيل واحد أن ينتصر في مائة معركة، وفي قرن واحد أن ينشئ دولة عظيمة، وأن يبقى إلى يومنا هذا قوة ذات خطر عظيم في نصف العالم" (ويل ديورنت، 1970، 4476).

مرّت الدولة الإسلامية بمراحل عدّة أهمّها:

أ- مرحلة التأسيس المحمّدي: انطلقت من ترسيخ الأفكار التوجيهية في مكّة، ثمّ وضع أسس الدولة في المدينة بتشريعاتها وهيكلتها الأولى، ولعلّ قواعد تركيب هذه الدولة تتمثّل في الأساس التشريعي من النصّ الديني الأوّل، أولوية الانتماء الديني وتجاوز فواصل العرق والجنس، الشورى في الحكم، تكريم

الإنسان، الوحدة المشتركة، توسيع تعاليم الدين بالطرق الحوارية والجهادية، احترام حرية الدين...

ب- العهد الراشدي: (يمتدّ من 632م إلى 661م) حكمها الخلفاء الراشدون الأربع: أبو بكر الصديق، عمر بن الخطاب، عثمان بن عفان، عليّ بن أبي طالب، هزمت خلالها الجيوشُ الإسلامية الرومَ في معركة اليرموك (636م)، والفرسَ في القاديسية (638م)، وامتدت رقعة الدولة على الجزيرة العربية والشام والعراق وفارس ومصر وإفريقيا إلى غاية طرابلس، وأرمينيا وأواسط آسيا (نهر جيحون).

ج- العهد الأموي: (من 661م إلى 750م) حكم الدولة الأموية أربعة عشر (14) خليفة، أهمّهم معاوية بن أبي سفيان مُؤسّسها، وعبد الملك بن مروان معرّبها، والوليد وسليمان اللذان وسّعاها إلى غاية دولة "تركستان" وبلاد "السند" شرقاً والأندلس غرباً والقسطنطينية شمالاً إضافة إلى جزر "قبرص" و"رودس".

د- العهد العبّاسي: (من 750 إلى 1258 م)، وقد حكم الدولة العبّاسية سبعة وثلاثون (37) خليفة، أشهرهم أبو جعفر المنصور الخليفة الثاني، وهارون الرشيد وابنه المأمون اللذان أوصلا الدولة إلى أوجّ مجدها، واتجهت بداية من المتوكّل (الخليفة العاشر) نحو الضعف متذبذبة بين النفوذ الفارسي والتركي، وظهرت الدويلات في الأمصار. ثمّ زحف المغول على بغداد سنة 1258 م برئاسة "هولاكو" فقضى على الدولة الإسلامية، لكنّ الأندلس استمرت في ممارسة دورها القيادي حتّى غرناطة سنة 1492م. بذلك زالت الحضارة العربية الإسلامية.

ب- الخصائص الحضارية:

الخصائص المميّزة للحضارة الإسلامية تتمثّل في:

1) النظام السياسي والإداري:

"الخلافة" قيادة دينية ودنيوية، يُشترط فيها التقوى والعلم، ويصرّ البعض على الأصل القرشي أيضاً، وقد مرّت بالمراحل التالية:

– في الفترة الراشدة: تمّت بالمبايعة القريبة للنمط الانتخابي، وللخلافة السلطةَ المطلقة، لا يحدّها غير الضابط الشرعي والإجماع العام. وعلى الخليفة أو الحاكم أن يخطب حين توليه السلطة مبيّناً سياسته العامة ومطالباً من الشعب ردّه إن خالف التعاليم الدينية. أمّا عن النظام الإداري فقد اختلف عن عهد الرسول لاتساع الدولة، فقد استحدث "عمر بن الخطاب" تنظيمات للعاصمة وللأمصار، فأنشأ دواوين بالعاصمة لضبط الموارد هي: ديوان الجند (وضع القوائم ودفع الأجور)، ديوان الخراج والجباية (تقييد موارد بيت المال)، ديوان الرسائل (الصادر والوارد الداخلي والخارجي). كما كان الخلفاء يستعينون بكاتب أشبه بالوزير يُختار ممّن يحسن الخطّ. تتمثّل مصادر خزينة الدولة (أو بيت مال المسلمين) في: الخراج (يُفرض على الفلاح ولا يسقط بالإسلام)، الجزية (تُفرض على غير المسلم، ويُستثنى الفقراء وذوو الحاجات والرهبان والأولاد والشيوخ، وتسقط بالإسلام)، العشور (عشر حمولة السفن التجارية)، الزكاة، غنائم الحرب. ولم تتغيّر هذه المصادر في الفترات اللاحقة كثيراً مع تعديلات في حجمها وطريقة جبيها.

– في الفترة الأموية: اقتربت من النمط "الملكي" بتصريح معاوية "أنا أوّل الملوك"، وظهرت سمات جديدة لخليفة للدولة: اتخاذ عرش للملك ولباس خاص به، مقصورة خاصة به في المسجد لحجبه عن الشعب، الجلوس أثناء الخطبة، تخصيص حرس لحمايته، فخم القصر، توريث الحكم بعيداً عن الشورية أو الانتخاب. تعقّدت الحياة الإدارية ما استلزم تنظيمات مختلفة، ففي العاصمة (دمشق) استحدثت دواوين: الخراج (تنظيم الجباية)، الرسائل (الصادر والوارد)، الإيرادات المتنوعة، الخاتم (نسخ أوامر الحاكم وختمها)، الطراز (طرز

علامات مميّزة في لباس الولاة)، وقد عُرّبت الدواوين في عهد عبد الملك وتطوّرت بعد ما كانت فارسية ويونانية ما قلّص من نفوذ الموالي، كما تعدّد الكُتّاب إلى خمسة: كاتب الرسائل، كاتب الخراج، كاتب الجند، كاتب الشرطة، كاتب القاضي. إضافة للحاجب الذي يتكفّل بإدخال أفراد الشعب للحاكم، وتقدّم أيضاً نظام البريد في هذه الفترة. أمّا الأمصار فقد قُسّمت إلى خمس إمارات كبرى، على رأسهم والي، يعيّنه الخليفة شخصياً من العرب دون غيرهم، ويعتبر الحاكم الأعلى في إمارته يؤمّ الصلاة، ويرأس الحرب، ويقود الشرطة، أمّا الجباية فلها موظّف خاص.

– في الفترة العباسية: تأثّر بالنمط الفارسي، فالخليفة لا يخاطب الشعب إلاّ من وراء حجاب، له وزراء وسيّاف، يُحاط بهالة من القداسة، حكمه تفويض إلهي يورثونه لمن يشاؤون، لقّب بـــ "الإمام"، وارتدى بردة الرسول تعبيراً عن رمزية الاستخلاف، مطلق التصرّف في الحكم غالب الحالات. أُدخلت تعديلات جذرية في النظام الإداري المركزي وملحقاته تأثراً بالفرس، ففي العاصمة (بغداد) أُنشئت الوزارة لأوّل مرّة تقلّدها "أبو سلمة الخلاّل" في عهد "السفاح"، وسُمـــّيت حكومة الخليفة "ديوان العزيز"، وهي تضمّ رؤساء الدواوين الذين يلقبون أحياناً بالوزراء. وتزايد دور الوزراء في فترة الانحطاط للتفويضات الموكلة لهم واستغلالها لتوسيع نفوذهم ومكاسبهم. توسّعت الدواوين إلى: الديّة، الجند، الموالي والغلمان، البريد، المظالم، الشرطة، العطاء، الخراج، الرسائل... وأُبقي على منصب "الكاتب" الذي يتولّى ديوان الرسائل ويُعيّن غالباً من رجالات الفكر والأدب ليتدرّج بعد ذلك لدرجة "الوزير الأوّل". أمّا بالنسبة للحاجب فيبدو أنّه استغل مكانته في فترة الانحطاط للتدخل في شؤون الدولة. واعتنت الدولة بالبريد خاصة عن طريق الحمام الزاجل وكانت الأخبار تصل يومياً للعاصمة. أمّا في الأقاليم فقد كان النظام مركزياً مع تحديد الصلاحيات وتعيين القائمين بها من أفراد الشعب العاديين عكس ما قام به

الأمويون مع تغييرات مستمرّة، وانحصر عمل الوالي في الصلاة، في حين زاد نفوذ رؤساء الدواوين، واستغلّ الحاكم ذلك لضرب بعضهم ضد بعض والتجسّس عليهم. واختار أغلب الولاة فترة الضعف لقضاء أوقاتهم في العاصمة وتعيين من يتولّى مكانهم، ما دفع بهم للتمرّد، وظهور دويلات كثيرة بالتبع.

2) النظام القضائي والحربي:

كان محمّد ﷺ في بداية دولته الحاكم والقاضي في الآن نفسه، يحكم وفق الوحي وقواعد أصولية عامة يمكن تجميعها في ثلاث: البيّنة على من ادّعى، واليمين على من أنكر، وشهادة الشهود، لكنّ توسّع الدولة اقتضى ضرورات تنظيمية أكثر لضمان سير القضاء، تطوّرت كما يلي:

– في فترة الخلفاء الراشدين: سار الخلفاء بمنهج الرسول، وعيّن "أبو بكر" على القضاء "عمر بن الخطاب" لكنّه بقي عامين دون عمل لخوف المجتمع من صرامته، وفي عهد "عمر" عيّن أفراداً سمّاهم "قضاة" ووزعهم على المدن والأمصار للفصل في الخلافات، كان مقرّ عملهم في المترل، ثم انتقل إلى المسجد ثمّ وَضع لهم دستوراً خاصّاً. ولم تكن مداولاتهم تُسجّل بل تنفذ فورياً، واستحدث "علي بن أبي طالب" مؤسّسة السجن لأوّل مرّة في الإسلام لمعاقبة الانحراف.

– في فترة الأمويين: طبع القضاء في هذا العهد باجتهاد القضاة في إطار النصّ القرآني والحديثي من جهة، والاستقلالية عن السياسة بتطبيق الأحكام حتّى على الولاة وعمال الخراج من جهة أخرى. وتمّ اختيار القضاة من رجالات العلم والعدل وخُصّص لهم راتب محترم، وحتّمت الظروف ضرورة تدوين أحكامهم منعاً لكلّ تملّص.

– في الفترة العباسية: ما يميّز القضاء بها: ضعفُ الاجتهاد والاقتصار على المذاهب الفقهية الأربع الأساسية، الخلط بين القضاء والسياسة بتدخّل الحكّام

فيه، إنشاء منصب "قاضي القضاة" الشبيه بوزير العدل وهو الذي يُعيّن قضاء الأقاليم، توسّع سلطة القاضي وتبعية الشرطة والحسبة والمظالم له، وتعيين أوصياء الأوقاف ومشرفيها.

أمّا المؤسّسات التابعة للنظام القضائي في الإسلام فهي:

أ- ديوان المظالم (محكمة الاستئناف اليوم): أنشأه عبد الملك بن مروان، ويتمثّل في سماع الحاكم مباشرة أو من ينوبه للمظالم المُقدّمة ضدّ القضاة والولاّة من قبل الشعب وهي تُعقد علناً في المسجد، وقد قعد لها من بني أميّة عبد الملك بن مروان، عمر بن عبد العزيز، ومن العباسيين المهدي، الهادي والرشيد والمأمون والمهتدي.

ب- الحسبة: قام بها الرسول بنفسه، ثم أُوكلت لمجموعة من الأفراد الأحرار الصارمين في دينهم، مهمّتهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، مراقبة الصلاة والصوم، ومنع الغشّ في الأسواق، وخُصّصت لها دار تتكفّل بمراقبة المكاييل.

د- الشرطة: هيئة أقامها "عمر بن الخطاب"، وهي أفراد من الجندية، مهمّتهم حفظ الأمن وإلقاء القبض على المنحرفين، وتكفّل "علي بن أبي طالب" بتنظيمها الدقيق بوضع رئيس لها "صاحب الشرطة". بدأت باعتبارها امتداداً لهيئة القضاء، ثمّ انفصلت عنها وأصبحت مستقلة في العهد الأموي، وانقسمت في بلاد الأندلس إلى شرطة كبرى خاصة بذوي النفوذ، وشرطة صغرى للعامّة، وتعطّل عملها كثيراً في العهد العباسي لتدخلات ذوي النفوذ في عملها.

أمّا نظام الجندية، فقد كانت عملية الجهاد تلقائية، لكنّ توسّع المدن وتزايد الكثافة المادية للأفراد جعلت "عمر بن الخطاب" يقيم ديواناً للجند، ويضمن مقابلاً لأسر المحاربين جزاء انصرافهم للقتال، ويُقيم لهم لأوّل مرّة معسكرات وحصون. لاحظ "عبد الملك بن مروان" امتناع المسلمين عن القتال ففرض نظام التجنيد الإجباري على العرب فقط، ثمّ طوّر العبّاسيون هذا النظام

لضرورات داخلية وخارجية، وقسّموه إلى: جنود نظاميون مأجورون، وجنود متطوّعون من الشعب تدفعهم الروح الدينية للقتال، وخصّص المنصور لباساً موحداً خاصّاً للجنود رمادي اللون، وأقام لهم الاستعراضات الشعبية. كما استحدث العباسيون نظام الجوسسة وبثّوا أطباء ونساء وتجّاراً وغيرهم في بلاد أعدائهم.

أُسندت قيادة الجيش لشخصيات من الطراز العالي أمثال "خالد بن الوليد"، "عمرو بن العاص"، "أبو عبيدة الجراح"، "سعد بن أبي وقاص". وتطوّرت تقنيات تنظيم الجيوش والقتال عمّا كانت عليه في العهد الجاهلي، واقتصرت البنية العرقية للجيش على العرب في البداية، ثمّ استعان الأمويون بالبربر لفتح الأندلس، وفي العهد العباسي سيطر العنصر الفارسي الخراساني، وفي حكم المعتصم زحف العنصر التركي على الجيش وأبعد الفرس والعرب. واستعملت أسلحة متعدّدة أمثال: الدروع والسيوف والحراب والرماح والسهام ثمّ المنجنيق والدبابة الخشبية. وأولى المسلمون بعد ذلك للبحرية أهمية كبرى انطلقت من معركة "ذات الصواري" التي غلب فيها الروم، وتوسّعت إلى مختلف المناطق الساحلية، وإن كان العباسيون أنقصوا من قيمتها وشكّكوا في ولاء سكان الساحل.

3) النظام الاجتماعي:

تشكّل المجتمع الإسلامي في عهده الأول من فئات اجتماعية مختلفة أهمّها:

- رجال الدولة والموظفون: من القضاة والولاة، لهم مناصب عليا وامتيازات مالية كثيرة.
- العلماء والأدباء: مقربون من السلطة لهم نفوذهم، ومكانة اجتماعية مرموقة.
- رجال الأعمال: أصحاب أملاك صناعية وتجارية، يظهرون في لباسهم وطرق العيش وفقاً لدرجة الثراء.

– العامة: وهي أكثرية المجتمع من الفلاّحين والرعايا.
– الخدم: يتكوّنون في العموم من الرقيق.

أمّا من الناحية العرقية الدينية فنجد: المسلمون العرب الذين استعلوا على غيرهم بخاصة في العهد الأموي، المسلمون من غير العرب ولقّبوا بـــ "الموالي"، ثاروا على العرب ووقفوا مع الحركة العباسية فاحتلّوا المناصب وأبعدوا العرق العربي، أهل الذمّة من اليهود والنصارى ممّن حافظوا على عهودهم مع السلطة نظراً للحرية الدينية التي وجدوها، كما احتلوا مناصب عدّة في الدولة.

اعتبر الإسلام الأسرةَ الخلية الرئيسة للمجتمع، لذا حدّد حقوق كلّ فرد فيها، فحقّ الرجل: القوامة، التعدّد، جواز الطلاق، معاملة الزوجة والأبناء بالحسنى. وحقّ المرأة: المهر والنفقة، الاحترام وحق التصرّف في مالها، والطلاق إن رغبت، المساواة في الواجبات، الوفاء والإخلاص للزوج. وحقّ الطفل: التربية الحسنة، وحقّ الوالدين :الإحسان بالمعروف.

لم يحرّم الإسلام الرقّ لكنّه ضيق منه كثيراً، وانتشرت تجارته بشكل مفرط في العهد العباسي، حتّى ثار العبيد مطالبين بتحسين وضعهم، واستطاعوا التسرّب إلى البلاط وإقامة دولة "المماليك".

4) النظام الاقتصادي:

توسُّع الدولة الإسلامية أتاح لها بسط نفوذها على مناطق جدّ خصبة وغنية بالمواد الطبيعية ومجتمعات عريقة في صناعتها، كـــ "النيل" و"الفرات" و"الأندلس" وغيرها.

ففي مجال الزراعة، أعاد المسلمون ما حطّمه الفرس في مناطق مختلفة، وعملوا على إصلاح وسائل الري ببناء السدود وشقّ القنوات وإقامة الجسور، فأوصلوا مياه الفرات للجزيرة العربية، والدجلة لبلاد فارس، ووضعوا تشريعات دقيقة لقياس المياه وديوان خاص يشرف على العاملين في هذا المجال

يسمّى "ديوان الماء". واعتنوا بالتربة فأصلحوها بالأسمدة العضوية، وأتقنوا فنّ التلقيح والتطعيم وجلبوا القطن والبرتقال، وتنوعت محاصيلهم حسب المناخ من قمح وذرة وأرز وكرمة وبطيخ وغيرها.

وفي مجال الصناعة صنّعوا ما زودهم به الزراعة من مواد أولية بخاصة القطن، إضافة إلى المعادن كالحديد والنحاس والذهب والفضّة، ومن البحار استخرجوا الماس والأسماك، ومن الغاب الخشب ومن المراعي لحوم المواشي وأصوافها. فاشتهرت المنسوجات الفارسية والشامية والمصرية، والسيوف الدمشقية، وزجاج بغداد بزخرفه، وعطور فارس والعراق، والورق السمرقندي وآلات حرّان. وانضموا في مجموعات حرفية أشبه بالنقابات، وتنظّموا في درجات مختلفة من "الأسطة" (شيخ المهنة) إلى المساعد إلى الصبي.

عرف العرب قبل الإسلام التجارة وتمرّسوا عليها برّا وبحراً، وبعد الفتوحات نشطوا على مستوى الطرق الدولية، فبلغوا الهند والصين والفلبين شرقاً، وبلاد الإفرنج بأوروبا غرباً، والسواحل الإفريقية جنوباً وبلاد الروس وفنلندا شمالاً. وغدت بعض المدن الإسلامية مراكز تجارية تقرّر أسعار السلع عالمياً كبغداد والإسكندرية والقاهرة وبخارى وأصفهان وبيروت وسمرقند... لهذا ابتكر المسلمون نظماً تجارية عدّة كالاتحادات التجارية، والحوالات والشيكات، ووثائق الشحن والإيصالات، وأنشؤوا نقابة لمراقبة المعاملات التجارية، يُسيّرها "شيخ التجّار" المنتخب ويساعده مجموع "أمناء". وقد أثر ذلك في تطوير علوم الملاحة والجغرافية والتاريخ والحساب... (ويل ديورنت، **1970**، **4536–4545**)

5) الحياة العلمية:

امتداد رقعة الحضارة الإسلامية واحتكاكها بحضارات مختلفة ذات عمق تاريخي ومعرفي جعلها تنطلق بشكل سريع على المستوى العلمي، خاصة أنّ هذا الدين يدعو لطلب العلم بل ويجعله واجباً. المؤسّسة التعليمية مجّانية توجد داخل المسجد أو بجواره أو محادية لبئر أو شجرة، تبدأ في سنّ السادسة لعامة الشعب

في المرحلة الابتدائية، لكنّ أبناء الطبقة العليا اقتصادياً وسياسياً يتلقى أبناؤها تعليما خاصاً يقدّمه مدرّس خصوصي. ويتعلّم الطفل مبادئ الصلاة وحفظ القرآن والأحكام الأساسية لدينه، وفي المستوى الثانوي يتعمّق في علوم التفسير والحديث والفقه والشريعة، إضافة لعلوم اللغة والرياضيات.

وإذا أراد مواصلة تعليمه الجامعي عليه قصد إحدى المراكز العلمية في العواصم الكبرى كبغداد، ودمشق، والقاهرة، وقرطبة... لأخذ المعرفة من أحد كبار المفكرين. أمّا عن المكتبات فينذر وجود مسجد دون مكتبة زاخرة بالمخطوطات إضافةً للمكتبات الخاصة التي كان يتسابق على إيجادها الأثرياء ويضعونها في خدمة طلبة العلم، ويروى عن ستّ وثلاثين (36) مكتبة عامة في بغداد (في القرن الثالث عشر)، وكان المأمون يدفع وزن الكتاب ذهباً لمن يعطيه كتاباً جديداً، بذلك تطوّرت صناعة الورق (زغريد هونكة، 1986، 298-306).

يمكن إجمال أهمّ العلوم التي عرفها المسلمون في:

- علوم اللغة: للحفاظ على القرآن وفهمه تطوّر علم النحو بداية من واضعه "أبو الأسود الدؤلي"، وقد اكتملت معالمه في العصر العباسي مُنقسماً إلى مدرسة البصرة (أبو الأسود الدؤلي، نصر بن عاصم، الخليل بن أحمد، سبويه، المازني...) ومدرسة الكوفة (الرؤاسي، الكسائي...) بذلك تقدّمت اللغة العربية وأخذت مكانتها العالمية.

- الفقه: وهو دراسة الأحكام وفق الكتاب والسنّة، ومرّ بمراحل هي: فترة التشريع مع الرسول معتمداً على الوحي، مرحلة الشباب مع الخلفاء الراشدين وما فرضته ضرورات الحياة، مرحلة النضج والكمال من القرن الثاني إلى الرابع الهجري بتأسيس المذاهب الفقهية وتدوين الفقه، مرحلة التقليد باتّباع المذاهب المتعارف عليها شرحاً واختصاراً وتحشيةً.

- الأدب: وأبرز صنوفه الخطابة التي تمثل اللسان الرسمي للسلطة

السياسية والدينية في الصلوات والحروب والاضطرابات، أبرز الخطب خطبة "أبي بكر الصديق"، وخطب "علي بن أبي طالب"، وإن تحوّلت في فترات الترف من الحماسة إلى الوعظ والشكايات، كما عرفت تطوّرات مختلفة في الأندلس. أمّا الشعر فقد خفّت حدّته في العهد الأوّل ثمّ أعاد الكرّة مع الأمويين موجّهين إياه للسياسة بالإغداق على الشعراء، فبرز ثالوث "الأخطل"، "جرير" و"الفرزدق"، إضافة إلى مدرسة الحجاز الغزلية مع "عمر بن أبي ربيعة" الإباحي و"جميل بثينة" العذري، وجمع في هذه المرحلة أيضاً الشعر الجاهلي.

وفي العصر العباسي أُهمل الشعراء فالتجؤوا للعلويين، ما جعلهم يسترضونهم مرّة أخرى فتطوّر بشكل قويّ، وقائمة الشعراء طويلة هنا: "بشار بن برد"، "أبو نواس"، "أبو العتاهية"، "المتنبي"، "أبو فراس"، "أبو العلاء المعري"... وللشعر الأندلسي خصوصيته التجديدية والتحررية مع "الأزجال" و"الموشّح"، ومن أبرز شعراء الأندلس: "ابن عبد ربّه"، "ابن حزم"، "ابن الخطيب"، "ابن زيدون"، "ابن خفاجة"، "أبو بكر بن قرمان" القرطبي الزجّال، "أبو العباس التطيلي" الوشّاح.

وكان الأدب يقتصر على الرسائل المختصرة جدّا كرسائل "عمر بن الخطاب" لولاته، ثم تأثّر فنّ الرسالة بالفرس فأصبحت صناعة متقنة، بدأت مع "عبد الحميد الكاتب"، وحذا حذوه من جاء بعده مثل "يحي البرمكي"، "الفضل بن سهل"، "ابن العميد"، "عماد الدين الكاتب"... إضافة إلى تأليف الكتب تأثّرا أيضا بالفرس في مؤلّفات "ابن المقفع" (كليلة ودمنة)، ثمّ "الجاحظ"، "ابن قتيبة"، "ابن عبد ربه" و"أبو فرج الأصفهاني" وظهر بعد ذلك فنّ المقامات مع "بديع الزمان الهمذاني" ثم "الحريري".

– الفلسفة: اطّلع المسلمون على الأفلاطونية والأرسطية وحاولوا التوفيق بينها وبين الإسلام، فظهرت المعتزلة التي أثارت موضوع خلق القرآن، وتبنّت السلطة هذا الاتجاه بداية من عهد "المنصور" إلى غاية "الواثق" (بعد "المعتصم")،

وأصبحت مذهبها ومن أشهر من كتب في الموضوع "أبو يوسف بن إسحاق الكندي". لكن "المتوكّل" (848 م) ونتيجة اعتماده على الأتراك حقد على الفرس وطارد المعتزلة وقال بأزلية القرآن وعدم خلقه، وظهرت مجموعة من العلماء "المتكلّمين" الذين دعوا إلى تحكيم العقل والمنطق على رأسهم "أبو الحسن الأشعري" مؤمنا بالجبرية، فخمدت الفلسفة في بغداد والتهبت في أماكن أخرى، وكتب "الفارابي" تسعة وثلاثين (39) كتاباً في الفلسفة أشهرها "المدينة الفاضلة" وظهرت جماعة سريّة لقّبت نفسها "إخوان الصفا" (973 م) تدعو للتجديد من خلال المزج بين الفلسفة اليونانية المسيحية والتصوّف الإسلامي في واحد وخمسين (51) رسالة أثّرت في "الغزالي" و"ابن رشد" و"المعري" و"ابن سينا" (في "الشفاء" و"النجاة")، الذي يعتبر آخر الفلاسفة بالمشرق، لملاحقة السلاجقة بعد ذلك لكلّ ذي رأي جريء، إنّما واصلت الفلسفة مسيرتها في الأندلس مع "ابن باجة"، و"ابن رشد"، و"ابن طفيل" وبخاصة "ابن رشد" الذي نقل الفلسفة للفكر الأوروبي في القرون الوسطى. كما كانت للصوفية مكانتها في الموضوع باعتبارها مزيجاً بين الهندوسية والمسيحية والأفلاطونية المحدثة وأشهر روادها: "أبو يزيد"، "الحلاّج"، "رابعة العدوية"، "أبو سعيد بن أبي الخير"، "الغزالي"، "ابن عربي"... (لبيب عبد الساتر، 1974، 240– 288).

بدأت حركة العلوم بترجمة أعمال الحضارات الأخرى بخاصة الفرس واليونان (ومن أبرز هؤلاء المترجمين حنين بن إسحاق)، وشكّلت "بيت الحكمة" (عام 830 م) ببغداد عهد المأمون منارة كبرى (تضمّ مجمعاً علمياً، ومرصداً فلكياً، ومكتبةً عامة)، وبعد تزايد النفوذ التركي تفرّق العلماء وأنشؤوا أقطاباً أخرى كحلب، ودمشق، والقاهرة، وفاس، وقرطبة، وطليطلة وغيرها. ومن أبرز العلوم التي أتقنها المسلمون:

– الطبّ: كان في عهد الرسول ﷺ بسيطاً ثمّ تطوّر بشكل كبير فعرف المسلمون أمراضاً مختلفة وعلاجاتها كأمراض العيون والأطفال وتوقيف النزيف

والحصى والتخدير والعمليات الجراحية وجراحة المخ، وأنشؤوا المستشفيات ومخازن الدواء (الصيدليات)، وأقاموا رقابة شديدة على التطبيب فلا يُسمح به إلا لحاملي شهادات معيّنة، أهمّ الأسماء البارزة في هذا العلم: "علي بن عيسى" (مختص في طبّ العيون)، "أبو بكر محمد الرازي" (طبيب الأطفال)، "ابن سينا" (صاحب كتاب القانون)، "حنّا بن ماسويه" (علم التشريح)، "سابور بن سهل" (علم الأدوية)، "أبو القاسم الزهراوي الأندلسي" (انظر إنجازات الأطبّاء المسلمين ومستشفياتهم: زغريد هونكة، 1986، 140-208).

– الكيمياء: وكان ذلك باكتشاف المسلمين للكحول والحامض الكبريتي، وماء الفضّة، والبوتاس، والزرنيخ، وملح البارود وغيرها، أشهر رواده: "جابر بن حيان"، و"الرازي".

– الفيزياء: توصّل المسلمون لاكتشاف علم البصريات، وأنواع الأحجار الكريمة، وحركة الماء، ووزن الهواء، وبرز في الموضوع: "أبو الريحان البيروني"، "الحسن بن الهيثم"، "الخازن المصري" (1078م).

– الرياضيات: إضافة إلى الإرث الذي أخذوه عن اليونان في الحساب، فقد استحدثوا اكتشافات علمية جمّة، فقد استعاروا عن الهند السلسلة الرقمية وهي المستعملة اليوم في الكثير من الدول العربية، وأنشؤوا السلسلة الثانية المتمثلة في الأرقام الغبارية التي سادت الشمال الإفريقي والأندلس فتسرّبت إلى أوروبا ويُطلق عليها اليوم "الأرقام العربية"، واخترعوا الصفر ورمزوا له بنقطة، وتعاملوا مع الإحصاء العشري والكسر العشري وجمعها، بخاصة مع العالم "غياث الدين جمشيد الكاشي"، وقسّموا النسب إلى عددية وهندسية وتأليفية، بالإضافة إلى المتواليات الحسابية والهندسية. وأهمّ مؤلفاتهم في الموضوع كتاب "الحساب" لـــ "محمّد بن موسى الخوارزمي".

ويعود الفضل لنفس المؤلف في إرساء علم الجبر في مؤلّفه "كتاب الجبر والمقابلة"، فقد عرفوا المعادلات وحسابها بما في ذلك معادلات الدرجة الثانية

والثالثة، وأرسوا الأبجديات الأولى لعلم "اللوغارتميات" مع "سنان بن الفتح الحرّاني" في كتاب "الجمع والتفريق" و"ابن حمزة" في "المتواليات".

وفي الهندسة ترجموا مؤلّفات عدّة عن اليونان وقسّموها إلى عقلية وحسّية، واهتمّوا بالتحليل الهندسي والمساحات، وأبرز رموزها "ابن الهيثم"، و"محمّد البغدادي"، و"البيروني"، و"الطوسي". وفي علم الفلك أبدعوا واهتموا بمن قبلهم خاصة اليونان والكلدان والسريان والفرس والهنود، وينبع هذا الاهتمام من منطلقات دينية تدور حول معرفة مواقيت الصلاة والصوم، فترصّدوا الكواكب وحركة الأجرام والخسوف والكسوف، وسمّوا كلّ ذلك "علم التنجيم"، وبرز فيه "ثابت بن قرّة"، و"البتّاني"، و"قسطا بن لوقا البعلبكي"، و"الطوسي"، و"ابن يونس" و"البيروني" و"أبو الوفاء"... ودُرّس في جامعات دمشق وسمرقند وبغداد وفارس وطليطلة وقرطبة والقاهرة، وتوصّلوا لاكتشافات عدّة منها: حركة الكواكب، ودوران الأرض، ومحيطها، وخطوط الطول والعرض، واخترعوا التلسكوب، وحسّنوا الأسطرلاب والمثقال وغيرها (ويل ديورنت، **1970**، **4610-4615**).

– العلوم الاجتماعية: سجّل المسلمون انتصاراتهم ومعاركهم، فأبدعوا في كتابة التاريخ بداية بتدوين السيرة النبوية وأخبار الفتوحات والخلفاء الراشدين، واعتمدوا الرواية بالسند كما فعل "الطبري" و"الحافظ بن كثير"، ثمّ اكتفوا بالسرد دون الرواية مع "ابن الأثير" و"أبو الفداء"، وبتوسّع الحضارة الإسلامية والاحتكاك بالأمم الأخرى برزت ظاهرة التخصّص سواء في مرحلة معينة أو مدينة أو حضارة محدّدة أو طبقات معيّنة، من أشهر السير "سيرة ابن هشام" لـ "محمّد بن إسحاق"، و"المقريزي" عن دولة مصر، و"أبو بكر الخطيب البغدادي" في "التاريخ الجامع لمدينة بغداد"، وابن كثير في "تاريخ دمشق"، وفي التاريخ العام برز "الطبري" و"المسعودي" و"ابن مسكويه" و"ابن خلدون".

وصحّحوا ما أخذوه في الجغرافيا من سابقيهم وأضافوا له ونقلوه للغرب،

وما أهّلهم لذلك اتساع رقعة حضارهم، ومن الرحّالة المشهورين الذين سجّلوا ملاحظاهم التاجر "سليمان"، و"المسعودي" في "مروج الذهب ومعادن الجوهر"، و"ابن بطوطة" أيضاً. ويزخر كتاب "الشريف الإدريسي" "نزهة المشتاق في ذكر الأمصار والأقطار والبلدان والجزر والمدائن والآفاق" بأربعين خريطة مصوّرة، و"ياقوت الحموي" في "معجم البلدان" بثراء لا مثيل له، و"الأصطخري" في "مسالك الممالك" بخرائط ملوّنة، و"المقدسي" في "أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم" بتفاصيل رحلته التي دامت عشرين عاماً.

وفي الاجتماع اشتغل المسلمون بالمادة الأنثروبولوجية للشعوب التي زاروها من حيث عاداها وتقاليدها وممارساها الطقوسية، بالإضافة للرحّالة أمثال "ابن حوقل" و"البيروني" و"ابن بطوطة" و"المقريزي" وغيرهم، اشتهر ابن خلدون بمقدمته عن أحوال الأمم وأسباب ظهور الحضارات وسقوطها وسمّى ذلك بـــ "علم العمران البشري".

– العمارة: نقل المسلمون فنون العمارة من حضارات عدّة، وعدّلوها بما يتّفق مع معتقداهم الدينية وطبيعة مدهم، وقد تجلّت في مناحٍ مختلفة. أغلب قصور العرب زالت لهشاشة المادّة المصنوعة منها والمتمثّلة في الطين، عدا بعضا منها كقصر "عمر الأموي" في الأردن، وقصر "إشبيلية"، وقصر "الحمراء" في غرناطة، وكانت المساكن مستطيلة بها فناء مكشوف، وأجنحة خاصة بالنساء. بخلاف المساجد التي صمدت أمام التغيّرات ممّا يعكس رقيّ الفنّ الإسلامي، وهي غالبا ما تقع بجوار الأسواق لتسهيل عملية الوصول إليها خلال فترة الصلاة، وتمتاز ببساطة شكلها الخارجي وتعقد زخارفها الداخلية، وتأخذ المئذنة أشكالاً متعدّدة وفقاً للمنطقة التي توجد بها تأثّراً بالحضارة المجاورة، وأشهر المساجد: المسجد "الأموي" في دمشق، "قبة الصخرة" في القدس، مسجد "الرسول في المدينة"، المسجد الجامع في سامراء، مسجد "جعفر" في بغداد، مسجد "ابن طولون"، مسجد جامع الأزهر، المسجد "الأزرق" في قرطبة،

مسجد "سيدي عقبة" في القيروان.

نتيجة توسّع الفتوحات تحولت بعض المعسكرات إلى مدن مثل البصرة والكوفة، والفسطاط والرملة والقيروان، كما أن بعض الولاة أرادوا لأنفسهم عواصم مستقلة فتكوّنت مدن كبرى كبغداد والقاهرة وقرطبة وغرناطة... وما يميز هذا المدن: تسويرها مع أبواب قابلة للغلق، ساحة كبرى يُجاورها مسجد جامع، وأحياء مقسّمة وفقا لمهنة ساكنيه، مع قرب المدينة للماء وسهولة حمايتها. أما الزخرفة فنظراً للحضور الديني فقد تفادى المسلمون فيها ذوات الروح، وإن تجاوز بعض الملوك هذا التحريم بخاصة الخلفاء العباسيون. والتجأ الفنان المسلم إلى الخط والزوايا يمارس فيها مواهبه ضمن الزخرفة النباتية والفلكية وأحيانا الحيوانية منها ضمن النقش على الخشب، الفسيفساء، نقش العاج، الزخرفة على الزجاج والقماش والسجاد وغيرها، وترخيم المعادن، متقيّدا بموضوع ينطلق من المحور وينتهي في الأطراف. كما تطوّر الخط بشكل مذهل واشتهر من الخطاطين: الريحابي، ابن البواب، وياقوت.

ومع امتداد المدينة العربية ورخائها، اكتشف الفرس ميل الملوك المسلمين إلى الترف والغناء فقصدوا مدنهم وقصورهم وعلّموهم هذه الفنون، ومن أشهرهم "نشيط الفارسي" و"طويس" و"جاثر"، واحتضنها الملوك وأنفقوا لها الأموال الضخمة، ومن مشاهير صناعة الغناء أيضاً "إبراهيم بن المهدي" و"إبراهيم الموصلي"، وفي عهد الرشيد أعلن حمايتها رسمياً فتفنّن فيها الأمراء والأميرات وتزايد عدد المغنيّين والمغنيّات. كما انتقلت إلى المغرب والأندلس ويعود الفضل لــ "زرياب" غلام الموصليين الذي أضاف الوتر الخامس للعود في تقدمها بالأندلس وانتقالها لأوروبا. وبرز كثيرون أيضا في تطوير الآلات الموسيقية منهم "عبّاس بن فرناس" (أنظر المنجزات العمرانية للمسلمين: ويل ديورنت، 1970، 4582 – 4596، لبيب عبد الساتر، 1974، 240– 288).

الخصائص العامة للحضارات:

من خلال تناولنا للفكر الاجتماعي الذي يميّز مختلف الحضارات البشرية مشرقها ومغربها، لا بد من الإشارة في النهاية إلى الخصائص العامة التي تطبعها، وقد تكون بعض من هذه الخصائص أقرب إلى قانون اجتماعي يحكمها، وأهمّ هذه الخصائص:

- الحضارة نظام اجتماعي يعكس اللحظة التاريخية التي يعيشها شعب معيّن، ودرجة تقدّم أفراده ومؤسّساتهم.
- للحضارة عناصر تشكّلها وتتساند فيما بينها، من نظام سياسي، وقضائي، وفكري، وتعليمي، وتجاري واقتصادي وغيرها، وتكون عموماً في نفس الدرجة من التطوّر أو متقاربة على الأقلّ (التباين الشديد بينها يولّد حالة التخلّف).
- من وراء كلّ حضارة عوامل مساعدة في نهضتها، قد تكون جيولوجية أو مناخية، أو اقتصادية، أو عمرانية، أو ديموغرافية، أو فكرية أو سياسية، ويبقى الجانب السوسيو- ثقافي العاملَ الأقوى خاصة ما يتعلّق بالبنية النفسية والاجتماعية للفرد والمجتمع.
- كما أنّ لكلّ حضارة عوامل لنهضتها، لها أيضا عوامل تعمل على سقوطها، وغالبا ما تكون عوامل النهضة هي نفسها عوامل السقوط. لكن يبقى الجانب السياسي والاقتصادي أهمّ عوامل السقوط.
- بين الحضارات احتكاكات مستمرة، وتراكمات تنتقل من السابقة إلى اللاحقة ولا وجود لحضارة خالصة من التأثير والتأثر بالحضارات الأخرى، سواء المجاورة لها أو السائدة في حقبة تاريخية معينة.
- لكلّ حضارة لحظة زمنية أو تاريخية معينة، غالبا ما لا تقلّ عن القرن ولا تزيد عن عشرة قرون، من بدايات تشكّلها إلى الأنفاس الأخيرة من وجودها، وتنقسم هذه اللحظة إلى فترة نشأة، وفترة تقدّم، وفترة

انحطاط، مع وجود لحظات وسيطة تتقدّم فيها أو تتأخّر.

- لكل حضارة "فكرة موجّهة"، يعمل منظروها وعلماؤها على ترسيخها وبلورتها على شكل أنظمة وتصورات، والبدايات الأولى لسقوط الحضارة يبدأ بانحراف هذه الفكرة الرئيسة.
- لكلّ حضارة خصوصيتها التي تميّزها عن غيرها من الحضارات الأخرى، وتعطي لها كينونتها ووجوها المستقل في اللحظة التاريخية التي توجد فيها وعبر المسيرة البشرية العامة.
- لكلّ حضارة طبقات اجتماعية تشكّلها، تنقسم إلى حاكمة ومحكومة، وما يعمل على تحديدها الاجتماعي والسياسي هي الخلفيات الإثنية والاقتصادية، وفي حالات قليلة الفكرية منها.
- تقوم الحضارات على أسس إثنية (عرقية) حقيقية أو متوهّمة، أو يتمّ صناعتها خلال التشكّل، فتسود إثنية معينة على حساب الإثنيات الأخرى، وقد تتصارع إثنيتان على السلطة، لكن سلم ترتيبها يبقى هو الذي يحكم التعاملات بشكل مباشر (ظاهر) أو غير مباشر (خفي).
- أغلب الحضارات قامت على العبودية، أو التوسّع على حساب حضارات أخرى سواء بالقوة العسكرية أو السيطرة السياسية (الاستعمار بمختلف مفاهيمه).
- الدين عنصر مُفعّل للحضارات، وإذا تقاطع مع السلطة السياسية أصبح أداة للضبط الاجتماعي، ووسيلة للخضوع الإيديولوجي، تستغله السلطة لإعادة ترسيخ ذاتها الطبقية.
- نشأت أغلب الحضارات على ضفاف الأنهار أو المناطق الساحلية، وهي المورد والمصدر الرئيس لاقتصادها وتجارتها بالخصوص، ولتبادلاتها الثقافية مع الحضارات الأخرى (وحتّى بعض الحضارات التي نشأت في الصحراء سرعان ما امتدت لتسيطر على المناطق الساحلية أو النهرية).

الفصل الثاني

نشأة علم الاجتماع العام وأبعاده

المبحث الأوّل:
تطّور علم الاجتماعي وحدوده

تمهيد:

وإن اختلف السوسيولوجيون في مواضيع جمّة، إلاّ أنّهم يتّفقون، على الأقل، في نقطة مشتركة هي أنّهم يجدون صعوبة في تحديد مفهوم علم الاجتماع، لأنّ التعاريف المقدّمة لهذا العلم، على ما يبدو، سواء كانت مبنيّة وفقاً للمؤلفين أو المناهج والنظريات تقود في أغلب الحالات إلى طريق مسدود، إنّما يبقى هذا المجال المعرفي، في النهاية، مشروعاً علمياً يهدف إلى دراسة أنماط العيش والتصرّف المشترك بين البشر.

1- ظروف نشأة علم الاجتماع في الغرب:

قبل التطرّق إلى تعريف علم الاجتماع وإشكالاته لا بد من إشارة إلى الوضع الذي أنتج هذا العلم في العالم الغربي. فقد كانت أوروبا القرون الوسطى تقوم على قاعدتين: صلابة النظام الإقطاعي، وسيطرة التفكير الديني، وفي القرن الخامس عشر تمزّقت هاتان الدعامتان، وظهر مفهوم الوطن ونشأت دول مثل فرنسا وإسبانيا وإنجلترا وغيرها، وتخلّت الشعوب عن اللاتينية لحساب اللهجات المحلّية القومية، وتزايدت طرق اكتساب المعارف على رأسها الطباعة، وتوسّعت التجارة البحرية، وحطّمت المدن الكبرى بطبقتها البرجوازية النظام الإقطاعي السائد. وتذمّر المجتمع من حياة التقشّف ووعود الآخرة ومآسي الحروب فالتجأ إلى مظاهر الترف والأدب والشعر والغناء، فتَعَلْمَنَ الفنّ وعبّر عن النزعة الفردية للمجتمع. بذلك برزت مظاهر النهضة الأوروبية الحديثة.

قامت هذه "النهضة" على روافد الحضارة الإسلامية، والعودة للتراث الإغريقي بما يتلاءم مع التفكير التحرّري، وحقّقت الطباعة في خضمّ ذلك مع

مكتشفها الألماني "غوتنمبرغ" قفزة نوعية، وكان أوّل منتوجاهّا "الإنجيل"، فقضت الطباعة على أخطاء المخطوطات وعمّمت المعرفة ووسّعت منها وقلّصت التعليم الشفوي، بذلك تراجعت احتكارية رجال "الإكليريوس" للمعرفة بما كانوا يملكون من مخطوطات نفيسة، وتولّدت ثقافة "الكتاب والنصّ" والتي سميت بـــ "الثقافة الإنسانيّة" وأُطلق على دعاهّا :"الإنسانيّون"، وهي الثقافة التي هّتمّ بالإنسان في ذاته باعتباره مصدراً للمعرفة بعيداً عن العناية الإلهية والتقاليد. وزادت حركة التنقيب عن المخطوطات نشراً ونقداً وتحرّراً فكرياً، وتجمّع المثقفون في جمعيات سمّيت "الأكاديميات" تسيّرها ثقافة "الإنسانيين" الجديدة، العقلانية في توجّهها والانفصالية عن الدين في بعدها، ومن نتائجها انشقاق البروتستانتية عن الكاثوليكية في أوروبا.

وضمن هذا النسيج الفكري الجديد برز عدد من المفكّرين والأدباء الذين دوّنوا أفكارهم بلغاهّم القومية، إذ نجد في إيطاليا: الشاعر دانتي (1265–1321م) في "الكوميديا الإلهية"، وبترارك (1304–1374م) في قصائده الغزلية، وبوكاتشيو (1313–1375م) بمجموعته القصصية "ديكاميرون"، و"نقولا مكيافيلي" (1469–1537م) في الأمير صاحب فكرة "الغاية تبرّر الوسيلة"، و"أريوستو" (1474–1533م) في فاسه السخيف "أورلاندو فيريوزو"، و"تاسو" (1544–1595م) بملحمة "أورشليم المنقذة"، وعن التربية المدنية كتب "كاستيغليوني" (1528) مؤلّفه "رجل البلاط". وفي فنّ الرسم تبرز أسماء "مازاتشيو" (1401–1429م)، والراهب "فرا انجليكو" (1387–1455م)، "بوتيشللي" (1445–1510م)، وفي النحت "جيبيرتي" (1378–1455م)، "دوناتلّو" (1386–1466م)، "برونلّتشي"، "بالاّديو"، ثمّ الأعلام البارزين من ليوناردو دي فنشي (1452–1519)، ورافائيل (1483–1520م)، ومايكل انجلو (1475–1564م)، و"تيتيان"، و"فيرونيز"، و"كوريجيو"... وغيرهم، وما يميّز هذا الفنّ سيطرة الترعة العلمانية والفردية عليه.

وفي فرنسا نُسجّل أيضاً أسماء: "غليوم بودي" الذي أوكلت له مهمّة تسيير التعليم الجامعي والعناية باللغات القديمة والشرقية، والشاعر "فرانسوا فيلّون" (1489م)، و"مارو"، كما أعطت مجموعة "الثريا" جهودها لتخليد اللغة الفرنسية ونذكر منهم: "يواكيم دوبيلي" (1525–1560م)، رونسار (1524–1585م)، وفي النثر تلمع أسماء الكاهن الطبيب "رابليه" (1490–1553م)، و"مونتين" (1533–1592م) في كتابه "التجارب". وفي فنّ الرسم والنحت وإن قلّدوا الإيطاليين وأبقوا بعض ملامح التقليد نجد: "يبار لاسكو"، "ريشييه"، "كولومب"، "غوجون"، "جون فوكّي"، "فرنسوا كلوي"...

وفي انجلترا نجد "تشوسر" (1340–1400م) في "حكايات كانتربوري"، و"توماس مور" (1478–1535م) بإنسانيته المفرطة في "Utopie"، و"كريستوفر مارلو" (1564–1593م) في مسرحياته، وشكسبير (1564–1616م) بقوّته الاستثنائية في مختلف فنون الأدب. أمّا إسبانيا فقد أبدعت: "سرفنتس" (1547–1616م) في "دون كيشوت". وقد فَضَّل "إرسموس" (1466–1536م) الهولندي الكتابة باللاتينية والتوفيق بين التيار "الإنساني" والديني وإن بقي جمهوره جدّ محدود في الذين يُحسنون هذه اللغة.

أمّا في مجال العلوم فقد حاول القدّيس "توما الإكويني" التوفيق بين العلم والدين، وإن واجهته عدّة معارضات أهمّها انتقادات "غليوم أوكّام **Guillaume d'Occam**" الذي دعا إلى الفصل بينهما والتخلّي عن الماورائيات والاكتفاء بالظاهر، وهو رأي أغلب علماء ذلك العصر والذين توصّلوا إلى العديد من الاكتشافات. وأبرز رموز النهضة ضمن هؤلاء: "ليوناردو دي فنشي" في علوم النبات والجيولوجيا والبصريات وغيرها، و"كوبرنيكوس" في مجال الفلك، وكلّ من "فيزال **Vesale**" و"باري **Paré**" في مجال الطبّ، وفي الجغرافيا الرحّالة "فاسكو دي غاما"، و"توسكانيللي"، وغيرهم في مجالات عدّة (لبيب عبد الساتر، 1974، 328– 342).

2- إشكالية تعريف علم الاجتماع:

سادت نزوة مشهورة بين علماء الاجتماع، منذ زمن طويل، تَدّعي بأنّ «السوسيولوجيين يتّفقون بينهم في نقطة واحدة هي عدم اتفاقهم على تحديد علم الاجتماع»، ووردت هذه "المزحة"، لأوّل مرّة، في كتاب "ريمون آرون Raymond Aron" الموسوم بـــ "ثمانية عشرة درساً عن المجتمع الصناعي" عام 1962، ثمّ كرّرها ووافق عليها "ريمون بودون Raymond Boudon" في مقرّره "منطق الاجتماعي La Logique du social" عام 1979، فغدت كلمةً شبيهة بمحل الاشتراك الذي لا جدال فيه عند المعاصرين.

1- المنطلقات المنهجية الخاطئة:

من المؤكّد أنّ نقطة الانسداد في تعريف هذا العلم، تعكس بشكل سريع عدّة فجوات في المنطلقات المنهجيّة التي بُنيت عليها التحديدات الكلاسيكية، أهمّها منطلقان:

أ- على المستوى النظري: انقسمت التحديدات بين الذين يتبنّون فكرة أسبقية الحدث الفردي على الواقع الاجتماعي، فمصدر الظواهر الاجتماعية المشتركة، هي دوما، تجميعٌ للأفعال الفردية سواء بإعادة إنتاجها، أو تحويلها أو غير ذلك...، والذين يعتقدون بأسبقيّة الاجتماعي على الفردي، وأنّ النظام الاجتماعي هو الذي يحدّد سلوكيات الأفراد بكلّ دقائقها حتّى الأكثر خصوصية منها كالتقاء الزوجين، واختيار أسماء الأطفال...

ب- على مستوى المنهج: بين الذين ينطلقون من أهمّيّة جمع المعطيات الكميّة واستغلالها، فلا أهمية للبحث دون هذا المبدأ، والذين يعتقدون أنّ لا شيء يعوّض الجمع الدقيق للمعلومات الكيفيّة، ولا قيمة للكمّ، إنّما الأصل في البحث الفهم فقط (**J. Michel Morin, 1996, 4**).

2- الطرق الخاطئة:

ولّد المنطلقان الخاطئان السابقان عدّة طرق خاطئة بالضرورة، في تعريف

علم الاجتماع هي:

أ- تعريف علم الاجتماع عن طريق المؤلفين: تحديد ماهية هذا العلم بما قدّمه "فيبر **Weber**"، أو "دوركايم **Durkheim**"، أو "باريتو **Pareto**" ...أو غيرهم، شبيه بمن يدّعي بأنّ الفيزياء ما هي إلاّ الخطاب الذي أنتجه "نيوتن **Newton**" أو "أنشتاين **Einstein**"... أو غيرهما من جهة، ومن جهة أخرى محاولة التحديد الحرفي للسوسيولوجيا حسب روّادها يوصلنا إلى حالة من الشظايا الانفجارية المشتّتة هنا وهناك، لأنّ السوسيولوجيين الأوائل كانوا في البداية أصحاب تخصّصات متعدّدة من فلاسفة ومهندسين واقتصاديين ورجال قانون وسياسيّين...

ب- تعريف علم الاجتماع عن طريق المناهج: وذلك من خلال الربط بين التعريف والتقنيات المستخدمة، كالمقابلة والاستمارة وتحليل المحتوى... الخ. وهذا يعني وضع أدوات التنقيب في درجة أعلى من الأهداف المتوخاة من قبل المبحوث أو البحث من جهة، ومن جهة أخرى يصعب الجزم بأنّ هذه التقنيات والأدوات تخصّ علماء الاجتماع دون غيرهم ولهم الاستحواذ الكامل عليها، فهي مُستخدمة في كثير من الحالات بدرجة كبيرة من الحذر، يتقاسمها معهم مختصّون من مجالات أخرى، فالمقابلة مثلا تُستعمل من قبل عدّة جهات أخرى كالموظّف في العمل الإداري، والصحفي في التقصّي الإعلامي، وحتّى الطبيب في ضبط البيانات الصحيّة... فهي تسمح بتحقيق سبر للآراء في مجالات معرفية مختلفة.

ج- تعريف علم الاجتماع عن طريق النظريات: من خلال ربط مفاهيمه بالنظرية الوضعية أو التطوّرية أو الماركسية أو الوظيفية أو البنائية ...الخ، وهذا يعني إبراز وربط هذا العلم بتفسيرات، غالباً ما تكون، تنافسية بين مدارس متباينة، دون الاهتمام بتثمين النتائج العلمية المحصّل عليها من جهة، وتعتبر هذه النظريات من جهة أخرى، في عمومها "نقلا" أو استيراداً لنظريات من

تخصّصات أخرى كالفيزياء، والبيولوجيا، والاقتصاد، والإثنولوجيا وغيرها.

د- تعريف علم الاجتماع عن طريق الموضوع أو المشكلة المطروحة: قد يكون هذا الطريق أقلّ ضرراً من غيره، وهو ينطلق من التساؤل الذي يبحث في "جوهر" المجتمع: أهو مجموعة جماهير توحّدها قيم مشتركة؟ أم أنّه مجرد تموقع لعدد من السكان فوق مساحة واحدة؟ تتقاسم الإجابة على هذا السؤال مقاربتان: المقاربة الجوهرية "**Substantialiste**" التي ترى أنّ الموضوع أو المشكل القاعدي لعلم الاجتماع يتعلّق بالروابط الموجودة بين الإنسان والمجتمع. والمقاربة العلاقاتية "**Relationnelle**" التي تركّز على أنّ معالجة مشكلة ما يبدأ من فهم طرق عيش الأفراد مع بعضهم بعضاً ضمن أنماط معيّنة كالعيش داخل العائلة أو في المدرسة وخلال فترات الراحة في أماكن التسلية أو في العمل أو المدينة (الحي) أو في مواجهة الأسرار أو الأشياء الغامضة التي تحيط بنا (**J. Michel Morin, 1996, 4**).

فعلم الاجتماع، بذلك، يطرح أسئلة ويستعمل أو يُنتج معطيات لا تنحصر في "الاجتماعي" فقط، بل تتعدّاه إلى معالجة معطيات من مجالات أخرى كالسلطة، والهوية، والمعتقدات، والاتصال...الخ، ما يصعّب أكثر مهمّة تعريفه (**J. Michel Morin, 1996, 5**).

3- صعوبات تعريف علم الاجتماع:

تعريف علم الاجتماع بالتالي ليس بالأمر الهيّن، نظراً للصعوبات التالية:

- اتساع مجال بحثه.
- تعدّد موضوعاته.
- تداخل المفاهيم المشكّلة له.
- تعدّد المدارس التي تدخل ضمن حدوده.

لكنّ عدم وجود تعريف دقيق لهذا العلم لا يُقلّل من أهميّته، ولا يُشكّك

في علميّته، بل على العكس من ذلك، فهو يزيد له قيمة وثراء، ولعلّ هذه الصعوبات ناتجة من الطموحات الكبرى التي يسعى المجال السوسيولوجي لتحقيقها، والتي يمكن إجمالها في هدفين:

أ- **الخصوصية**: فهو يسعى إلى أن يكون علماً قائماً بذاته، له تميّزه وشخصيته المنفردة.

ب- **العمومية**: وهو يحاول الجمع بين أحضانه أكبر عدد ممكن من الظواهر المتصلة بالاجتماعي سواء كانت سياسية أو اقتصادية أو قانونية أو غيرها.

ونتيجة لهذين الهدفين والخاصيتين في الآن ذاته وجد نفسه يواجه تعقيدات زادت من التشكيك أكثر في مصداقيته. وأمام هذا التعدّد المجالي، لا يمكن الاعتماد على تعريف واحد لعدّة أسباب منها:

- مغامرة من هذا النوع تحكم على علم الاجتماع بالحدّ من مجاله.
- يحتاج التعريف الواحد إلى تعريف آخر، فإذا عرّفناه بالتجمّع أو الثقافة... أو غيرهما من المصطلحات، فنحن نحتاج إلى تعريف آخر يعرّف أكثر هذه المفاهيم ويحدّدها.
- التعريف الواحد يزيد في الغموض بدل التوضيح.

رغم كلّ هذه التعقيدات، فمن المهمّ، بل ومن الضروري الأكيد على الباحث المبتدئ، الاطلاع على أهمّ التعاريف المُقدّمة لعلم الاجتماع قصد تشكيل رؤية واضحة عنه.

4- تطوّر المصطلح:

أدرك "سان سيمون **Saint Simon**" (**1760- 1825**)، ومن بعده "أوغست كونت **A. Comte**" (**1798- 1857**) ضرورة إيجاد علم جديد يدرس الظواهر الاجتماعية بطريقة علمية دقيقة، أسماه الأوّل "الفيسيولوجيا

الاجتماعية"، وأسماه الثاني في بداية تشكيله "الفيزياء الاجتماعية"، وهي تسمية استخدمها "توماس هوبز T. Hobbes" (1588– 1679) من قبله بكثير(A. Beitone, 2000,77).

وقد كتب "أ.كونت A.Comte" سنة 1820 يقول: «نحن الآن نملك فيزياءً فلكية، وفيزياء أرضية، وفيزياء آلية أو كيميائية، كما أنّ لدينا فيزياء نباتية وفيزياء حيوانية، لكنّنا ما زلنا في حاجة إلى فيزياء أخرى وأخيرة تتعلّق بالمجال الاجتماعي ليكتمل نظام معرفتنا بالطبيعة وأقصد الفيزياء الاجتماعية. إنّها العلم الذي يدرس الظاهرة الاجتماعية بطريقة موضوعية، وبنفس الروح التي يُنظر بها لظواهر الفلك أو الفيزياء أو الكيمياء أو الفسيولوجيا، أي أن تخضع الظواهر الاجتماعية لقوانين ثابتة» (A.Comte, Opuscules de philosophie sociale, 1820).

لكنّه عدل عن هذه التسمية واستهجنها بعد أن استخدمها البلجيكي "أدولف كيتلي Adolphe Quételet" (1796– 1874) في دراساته الإحصائية للمجال الاجتماعي ووضعها عنواناً لكتابه: "الفيزياء الاجتماعية Physique Sociale". واقترح "كونت A.Comte" تسمية جديدة لمشروعه العلمي الجديد كي يكون مختلفاً شكلاً ومضموناً عن مقترح "كيتلي Quételet"، بذلك ظهرت هذه الكلمة ذات الذوق المحبّب عند الكثيرين "علم الاجتماع Sociologie".

وبالتالي فكلمة "السوسيولوجيا أو علم الاجتماع Sociologie" ظهرت على يد الفرنسي "أ.كونت A.Comte" سنة[1] 1830 في الدرس السابع والأربعين "47" من كتابه "دروس في الفلسفة الوضعية Cours de

(1) – تعدّدت التواريخ التي أُعطيت لظهور هذه الكلمة أوّل مرّة، من 1827، 1830، 1839 وغيرها، لكنّ الأكثر منطقية منها التي وردت في قاموس علم الاجتماع تحت إشراف "بيار أنصار P.Ansart"، والمُثبتة له بعام 1830، لذلك اعتمدناها هنا.

"philosophie positive"، وهي لفظة مكونة من شقين:

- ✓ **Socio**: اشتقت من الكلمة اللاتينية **SOSIUS**، التي تعني: المرافق (**Compagnon**).
- ✓ **Logie**: اشتقت من الكلمة الإغريقية **LOGOS** التي تعني: الخطاب أو العقل (**P.Ansart (Dir), 1999, 488**).

وباجتماع الكلمتين نحصل على العلم الذي يهتمّ بالعلاقة الموجودة بين فردين فأكثر، لكنّ إلصاق الكلمتين "العلم" و"الاجتماعي" بمختلف إضافاتها وتعريفاتها (العلم الاجتماعي، علم الاجتماعي، العلم الاجتماع، علم الاجتماع علم اجتماع...) طرح إشكالات متعدّدة، انتهت بشبه اتفاق على مصطلح "علم الاجتماع"، وإن كان هذا المصطلح هو الآخر قد يحمل بين طيّاته تحديدات خاطئة، وتبقى الكلمة الأجنبية منقولةً إلى العربية "السوسيولوجية" أكثر الكلمات دلالة على مضمون هذا العلم.

5- بعض التعاريف:

نظراً لقدم معالجة "الاجتماعي" في تاريخ الفكر البشري، فقد فضّلت السوسيولوجيَّة "مادلين غرافيتس **M.Grawitz**" أن تسجّل تعريف علم الاجتماع باللحظة الحاسمة التي يُولد فيها ابيستمولوجيًّا، متجاوزةً بذلك كلّ التعاريف، وقائلة بأنّ: «علم الاجتماع هو دراسة الواقع الاجتماعي، ونظراً لكون الاهتمامات الفلسفية المنتجة حول طبيعة المجتمع، أو الأخلاقية المشكّلة حول طرق تطويره، قديمة قدم التفكير الاجتماعي، والسياسي والفلسفي، فإنّه بدايةً من اللحظة التي يتمّ فيها رؤية الفعل الاجتماعي، في معزل عن الأحكام القيميّة، تُولد السوسيولوجية باعتبارها علمًا» (**M.Grawitz, 1996, 73**).

فإن كان تعريف "غرفيتس **M.Grawitz**" جدّ دقيق، إلاّ أنّ التعريف الذي اختاره معجم المصطلحات الاجتماعية، بخلاف ذلك، كان جدّ واسع إلى درجة الغموض الذي لا يفرّق بينه وبين العلوم الاجتماعية الأخرى، فقد اعتبره

علماً «من العلوم الإنسانية المتخصّصة في دراسة الظواهر الاجتماعية موضوعيًّا وتحليلها علميًّا بتقنيات خاصة، وتفسيرها عقلانيًّا، استناداً إلى النظر في المجتمعات الإنسانية التاريخية وقوانين تركيبها وتطوّرها وأدائها (ثباتها وتغيّرها)» (خليل أحمد خليل، 1995، 11).

6- تقسيم التعاريف:

يمكن تقسيم التعاريف المُعطاة لهذا العلم وفقاً لعدّة نماذج أهمّها:

أ- النظرة الماكرو- سوسيولوجية (Macrosociologie): وهم الذين يعتقدون في أسبقية الكلّ على الجزء، منها التعاريف التالية:

- أوجست كونت **A.Comte**: "العلم الذي يدرس النظم الاجتماعية على الحالة التي بدت فيها، والتطوّرات التي حدثت لها فيما بعد".
- أجبران **Ogbrun** ونيمكوف **Nimakoff**: "الدراسة العلمية للحياة"، وهو علم "يعالج الخصائص المشتركة بين الجماعات والمجتمعات المختلفة".
- سوركين **Sorokin**: "دراسة الخصائص العامة المشتركة بين أنواع الظواهر الاجتماعية" (محمد أحمد بيومي، 2001، 26).
- لاستر وار **Laster Ward**: "دراسة المجتمع".
- ادوار روس **Edward Ross**: "دراسة الظواهر الاجتماعية".
- إ.دوركايم **E.Durkheim**: "علم دراسة النظم الاجتماعية".
- رونيه مونيه: "الدراسة الوصفية المقارنة التفسيرية للمجتمعات الإنسانية حسب ما تسمح به مشاهدتنا في الزمان والمكان"

ب- النظرة الميكرو- سوسيولوجية (Microsociologie): وهي التي تعتقد أنّ العلاقات الاجتماعية أسبق من المجتمع في نظرها، فالجزء أوّلا ثمّ الكلّ. من بينها التعاريف التالية:

- فون وايس **Léopold Von Wiese**: (الألماني) "علم دراسة العلاقات الاجتماعية".

- جورج زيمل **George Simmel**: "علم دراسة الأفعال الفردية التبادلية".
- ماكس فيبر **M. Weber**: "علم دراسة الأفعال الاجتماعية".

ج- النظرة النفسو- اجتماعية (**Psychosociale**): تُمثّلها المدرسة الأمريكية، التي تدعو إلى التداخل بين "الاجتماعي" و"النفسي" والدمج بينهما. أهمّها التعاريف التالية:

- موريس جيزبرج **Morris Ginsberg**: "دراسة التفاعلات والعلاقات الإنسانية من حيث ظروفها وآثارها".
- ألبيان سمول **Albien Small**: "دراسة العمليات الاجتماعية".
- جونسون: "يدرس الجماعات الاجتماعية من حيث صور ونماذج تنظيمها الداخلي، والعمليات التي تميل إلى استمرار أو تغيير هذه الصورة التنظيمية والعلاقات بين الجماعات" (محمد أحمد بيومي، **2001**، **26**)

يمكن سرد عدد لا حصر له من التعاريف، فيكاد يوجد تعريف لكلّ عالم اجتماع، وهذه ميزة تخصّصٍ يفتخر بشساعة موضوعه وتعدّد المجتمعات التي يدرسها والتغيّر المستمر لها، ما يُعطي للسوسيولوجي قيمة تساعده على البقاء وتجديد ذاته باستمرار وتطوير ميادين بحثه بالتبع.

3- تاريخية علم الاجتماع:

يصعب الجزم إن كان علم الاجتماع نمطاً من أنماط المقاربات الجديد النشأة أم أنّه نمط قديم الوجود، فالقضايا الاجتماعية تلتصق بالإنسان الأوّل، أمّا تنظيم هذا النسق من المعرفة وتأسيسه ضمن نشاط جامعي فهو حديث، ولا يتجاوز نشأة الاسم وضبط التحاليل الأوّلية للمشروع القرنين السابقين. فهذا العلم ذو تاريخ قصير وماض طويل.

1- المراحل التاريخية:

تعدّدت أُسس تقسيم تاريخ هذا العلم، لكنّ المراحل الجدّ واضحة فيه هي:

أ- مرحلة ما قبل الكلمة: فمشروع إنشاء علم جديد يتكفّل بالظواهر الاجتماعية وُجد قبل إيجاد الكلمة ذاتها، إذ يرى البعض أنّ "ابن خلدون" هو أوّل من اقتراح إنتاج معرفة حول المجتمع أسماها "علم العمران البشري"، وبالمقابل يعتقد البعض بأنّ كلاّ من "مونتسكيو **Montesquieu**" و"روسو **Rousseau**" يشكّلان الرائدين الأساسيين لعلم الاجتماع (في القرن **18**) بما اقترحاه من قوانين تحكم المجتمع، ويحلو للبعض الآخر العودة أبعد من ذلك، ودون تردّد إلى "ميكيافيلي **Machiavel**" (القرن **15** و**16**) الذي بدأت على يده ملامح فصل السياسي عن الديني، وقد يصل آخرون في تتبع الجذور إلى "أرسطو **Aristote**" (القرن **4** ق.م) لما قدّمه من تحاليل واقعية عن السياسي.

ب- مرحلة الكلمة: أُبدعت الكلمة من قبل "أوغست كونت **A.Comte**"، الذي يُعرّف السوسيولوجية بأنّها علم يطمح إلى دراسة "القوانين الأساسية الخاصة بالظواهر الاجتماعية"، وقد اقترح الكلمة تعويضاً لمصطلح "الفيزياء الاجتماعية"، التي كانت تعني مشروعاً مماثلاً عند الإحصائي البلجيكي "كتلي **Quételet**"، وتحمل عنوان كتابه الأساسي.

ج- مرحلة المؤسّساتية: لا يمكن لنشاط علمي معيّن أن يصبح مؤسساتيًّا إلاّ إذا تمّ تدريسه في الجامعة. ففي فرنسا أُنشئ كرسي (**Chaire**) "للبيداغوجيا والعلوم الاجتماعية" عام **1895** بجامعة بوردو **Bordeaux** من قبل السوسيولوجي "إميل دوركايم **Durkheim**"، وبعد انتقاله إلى السربون **Sorbonne** عام **1906** حصل على كرسي يحمل اسم "علم التربية وعلم الاجتماع" عام **1913**. وحدث نفس السيناريو تقريباً في كلّ من انجلترا وألمانيا والولايات المتحدة الأمريكية فقد درّس "سومنر **W.G.Sumner**"، لأوّل مرّة، علم الاجتماع في جامعة "ييل **Yale**" بداية من سنة **1876**، وفي عام **1892** تمّ تأسيس أوّل قسم لعلم الاجتماع، بتمويل خاص، في شيكاغو **Chicago** تحت رئاسة "سمل **A.W.Small**" (خواجة عبد العزيز، **2007**، **157**).

2- البحث عن السوسيولوجي الأوّل:

يُشكّل تحديد السوسيولوجي الأوّل، في تاريخ هذا العلم رهاناً ثقيلاً على مستويات متعدّدة:

أ- المستوى النظري: وهو أهمّ المستويات قبل كلّ شيء، فتحديده في:

- **فترة ما قبل التاريخ**: يعنى إعطاء قيمة علمية لأرسطو خاصة باعتباره عالم اجتماع، لكنّ في هذا رفضٌ لمبدأ ربط تاريخ علم الاجتماع بتاريخ "الحداثة" (المعاصر).
- **فترة النهضة**: يعني وضع قضية "السلطة" محوراً رئيساً لكلّ التحاليل السوسيولوجية وفقاً للطرح المكيافيلي. بذلك يصبح عالم الاجتماع مستشاراً سياسياً تابعاً للسلطة.
- **القرن الثامن عشر**: هو حصرٌ لعلم الاجتماع في "فلسفة الأنوار"، حيث يجب على السوسيولوجي البحث عن استقلاليته في الممارسة العقلانية النقدية بشكل مطلق، ورفض كلّ ما له علاقة بالديني أو الجماعي لحساب العقل والفرد.
- **القرن التاسع عشر**: هو انضمام إلى الذين يتساءلون، وفقاً لحساسيات مختلفة، عن النتائج الايجابية أو السلبية للثورة الفرنسية، منقسمين إلى أصحاب ردود الفعل الرومانسية والباحثين عن إعادة بناء النظام الاجتماعي (مقاربات دوتوكفيل **Tocqueville**) أو المنقّبين في سلبيات الثورة الصناعية (ماركس **Marx**، لوبلاي **LePlay**)، أو المشتغلين بتطوّر العلوم (كونت **A.Comte**، سبنسر **Spencer**).

ب- المستوى الوطني: يمثّل أوّل عالم اجتماع أيضاً رهاناً وطنياً، حسب التاريخ الذي تمّ تحديده، فكلّ دولة أو مجموعة تحاول تمجيد ذاتها بادعائها إنتاجَ أوّل سوسيولوجي، بنسبته لها، فهو:

✓ عربي مسلم ← ابن خلدون ✓ يوناني إغريقي ← أرسطو.

- ✓ إيطالي ☚ ميكيافيلي، باريتو ✓ فرنسي ☚ كونت، دوركايم
- ✓ انجليزي ☚ سبنسر ✓ ألماني جرماني ☚ فيبر
- ✓ أمريكي (سمل A.Small له كرسي علم الاجتماع في شيكاغو 1893).

3- تاريخ علم الاجتماع والنظام السياسي (تطبيق)

وتطبيقاً لتاريخ علم الاجتماع يمكن أخذ إحدى أهمّ الموضوعات كمثال لوحدة طروحات علماء الاجتماع وتباينها في الوقت ذاته، وهي تحليل النظام السياسي، الذي تمّ تبعاً لثلاث مراحل، فالأعمال الأكثر شهرة تعود إلى:

- ✓ العشريتان السابقتان فنجد عند المعاصرين: ريمون آرون R.Aron وأرونت Arendt.
- ✓ القرنان السابقان، فنجد عند الحداثيين: مونتسكيو Montesquieu.
- ✓ أكثر من ألفيّتين سابقتين، فنجد عند القدماء: أرسطو Aristote.

تبدو الاستمرارية عند هؤلاء كما يظهر التجديد بينهم، إذ يضع الأوائل في مقدّمتهم الأهدافَ الجماعية، ويرفضون "الرشوة" إن تمت لأهداف خاصة. أمّا المتقدّمون فيضعون في مقدّمة تحليلهم التسيير المشترك، ويرفضون الحكم العنيف الفردي أو الجماعي.

* في القرن الرابع قبل الميلاد:

من أجل (Pour) / من طرف (Par)	المصالح الخاصة	المصالح المشتركة
الواحد	حكم الثلاثين	الملكية
الكثيرون	الأليغارشية (الأقلية)	الأرستقراطية
الكل	الديمقراطية	الجمهورية

يُحدّد أرسطو Aristote في "السياسي" بعدين لممارسة السلطة هما: من أجل من؟ (Pour qui?)، ومن طرف من؟ (Par qui?). وما يهمّه أكثر في

الموضوع التساؤل "من أجل من؟"، متأسّفاً ومخالفاً الذين يستعملون السلطة "من أجل" مصالحهم الخاصة (الرشوة). فحين تُستعمل السلطة "من أجل" الصالح العام، لا يهمّ بعد ذلك "من طرف من"، سواء كان فرداً واحداً أو عدّة أفراد أو من قبل الجميع، ما دامت الأهداف محميّة.

*في القرن الثامن عشر: كان التساؤل في هذه الفترة منصبّاً على من يُمارس الحكم؟

من يمارس الحكم؟	شكل الحكم
واحد + دون قانون	الاستبداد Despotisme
واحد + قانون	الملكية Monarchie
الشعب ← جزئيا	الجمهورية ← الأرستقراطية Aristocratique
الشعب ← كليا	الجمهورية ← الديمقراطية Démocratique

يعتمد "مونتسكيو Montesquieu" في "روح القوانين" على بعد واحد لاستخدام السلطة واستعمالها يتمثّل في "مِن قبل مَن؟"، ويتخوّف من ممارستها "من قبل" فرد واحد دون وجود قانون محدّد (وهو ما يُولّد ظاهرة العنف)، لكنّ ممارستها بوجود القانون أو من قبل الشعب، لا يدعو للتساؤل لصالح "من؟" يتمّ ذلك.

*في القرن العشرين: لم يعد التساؤل عن "من أجل من؟" ولا "من قبل من؟"، إنّما عن الخصوصيات التي يحملها النظام السياسي داخليّاً، والمتمثّلة في:

الشكل	الخصوصيات
النظم الشمولية (الكلية Totalitarisme)	✓ الحزب الواحد ✓ إيديولوجية الدولة ✓ السيطرة على وسائل الإعلام ✓ مراقبة "الاقتصادي" ✓ التخويف (التهديد)

النظام الديمقراطي Démocratie	✓ الجمعوية ✓ الحرّية ✓ الاستقلالية الاجتماعية ✓ شرعية السلطة

بحث "آرون R.Aron" في "الديمقراطية والشمولية Démocratie et Totalitarisme" و"أرونت Arendt" في "أصول الشمولية Les Origines de totalitarisme" عن الخصوصيّات التي تميّز الأنظمة الشمولية "النازية للأوّل والسوفيتية للثاني"، وقد وجدا مميّزات هذه الأنظمة كما هي موضّحة في الجدول السابق، ومن خلالها حدّدا خصوصيات الأنظمة الديمقراطية (J. Michel Morin, 1996, 7).

3- تموقع علم الاجتماع:

تحوّل مركز ثقل الإنتاج السوسيولوجي، عبر تاريخ هذا العلم، من فرنسا إلى ألمانيا ثمّ إلى الولايات المتّحدة الأمريكية، وذلك بين القرن التاسع عشر حتّى القرن العشرين. فإن كانت السوسيولوجية قد وُلدت في أوروبا (فرنسا، ألمانيا، وكذا انجلترا) فإنّها ترعرعت وكبرت في أمريكا، وهي اليوم حاضرة بين ضفّتي الأطلنطي. وأهمّ التموقعات التي مرّت بها خلال هذه الفترة هي:

1- أهمية فرنسا (1789- 1870): أثرت نتائج الثورة الفرنسية على ذهنيات الشعب الفرنسي ومثقّفيه بالخصوص، بشكل جذري، فانقسم إلى فئة متذمّرة من مخلّفات الأحداث السابقة ومنتقدة لها بشدّة (دوبونالد De Bonald ودوماستار De Maistre)، وفئة أخرى تحمل طموحاً واسعاً لمستقبل تميّزه الصناعة (سان سيمون C.H. De Saint Simon)، وفي خضمّ هذه النقاشات ظهرت مؤلّفات الروّاد الأوائل (المؤسّسون): كونت A.Comt، دوتوكفيل A.De Tocqueville، و لوبلاي F.Le Play. وأمام الغزارة الفرنسية، سجّلت مؤلّفات ماركس K.Marx منعرجاً مهمّاً في ألمانيا.

2- **الديناميكية الألمانية (1870- 1918)**: عرفت المدرسة الألمانية بين حرب 1870 والحرب العالمية الأولى إنتاجاً غزيراً طبعته أعمال "ماكس فيبر **M.Weber**"، "جورج سيمل **G.Smmel**"، إضافة إلى أعمال كلّ من "دالتي **W.Diltey**"، و"تونيز **F.Tonnies**"، و"ترولتش **E.Troeltsch**"، و"سومبر **W.Sombart**"، و"شيلر **M.Scheler**". وكان ذلك في مقابل الهيمنة الشديدة للمدرسة السوسيولوجية لدوركايم **Durkheim**، بفرنسا الجمهورية الثالثة، وقوفاً ضدّ الاتجاه المسكلج (نسبة إلى السيكولوجية) لغابريل تارد **G.Tarde**. أمّا ما يُميز إيطاليا، في الجانب الآخر، هي الأعمال المنعزلة لفلفريدو "باريتو **V.Parito**" (الذي خلف "والراس **Walras**" في جامعة لوزان **Lausanne** بسويسرا) و"ميشال **R.Michels**" (الذي ألّف كتابه الأساسي في ألمانيا) و"موسكا **G.Mosca**". ولم تغب انجلترا من الساحة، مسجّلة حضورها بأعمال "هربرت سبنسر **H.Spencer**"، ثمّ أعمال "بوت **C.Booth**" و"ويب **S.webb**".

3- **ظهور الولايات المتحدة الأمريكية (1918- 1945)**: طبعت الأعمال السوسيولوجية في أمريكا الشمالية الفترة الواقعة بين الحربين، مركّزةً على موضوعات جديدة متعدّدة وجدّ دقيقة، أهمها:

* التهيئة العمرانية والحضرية مع "وليام توماس **W.Thomas**" وزننسكي **F.Znaniecki**

* مجال عالم الشغل مع "مايو **E.Maya**" (خاصة تحقيقه في مصنع "هوتورن **Hawthorne**" بواسترن إلكتريك **Western Electric**)

* وعن الانحراف أو ظاهرة المافيا (العصابات) مع "تراتشير **F.Thrasher**" و "وايت **W.F.Whyte**"

* وعن المدينة مع "بارك **R.Park**" و "وايرث **Wirth**" و"لينث **R.H.Lynd**" (**Middletown**) أو "وارنر **L.Warner**" (**Yankee city**).

الأحداث التي وقعت في ألمانيا والنمسا جعلت الكثير من الباحثين السوسيولوجيين يلتحقون بالولايات المتّحدة الأمريكية أمثال: "شوتز **A.Schutz**"، "أدورنو **T.Adorno**"، "أرونت **H.Arendt**"، "لازارسفيلد **P.Lazarsfeld**"، "شومبتر **J.Schumpeter**"، في حين أنّ "إلياس **N.Elias**" و"مانهايم **K.Mannheim**" التحقا بانجلترا.

4- نحو تجمع عالمي؟ (بداية من 1945): تأكّدت الديناميكية الأمريكية بشكل بارز منذ خمسين عاماً، مع بارسونز **T.Parsons** وغوفمان **E.Goffman** ...، كما تميّزت فرنسا هي الأخرى بحركيّة شديدة في هذه الفترة خاصة مفكرو "**Mai 68**" أمثال "ريمون آرون **R.Aron**" و"ريمون بودون **R.Boudon**". وأعمال أخرى منعزلة تمّت في انجلترا مع "جيدنينج **A.Giddens**"، و ألمانيا مع "هابرماس **J.Habermas**"، وفي السويد مع "إلستر **J.Elsetre**".

ثمّ تعمّمت الاحتكاكات بعد ذلك ضمن نظريات عالمية لا تعرف الفواصل الجغرافية والسياسية أهمّها: النظرية الوظيفية، البنائية، التحليل النسقي، التفاعلية الرمزية، الفردانية المنهجية... والتي تجاوزت بسرعة كلّ الحدود لتجعل من نفسها موضوعاً لنقاش عالمي.

4- إشكالية الرواد

أ- المؤسسون السبع:

السؤال الذي يطرح ذاته، في خضمّ النقاشات المتعدّدة، ما هي الشروط الضرورية لترشيح مفكّر ما لمنصب الرواد الأساسيين في علم الاجتماع؟ قد تختلف الإجابات المقدّمة، إنّما يجب على المفكّر الذي له الحقّ في الالتحاق بالمشاهير الروّاد المعروفين في علم الاجتماع، في الغالب، أن يُقدّم مساهمة علمية قويّة ومستمرّة. ويكاد في الفترة الحالية يتّفق المشتغلون بتاريخ هذا العلم على

قائمة تضمّ سبع روّاد، وتبقى مؤلّفات الآخرين، رغم قوّتها وديمومتها، لا تلقى نفس الترحيب. وتضمّ قائمة مشاهير كبار السوسيولوجيين السبع الأسماء التالية: أوغست كونت **Comte**، ألكسيس دوتوكفيل **Tocqueville**، كارل ماركس **Marx**، فلفريدو باريتو **Pareto**، إميل دوركايم **Durkheim**، ماكس فيبر **Weber**، جورج سيمل **Simmel**.

مكوّنات هذه القائمة خضعت لتحكيم جدّ حساس. فقد تمّ، مثلا، تعويض سيمل **Simmel** (حسب تصنيف **M.Dubois** في كتابه "مؤسسو الفكر السوسيولوجي **"Les fondateurs de la pensée sociologique**، **1993**) بمونتسكيو **Montesquieu** (الذي كان مُصنّفا قبل ذلك من طرف **R.Aron** في "مراحل الفكر الاجتماعي **"Les étapes de la pensée sociologique**، **1967**) باعتباره السابع، وهذا يعني إقصاء كلّ مرجعية ممكنة لفلسفة الأنوار، مع إعطاء الأولوية لـــ "سقراط ألمانيا" (سيمل **Simmel**) الذي يتناسب أكثر مع منحى التاريخ المعاصر.

وتعود أسباب ديمومة هؤلاء ضمن القائمة، في الحقيقة، لعوامل متعدّدة هي:

1- المرجعية التجسيدية (بمعنى إبداع الكلمة)، ويمثّلها أوغست كونت **A.Comte**.

2- التأثير السياسي القوي، ويبرز في كارل ماركس **Marx**

3- إنتاج أطروحات علمية قادرة على المقاومة والاستمرارية، يمثّلها:

- ✓ "دوتوكفيل **Tocqueville**" بموضوع "الديمقراطية".
- ✓ "باريتو **Pareto**" بموضوع "الإيديولوجية"
- ✓ "دوركايم **Durkheim**" بموضوع "الانتحار".
- ✓ "فيبر **Weber**" بموضوع الدين.

ويشكّل تحديد الأحسن فيهم تمريناً صعباً، ما يعني تقليص هذه القائمة مرّة أخرى إلى مجموعة أصغر. فإن كان لا بدّ من ذلك، سيبقى المحركان

الكبيران دون منازع، وهما "فيبر Weber" و"دوركايم Durkheim"، ثمّ يتبعهما في الترتيب "باريتو Pareto" و "ماركس Marx".

ب- دائرة السوسيولوجيّين المفقودين:

توسيع قائمة كبار السوسيولوجيّين يمثّل هو الآخر اختباراً جدّ حسّاس. لهذا يمكن التساؤل بحدّة لماذا سوسيولوجيون أمثال "لوبلاي LePlay"، "سبنسر Spencer"، "تارد Tard"، "ميد Mead"، "ترولتش Troeltsch" و آخرون لم يُستهدفوا في القائمة؟ أسباب هذا النسيان مبهمة، لكن يمكن احتمال بعض منها:

- **سقوطهم في بعض الأخطاء العلمية**: وهل يمكن تجنيب "الكبار" من ذلك؟ فبعض الأخطاء لا تقلّ خطورة عن أخطاء "الصغار".

- **التداخل مع التخصّصات الأخرى**: هي الأخرى واضحة عند بعض "الكبار" إن لم نقل كلّهم.

- **تبنّيهم لإيديولوجيات معارضة**: كتطورية "سبنسر Spencer"، ونخبوية "موسكا Mosco". وماذا عسانا نقول إذن عن الديانة الوضعية لكونت، والنتائج المثالية للماركسية، وعن الأخلاق عند دوركايم Durkheim، أو المواقف السياسية لباريتو، أو تردّدية فيبر Weber؟...

- **عدم الرغبة فيهم**: يرى "دوبوا Michel Dubois" في " Sociologie de l'envers" (1994) أنّ هؤلاء المؤلّفين غير مرغوب فيهم وسط الإطار الجامعي، لذلك لا يتمّ تدريسهم. لعلّ في هذا الرأي بعض الحقيقة، لكن هل "الكبار" كلّهم مقبولون في الأوساط الجامعية.

- **ظاهرة التنافس**: وهنا يمكن الحديث عن التنافس بين هؤلاء، وإقصاء بعضهم بعضاً، "فباريتو Pareto" يمحو "موسكا Mosca" في النخبوية الإيطالية، و"فيبر Weber" يغطي "ترولتش Troeltsch" في السوسيولوجية الدينية الألمانية،

أمّا "دوركايم Durkheim" فيُقصي منهجيّاً "تارد Tard" من خلال ما كان يمارسه من رقابة للبثّ السوسيولوجي وضمان التجانس والسيطرة لمدرسته الخاصة.

ج- اهتمامات المؤسّسين:

يمكن إجمال اهتمامات الأسلاف والمنسّيين في الجدولين التاليين:

أ- الأسلاف:

المؤلف	الكتب الأساسية	أهمّ الإسهامات
كونت A.Comte (1798- 1857)	- دروس في الفلسفة الوضعية. - نسق الفلسفة الوضعية	-إبداع كلمة "سوسيولوجيا". - قانون الحالات الثلاث: الثيولوجية،الميتافيزيقية،الوضعية
توكفيل Tocqueville (1805- 1859)	- الديمقراطية في أمريكا. - النظام القديم والثورة.	- المقارنة بين الديمقراطية في أمريكا والديمقراطية في فرنسا. - الخيار بين الحرية والمساواة.
ماركس Marx (1818- 1883)	- الـ 18برومر (شهر الضباب). - الرأسمال.	- علاقات الإنتاج ووسائل الإنتاج. - صراع الطبقات. - أسبقية الوجود على الوعي.
باريتو Pareto (1848- 1923)	مقدمة في علم الاجتماع	- لكلّ مجموعة اجتماعية نخبتها - دورة النخب و الوصول إلى السلطة.
دوركايم Durkheim (1858- 1917)	- الانتحار. - الأشكال الأولية للحياة الدينية.	- علاقات التضامن والسلوك الاجتماعي. - الاندماج الاجتماعي والتربية الأخلاقية.

سيمل Simmel (1858– 1918)	فلسفة النقود.	– النقود والعبور من العلاقات الساخنة والمباشرة إلى الأشكال الباردة والمنتشرة.
فيبر Weber (1864– 1920)	الأخلاق البروتستانتية والروح الرأسمالية.	– فهم الفعل الجماعي بالعلاقات الفردية. – أسبقية الديني على الاقتصادي.

ب- المنسيون

المؤلف	الكتب الأساسية	أهمّ الإسهامات
لوبلاي Le Play (1806– 1882)	العمال الأوروبيون.	أهمية الخلية العائلية (داخل مجتمع يعرف حالة التصنيع).
سبنسر Spencer (1820– 1903)	مبادئ علم الاجتماع.	تطبيق التطورية على المجتمع (الاختلاف والاندماج).
تارد Tard (1843– 1904)	قوانين المحاكاة.	الظواهر تنتقل عن طريق المحاكاة، الارتباط بين النفسي والاجتماعي
موسكا Mosca (1858– 1941)	مبادئ علم السياسة.	سيطرة الأقلية المنظّمة على المجتمع، وفقا لـــ "معادلة" سياسية دقيقة.
ميد G.H.Mead (1863– 1931)	الروح والذات والمجتمع.	أهمية الاتصال في عملية التفاعل الاجتماعي.
ترولتش E.Troeltsh (1895– 1923)	البروتستانتية والمعاصرة.	التفرقة بين الكنيسة والمذهب، والعلاقة الروحية عبر تاريخ الدين.

ج- السوسيولوجيون الأساسيون في ثلاث دول:

يمكن إحصاء 75 سوسيولوجيًا في ثلاث دول، وضمن خمس مراحل، يعدّ تسعة منهم مؤسّسين عند الكثيرين (يشير التاريخ إلى مؤلّفهم الأساس، وتشير

العلامة * للسوسيولوجيّين المخضرمين الذين يتقاسمون الجنسية الألمانية والأمريكية):

فرنسا	ألمانيا	الولايات المتحدة الأمريكية
قبل 1870		
L.de Bonald ; J.de Maistre (1796) **C.H.de Saint Simon (1823)** **A.Comte (1830)** **A.de Tocqueville (1835)** **A.Quételet (1838)** **L.R.Villermé (1840)** **F.le Play (1855)**	**K.Marx (1867)**	
1870		
G.Tarde (1890) **G.Le Bon (1895)** **E.Durkheim (1893)** **R.Worms (1907)** **C.Bouglé (1908)**	**W.Dilthy (1883)** **F.Tonnies (1887)** **G.Simmel (1900)** **W.Sombart (1902)** **M.Weber (1905)** **E.Troeltsch (1909)**	**Small (1894)** **C.Cooley (1909)**
1918		
M.Halbwachs (1925) **F.Simiand (1932)**	**M.Scheler (1923)** **K.Mannheim (1929)** **N.Elias (1939)**	**W.Thomas ;F.Znaniecki (1918)** **R.Park (1925)** **F.Threasher (1927)** **T.Adorno (1927)*** **R; H Lynd (1929)** **H.Arendt (1929)*** **E.Mayo (1933)** **P.Lazarsfeld (1923)*** **G.H.Mead (1934)**
1945		
J.Stoetzel (1943)		**L.Warner (1941)** **W.F.Whyte (1943)** **S.Stouffer (1949)**

R.K.Merton (1949) T.Parsons (1951) C.W.Mills (1956) I.Coser (1956) R.Dahl (1961) H.Becker (1963) E.Goffman (1963) P.Bleu (1964) M.Olson (1966) H.Garfinkel (1967) A.Scutz (1967)	R.Dahrendorf (1957)	G.Friedman (1947) G.Gurvitch (1955) F.Bourricaud (1961) R.Aron (1965) M.Crozier (1964) A.Girard (1964) A.Touraine (1965) M.Mendras (1967)
1968		
H.Blumer (1969) A.O.Hirschman (1970) C.Jencks (1972) A.Cicourel (1973) T.C.Schelling (1978) C.Tilly (1978)	J.Habermas (1981)	P.Bourdieu (1970) C.Baudelot ; R.Establet (1971) R.Boudoun (1973) R.Sainsaulieu (1977) G.Adam, J.D Raymand (1978) M.Maurice et al (1982)

5- المعاصرون والاتجاهات:

أصبح علم الاجتماع خلال القرن العشرين تخصّصاً دقيقاً وواضح المعالم، معروفاً في الأوساط العلمية، ونشاطاً مُدرّساً جامعياً. فتزايدت كثافة الأعمال به وتعدّدت موضوعاته، وعكس كلّ ذلك انقساماً لتيارات التفكير والتحليل بداخله. وقد تمّ تقسيم هذه التيارات تبعاً لعدّة أبعاد، تحمل عناوين مختلفة أهمّها تحليلات باسم الثقافة، وأخرى باسم الوظيفة، أو النسق أو البنية أو تسميات أخرى. وأهمّ التيارات العالمية السائدة إلى اليوم (باختصار دون الدخول في آرائها):

1- الماركسية: مرجعية نظرية ثقيلة عرفت امتدادها في عدّة بلدان، وعدّة موضوعات هي:

- ✓ في مجال العمل بفرنسا الـــ 50 إلى 70 (**Naville**).
- ✓ في مجال الإيديولوجية مع "ألتوسير **Althusser**".

- ✓ في مجال المدرسة مع "بودلو Baudelot" و"استيلات Establet".
- ✓ في مجال الدولة مع "بلولانتزاس Poulantzas".

ولم تُصغِ الماركسية لانتقادات "ريمون آرون R.Aron" التي قدمّها في الخمسينيات إلاّ في سنوات الثمانينيات.

2- **النظرية النقدية لمدرسة فرنكفورت**: حاولت الجمع بين الماركسية والتحليل النفسي. تأسّست في ألمانيا، ويمثّلها مجموع المؤلّفين الذين هربوا من الدول الاشتراكية بين الحربين بخاصة "أدرنو Adornou"، "هورخيمر Horkheimer"...، وظهر تأثيرهم بشدّة في المعسكر الأمريكي خاصة أعمال "ماركوز Marcus" في سنوات السبعينيات، ثمّ عادت لموطنها بألمانيا مع "يورغن هيبرماس Habermas".

3- **التحاليل النسقية**: استوحت نماذجها من البيولوجيا وطّبقتها على الاجتماعي، من مفكّريها "بيرتلنفي L.von Bertalanffy" في سنوات الستينيات. فهي تعتقد أنّ كلّ نسق شبيه في بنيته بالعضو في محيطه، وقد تمّ توسيع هذا المخطط، وطُبّق على النسق الأمريكي من قبل "ايستون Easton" (1965)، كما ركّزت هذه التحاليل بشكل واضح على أهمّيّة "الفاعل" داخل "النسق" وتجلّى ذلك في أعمال "ميشال كروزي Crozier" و"فريدبارج Friedberg" في سنوات السبعينيات (1977) بفرنسا.

4- **الإيكولوجية الحضرية لمدرسة شيكاغو**: ركّزت على أولوية الميدان، واتخذت من المدينة "مختبراً اجتماعياً" لدراساتها، وذاع صيتها خلال الثلاثينيات والأربعينيات، وأهمّ ممثليها "بارك Park"، و"توماس Thomas"، و"زنانيكي Znaniecki"، و"بيرجس Burgess"، و"ماك اينـــزي MacKenzie".

5- **الثقافوية**: اتخذت من الثقافة دعامة لها، ووجدت انعكاسات حسّاسة عند الذين يركزون على الحتميات الثقافية للسلوكيات، وأهمّ روادها بيندكت R.Benedict، لنتون R.linton...

6- **البنائية الوظيفية**: انطلقت في سنوات الخمسينيات، مُركّزة على البحث في المنفعة الاجتماعية للظاهرة، لا في أسبابها، فكلّ الظواهر تعود إلى بنيتها الوظيفية بما في ذلك الانحراف في الوظيفة الذي هو بالنسبة للفرد نوع من التكيّف مع المجتمع، ويبدو أنّ طموحات "ميرتون Merton" خصبة في هذا الإطار. ويُقدم كتاب "تالكوت بارسونز Parsons" مغامرة جريئة في سبيل توحيد علم الاجتماع ضمن خلاصة نظرية واحدة.

7- **التفاعلية الرمزية والاثنوميتودولوجية**: روّاد الأولى هم "غوفمان Goffman"، و"بيكر Becker"، أمّا الثانية فهم "شوتز Schutz"، و"جارفينكل Garfinkel"، و"سيكورال Cicourel". انطلق هذان الاتجاهان خلال الستّينيات بالولايات المتّحدة الأمريكية، وقد تمّ تبنّيهما أكثر خارج موطنهما. ما يجمع هذين الاتجاهين الرؤية للفرد باعتباره عملية مستمرّة من التكيّفات مع ثقافة ما، أو وظيفة ما، أو نسق ما، أو سيطرة ما...، وعلى هذا الفرد دوماً أخذ احتياطاته في ذلك من خلال فهم الآخر.

8- **النظريات الفرنسية**: تعدّدت النظريّات التي ظهرت في فرنسا خلال هذه الفترة، وأهمّها:

✓ **البنائية**: على يد ليفي شتراوس، مقترحة تحليل القرابة والخرافات وكلّ الظواهر الاجتماعية بنفس النموذج الذي تحلّل به اللغة في اللسانيات، بمعنى أنّها محكومة ببنى غير ظاهرة، عالمية ولا شعورية. انطلق هذا البرنامج في الخمسينيات، ثمّ توسّع لمختلف العلوم الاجتماعية خلال السبعينيات.

✓ **التحليل الاستراتيجي**: مع "ميشال كروزي Crozier" بعد سنة 1968.

✓ **نظرية الفاعل**: مع "ألان توران A.Touraine".

✓ **الأبيتوس**: مع "بيار بورديو Bourdieu".

✓ **الفردانية المنهجية**: مع "ريمون بودون Boudon".

ويُلقّب هذان السوسيولوجيان ("بيار بورديو Bourdieu"، "ريمون بودون Boudon") اليوم بـ "Les deux Bou..." ضمن السوسيولوجية الفرنسية (J. Michel Morin, 1996, 12).

6- حقول (مجالات) علم الاجتماع:

تقسيم المجالات التي يشتغل عليها علم الاجتماع يطرح عدّة تصنيفات وفقاً لأبعاد مختلفة، أهمّها:

أ- القطاعات: تقسيم الحقول إلى مجموع القطاعات الملاحظة، يعكس المواضيع التي يجد فيها السوسيولوجي "ميداناً خصباً"، وطلباً اجتماعياً متزايداً، وبالتالي شركاء ومنافذ للعمل. تضمّ المقرّرات الجامعية والمصنّفات، في هذا التقسيم، عدداً غير محدود من القطاعات. لعلّ أهمّها:

- ✓ **الريفي**: الفلاحون، العالم الريفي ، التصحّر في الواحات، التغذية...
- ✓ **الحضري**: المواطنون، البيئة الحضرية، تزايد المدن...
- ✓ **الديني**: الالتحام الاجتماعي، المذاهب والممارسات، الطقوس، أشكال الإيمان...
- ✓ **العائلي**: الأزواج، الأطفال، الخلية الاجتماعية القاعدية...
- ✓ **التربوي**: المدرسة، البيداغوجيا، مكانة الشهادات، علاقة التكوين، العمل...
- ✓ **السياسي**: الدولة، الأحزاب، الانتخابات، الرأي العام، العلاقات الدولية..
- ✓ **التنموي**: النمو، التخطيط، تهيئة المجال...
- ✓ **التنظيمات**: المؤسّسات، الإدارات، الجمعيات...
- ✓ **الإعلام والاتصال**: وسائل الإعلام الجماهيري، الإشهارات، الإشاعات...
- ✓ **الثقافة وأوقات الفراغ**: الموسيقى، المهرجانات، الرياضة...

✓ **الصحة**: الأمراض، التداوي، الطب...

✓ **الاجتماعي**: الحماية الاجتماعية، محاربة الفقر، إعادة الإدماج...

ب- **المشاكل المطروحة**: وذلك بتصنيف حقول علم الاجتماع حسب المشاكل المطروحة، أو مجمل التساؤلات التي تُطرح ضمن مختلف قطاعات الحياة الاجتماعية، وأهمّها:

✓ **الحكم أو السلطة**: كما أنّها موجودة في المحيط العام فهي موجودة أيضاً في الحياة الخاصة.

✓ **المعارضة أو الانسحاب**: الغياب عن الانتخابات أو الغياب في العمل...

✓ **الصراع أو الانسجام**: بين ربّ العمل والعامل وبين الدول والفرد...

✓ **الإجماع أو الانقسام**: داخل العائلة، في الحزب، بين الشعب...

✓ **المساواة أو التراتبية**: التفاعل بين فردين أو بين شبكات معقّدة...

✓ **التنظيم**: قصد التوفيق أو المراقبة أو البيروقراطية...

✓ **الجماعة**: جماعات الرفاق، جماعات العمل، الجماعات الضاغطة...

✓ **النخب**: عند الأكثر ذكاء وعند الأكثر قوّة...

✓ **الحراك**: كما هو عند الأجيال، وعند الجيل الواحد...

✓ **التغيّرات**: من خلال الأحداث أو من خلال التقاليد والمستجدّات.

✓ **المعايير والقيم**: المبنيّة منها والمكتشفة والمصطنعة...

✓ **الإبداع والحرية**: عند الفنّان كما عند العامل في الورشة.

✓ **المعتقدات والدعوات**: في المجال الديني وفي الممارسة السياسية أيضاً.

أمّا إميل دروكايم فقد قسّم علم الاجتماع إلى ثلاثة أقسام:

1- **المورفولوجيا الاجتماعية** (Morphologie sociale): تهتمّ بتأثير البيئة والمناخ على التنظيم الاجتماعي، وهي تضمّ:

أ- جغرافية البيئة الطبيعية وعلاقتها بالتنظيم الاجتماعي.

ب- دراسة السكّان وعلاقته بالبيئة.

2- **الفيزيولوجيا الاجتماعية** (Physiologie sociale): وظيفتها دراسة المؤسّسات والنظم الاجتماعية، ويندرج ضمنها:

أ- علم الاجتماع الديني   ب-علم الاجتماع العائلي

ج-علم الاجتماع السياسي   د - علم الاجتماع العسكري

ه-علم الاجتماع الاقتصادي. و - علم الاجتماع القانوني

ز-علم الاجتماع التربوي   ح - علم الاجتماع الحضري

ط-علم الاجتماع الريفي.

3- **علم الاجتماع العام** (Sociologie général): ويهتمّ بدراسة فلسفة العلم والوصول إلى القوانين التي تحكم المجتمع بتجميع نتائج العلوم الأخرى.

7- حدود علم الاجتماع:

لعلم الاجتماع دوائر مشتركة مع العلوم الإنسانية الأخرى، فكلّما تزايدت كثافة البحث في علم ما زاد تطوّره من خلال الحدود التي تجمعه بالعلوم الأخرى.

أ- **الحدود مع العلوم الاجتماعية**: فالعلوم الإنسانية بشكل عام تطمح إلى أن تكون: علمية في طرحها دون أن تكون "طبيعية" في منهجها كالفيزياء والكيمياء والبيولوجيا، التي تُخضع موضوعها للتجريب المتكرّر. وإنسانية في مجالها دون أن تكون معيارية في أحكامها كما هو الحال في علم الأخلاق والقانون والجماليات والسياسة والتسيير...الخ، التي تقيس طروحاتها وفقاً لمعنى الأحسن والأصحّ والأجمل والأكثر فعالية. ومن أهمّ العلوم التي يحتكّ بها علم الاجتماع في ظلّ العلوم الاجتماعية:

✓ **علم النفس**: الذي يدرس العمليات الداخلية للإنسان، كالوجدانية،

والذكاء والإرادة...

✓ **التاريخ**: الذي يتناول الأحداث كما وقعت في الماضي أكثر من الاهتمام باستمراريتها.

✓ **الايثنولوجيا**: بدراسة الاختلافات بين المجموعات، أكثر من دراسة ما هو مشترك.

✓ **الديموغرافيا**: التي تدرس الخصوبة، والوفيات، وتجدّد التجمّعات عدديّاً...

المشترك بين كلّ هذه النشاطات معالجةُ الإنسان باعتباره كائنٌ ذو ثقافة، وليس معطى طبيعيّاً فقط، فهو يدخل باستمرار في علاقات مع الآخرين، يتحدّث ويفكّر خاصّة، وهي تهتمّ كلّها بفهمه أوّلاً قبل أن تطمح إلى تغيير سلوكه. لكن خلال هذا المسار، قد تُقدّم الأبحاث الإمبريقية لعلماء الاجتماعي أحياناً إجابات عن تساؤلات فلسفية، تعتمد غالباً على التحليل الرياضي من أجل التدقيق في برهنتها.

ب- حركية الحدود: يرى "دوغان **Dogan**" و"باهر **Pahre**"، في مجال الاكتشاف العلمي الاجتماعي، أنّ تطور هذه التخصّصات يسير وفقاً للعملية التالية:

✓ **التخصّصية**: يشكّل المؤسّسون نواة صلبة لمشاكل معيّنة، يقترحون حلولاً لها.

✓ **التجزئية**: ينقسم التابعون وفقاً لمجالات التطبيق إلى عدّة اتجاهات.

✓ **التهجينية**: خَرْق المكتشفين والمبدعين العلميين لحدود نشاطهم (تخصّصهم) قصد إيجاد حلّ للمشاكل التي يستعصى فكّها في الداخل، بذلك يُحقّقون إبداعيتهم على الهامش، وضمن التوفيقية بين مجالهم ومجالات أخرى.

نجد هذه المراحل الثلاث بالنسبة لعلم الاجتماع أيضاً فقد مرّ بـــ:

✓ **المشروع الأساسي للمؤسّسين**: اتخذ مرجعيّته ضمن العلم ذاته، وعارض بقوّة علم النفس، مُشتغلاً عن الأحداث التاريخية، ومُقترحاً نماذج قريبة من علم الاقتصاد.

✓ **انفجار المدارس والتطبيقات**: والتي ظهرت وتزايدت مع المعاصرين.

✓ **التوفيقات المتعدّدة**: تمّ تشكيل توفيقات اخترقت حدود هذا العلم ذاته، مثل السوسيولوجية الاقتصادية، والارتباط بالتاريخ مع مدرسة الحوليات **Les annales** في فرنسا، وبعلم النفس مع "إلتون مايو **Mayo**" و"لوين **Lewin**" في الولايات المتحدة الأمريكية، أو بنائية سنوات الخمسينيات والستينيات التي نقلت نماذج عدّة من اللسانيات إلى دراسة العلاقات الاجتماعية (علم الاجتماع اللساني **Sociolinguistique**) (**J. Michel Morin, 1996, 30**).

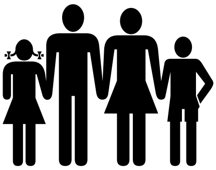

المبحث الثاني:
الظاهرة الاجتماعية:

1- تحديدها:

ينطلق دوركايم في كتابة "قواعد المنهج" من ضرورة تميّز لغة علم الاجتماع عن الخطاب العامي، فما الفائدة من علم قائم بذاته للمجتمع لا ينتج إلاّ ما تردّده الأفكار العامة، ويحذّر من جهة أخرى من خطورة تصنيع أفكار تسقط في حكم الغريب أو الشاذ (دوركايم، **1990**، **1**)، ومن أجل ضمان هذا التميّز وجب جعل الظاهرة الاجتماعية الوحدةَ الأولى في علم الاجتماع، لأنّ شخصية هذا العلم تعرّضت للكثير من التشويه كادت تقضي عليه (إحسان محمّد الحسن، **2005**، **245**).

وقبل الشروع في بحث طرق دراسة هذه الظاهرة الاجتماعية أو "الاجتماعي" يُبيّن دوركايم أوّلا طبيعتها، فهي:

✓ تختلف عن الظاهرة النفسية والطبيعية وإلاّ فما الفائدة من تخصيص علم لها من جهة.

✓ لا تضمّ كلّ ما يوجد في المجتمع (نوم، أكل...) لأنّ ذلك جدّ واسع من جهة أخرى.

وأهمّ ما يميّز الظاهرة الاجتماعية ما يلي:

1-الموضوعية: لها وجود مستقلّ عن ذاتية الأفراد، ولا تخضع لرغباهم الفردية. وهي ليست وليدة آرائهم الذاتية ورغباهم الخاصة، بل العكس فالتفكير الذاتي للأفراد هو وليد الظاهرة الاجتماعية، وطبيعتها أنّها تحتوي الفرد سلوكات وأفعال ومشاعر من ميلاده إلى وفاته.

2- الخارجية: ما أقوم به وإن شعرت أنّه لا يعارض عواطفي إلاّ أنّه خارج عنّي، فما أقوم به كأب أو أخ أو مواطن تلقّيته بالتربية. فهي موجودة قبلنا

وتبقى مستمرّة بعدنا كالدين والقانون ومختلف الممارسات فهي بذلك "توجد خارج شعور الأفراد" (دوركايم، 1990، 40).

3- **القهرية**: تملك صفة الإلزام أو القهر، فحين نستسلم لها لا نشعر بها، لكنّنا نشعر بضغطها أكثر كلّما حاولنا أن نقاومها كالقواعد الخلقية مثلا، ويتجلّى القهر في مظاهر متعدّدة بداية من أخفّ أشكاله وطأة كالزيّ وإثارة السخرية إلى أشدّها قسرا كالنفي والقتل، ولكنّ عدم الشعور بهذا القسر لا يعني أنّه غير موجود، فأنا لست مُجبرا على استخدام اللّغة أو النقود التي يتعامل بها مجتمعي لكنّني لا أستطيع أن أتعامل إلا بذلك، وأي محاولة لفعل النقيض تبوء بالفشل، وإذا استطعت أحياناً فلن يكون إلاّ بالصراع معها، وكلّ المجدّدين واجهوا مقاومة وصراعاً مستمراً مع الواقع (دوركايم، 1990، 41- 42) «إن مقدرتنا على اختيار طراز مساكننا ليست بأعظم من مقدرتنا على اختيار أزيائنا... كلا الأمرين سواء في القهر» (دوركايم، 1990، 55)، فالمواصلات مثلا يتمّ تجديدها قهرياً بالهجرة وتمركز السكان...

4- **التجميعية**: تجميع الأفراد المكوّنين لها يجعلها تختلف عن صفاتهم الفردية، ولا يكفي بل لا يجب وصفها بالعمومية فقط، فهي ليست مجرّد تجميع لعناصر مختلفة إنّما هي من جنس آخر يختلف تماما عن التجلّيات الفردية، وذلك أشبه بالخصائص التي تميّز الهيدروجين (الانفجار) والأوكسجين (الاحتراق) باعتبارها عناصر فردية تُكوّن عنصراً آخر يختلف تماماً في خصوصيّته هو الماء (إطفاء النار) (دوركايم، 1990، 47).

5- **العمومية والتلقائية**: تشمل كلّ أفراد المجتمع، ولا يحتاج الفرد فيها إلى استخدام مجهود ذهني كبير، بل يمارسها بعفوية، فهي عامّة لأنّها قهرية وليس العكس (دوركايم، 1990، 51).

6- **الثلاثية**: تضمّ الظاهرة الاجتماعية ضروب السلوك والشعور والتفكير السائدة في المجتمع.

7- الإنسانية: تنشأ الظاهرة الاجتماعية داخل المجتمع ويستهلكها المجتمع ما يعطيها صبغتها الإنسانية، فهي بهذه الصفة تختلف عن الظواهر التي تدرسها العلوم الطبيعية كالرياضيات والفيزياء والكيمياء والفلك وغيرها، وإن كان المجتمع في الأصل يمثّل كوناً صغيراً داخل الكون الأكبر، ما يجعله يماثله من حيث ضرورة وجود قوانين تحكمه بشكل ثابت، والعلم الذي يقوم بمهمّة كشف الظواهر الاجتماعية هو علم الاجتماع.

هكذا يخلص دوركايم إلى التعريف التالي للظاهرة الاجتماعية:

«إنّ الظاهرة الاجتماعية هي: كلّ ضرب من السلوك، ثابتاً كان أم غير ثابت يمكن أن يباشر نوعاً من القهر الخارجي على الأفراد أو هي كلّ سلوك يعمّ المجتمع بأسره، وكان ذا وجود خاص مستقلّ عن الصور التي تتشكّل بها في الحالات الفردية» (دوركايم، **1990**، **57**)

2- قواعد دراستها:

لم يهتم علماء الاجتماع قبل دوركايم **Durkheim** بتحديد طرق دراسة الظاهرة الاجتماعية، وبقيت بعيدة عن المعالجة الدقيقة، فحاول دوركايم وضع بعض هذه القواعد في كتابه "قواعد المنهج في علم الاجتماع" (سنة **1895**)، فرغم أسبقية كتاب هربرت سبنسر **Spencer** المعنون بـــ"المدخل إلى علم الاجتماع" إلاّ أنّه لم يتعرّض فيه إلاّ لصعوبات نشأة هذا العلم، كما أنّ إسهامات "استوارت ميل" لم تخرج عمّا قدّمه أوغست كونت **A.Comte** كثيراً، والذي لم يتجاوز النظريات العامة والتطوّرات الشمولية للمجتمع. فأهمّ القواعد التي يجب أن ينطلق منها الباحث حسب دوركايم لدراسة الظاهرة الاجتماعية هي:

أ- التخلّص من الأفكار المسبقة:

ينطلق دوركايم من تاريخ العلم فيُلاحظ أنّ التفكير أسبق من العلم، وأنّ

الإنسان يشكّل في ذهنه مجموعة من الأفكار عن شيء ما ثمّ يدرسه، لكنّ المشكلة تكمن في أنّنا نتمسّك بالأفكار التي نكوّنها في أذهاننا قبل أن نبحث عن حقيقتها في الواقع، لهذا فنحن نحلّل الأفكار الموجودة في أذهاننا أكثر من تحليلنا للواقع في حدّ ذاته، ما يجعلنا ننطلق من المعاني نحو الأشياء وليس العكس.

تحجبنا هذه الأفكار التي تحكم الأشياء في ذهننا عن الحقيقة، ويزداد سُمك الحاجب كلّما اعتقدنا أنّ هذه الأفكار بديهية وشفّافة أي أنّها لا تحتاج إلى نقاش، وهذه الأفكار سمّاها بيكون "المعاني المبتذلة "**Notions vulgaires**" أو المعاني "غير الممحّصة **Prénotions**" (الأفكار المسبقة، الأحكام القيمية...) وهي دوماً توجد في بداية كلّ العلوم، وهي شبيهة بالأصنام أو الأشباح في إحكام سيطرتها علينا، هذا بالنسبة للعلوم بشكل عام، فما بالنا بعلم الاجتماع الذي لم ينشأ إلاّ من خلال تكوين أفكار سابقة عن القانون والأخلاق والأسرة وغيرها من جهة، وتعتبر الذات فيه جزءاً من الموضوع من جهة أخرى.

وهكذا نلاحظ أنّ كلّ ما في المجتمع ما هو إلا تطوّر أو تطبيق لبعض المعاني المجرّدة التي لا وجود لها في الحقيقة، ونتيجة سيطرتها على مشاعرنا تبدو لنا وكـأنّها الحقيقة الاجتماعية ذاتها، والتحرّر من الأفكار المسبقة حماية لعلم الاجتماع من أن يكون علم المعاني المتوهّمة والعامة (دوركايم، **1990**، **64**-**69**). لهذا فأوّل قاعدة يجب على الباحث الانطلاق منها لدراسة الظاهرة الاجتماعية التخلص من:

- ✓ الأفكار السائدة التي تخلق ضباباً كثيفاً أمام عيونه لرؤية الحقيقة.
- ✓ "طرق التفكير التي أِلفها إلفاً شديداً، [والتي] تعود بالضرر على دراسة الظواهر الاجتماعية أكثر ممّا تعود عليها بالنفع" (دوركايم، **1990**، **2**).
- ✓ الأفكار المسبقة التي اكتسبها من خلال التربية والمدرسة...

"يجب على علم الاجتماع أن يتحرّر بصفة مطّردة من كلّ فكرة سابقة" وذلك باستخدام الشكّ المنهجي (لديكارت)، ورفض كلّ فكرة لم تقم على

ذلك، والتخلّي عن التفكير العامي أو التقليدي الذي يسيطر علينا، والذي يحتوي على بعض الآراء التي ترفض حتّى المنافسة العلمية، فالعاطفة موضوع للدراسة العلمية وليست مقياساً لها (دوركايم، 1990، 87- 91).

ب- دراسة الظواهر الاجتماعية باعتبارها أشياء:

"الظواهر الاجتماعية أشياء ويجب أن تُدرس على أنّها أشياء" هذه هي القاعدة الثانية، وقبل الخوض فيها، يبيّن دوركايم صفة الشيء، فالأشياء تأخذ الخصوصيات التالية:

- تمثّل الحقيقة الملاحظة، التي تقدّم نفسها بنفسها عياناً (الطاولة هي الطاولة).
- دراستها تكون مجرّدة عن الأفكار المكوّنة عنها (دراسة أبعاد الطاولة ومساحتها ثابت وينفصل عن اللون الذي أحبّه أو أكرهه في الطاولة).
- دراستها تتمّ من الخارج، فالأشياء خارجية لا تملك أحاسيس ومشاعر.
- "موضوعية" لا يمكن التسرّع في الحكم عليها كما لا يمكن تغييرها بسهولة لهذا فهي خارجية.

فمعالجة الظواهر الاجتماعية باعتبارها أشياء خارجية، يضعنا في مسلك التعامل معها بشكل علمي يتّفق مع طبيعتها، بذلك ننتقل من النظر "الشخصي" إلى "النظر الموضوعي" (علم النفس) لأن الظواهر الاجتماعية بطبيعتها خارجية (قابلة للإحصاء، يمكن ملاحظة آثارها...) (دوركايم، 1990، 80- 85).

ج- تفسير الاجتماعي بالاجتماعي:

كتب دوركايم: «يجب البحث دائماً عن الوظيفة التي تؤدّيها الظاهرة عن طريق دراستنا للصّلة التي تربط بين هذه الظاهرة وبين إحدى الغايات الاجتماعية» (دوركايم، 1990، 220)، مركّزا على ضرورة تفسير الظاهرة الاجتماعية بما يقابلها من ظواهر اجتماعية، لأنّ تفسيرها بظواهر نفسية (تارد)

أو كونية (سبنسر أو كونت) أو اقتصادية (آدم سميت) غير مقبول، ولا يساهم في فهمها الحقيقي وفي تأسيس علم الاجتماع باعتباره علماً مستقلاً بذاته.

د- تعريف الظاهرة الاجتماعية:

قبل الشروع في تفسير الظاهرة وجب تعريف هذه الظاهرة أو الظواهر التي تندرج ضمنها، وفقاً لخواصّها الأكثر ظهوراً دون استثناء، وبالتالي «من الواجب أن ينحصر موضوع البحث في طائفة خاصة من الظواهر التي سبق تعريفها ببعض الخواص الخارجية المشتركة بينها، ومن الواجب أن ينصبّ نفس البحث على كلّ الظواهر التي تتوفّر فيها شروط ذلك التعريف» (دوركايم، 1990، 94)، ويعتبر هذا التعريف همزة وصل بيننا وبين الظواهر، فلا يمكن الوصول إلى الظواهر مباشرة إلاّ من خلال تعريفها فمثلا مجموع الظواهر التي تثير في المجتمع ردّ فعل واحد يتمثّل في "العقاب" هي الجريمة، ومجموع العناصر الاجتماعية التي تربطهم "علاقة دم" هي الأسرة، ورغم بساطة هذه القاعدة فإنّ أغلب المفكرين قبل دوركايم لم يكونوا ملتزمين بها (دوركايم، 1990، 95- 96).

هـ- البحث عن درجة الثبات:

على الباحث الاجتماعي أمام الظاهرة الاجتماعية البحث عن وجود علامات ثابتة تسمح له بالرجوع إليها في كلّ مرّة وملاحظتها في تلك الظاهرة، ما يسمح بتجريد إدراكاتنا الحسّية، فلو كانت مميّزات الظاهرة متغيّرة ما وجد الباحث مقياساً يطبّقه على كلّ الحالات، وما استطاع التفرقة بينها وبين العناصر الأخرى المشابهة لها، كما أنّ الصفة «تستطيع التشكيل بصورة ثابتة دون أن يكون ذلك سبباً في تغيير طبيعتها» (دوركايم، 1990، 110).

3- الظواهر الاجتماعية السليمة والظواهر الاجتماعية المعتلّة:

من أهمّ منطلقات العمل السوسيولوجي عند دوركايم معرفة سلامة الظاهرة المدروسة من علّيتها، وقبل التفرقة بينهما يصحّح صاحب "قواعد

المنهج" الأفكار الخاطئة التالية:

أ- **الربط بين المرض والألم:** يعتقد البعض أنّ المرض يعني الألم، فهذا الربط غير دقيق، لأنّ الكثير من الأمراض تصيب الفرد دون أن يشعر بالألم، كما أنّ الألم لا يعني بالضرورة وجود المرض، مثل ما هو في حال الألم الطبيعي كالجوع، والتعب والولادة مع أنّها كلّها حالات سليمة.

ب- **الربط بين المرض وعدم التكيّف:** لا يعني المرض عدم التكيّف مع المحيط، فالشيخوخة مثلا ليست مرضاً مع أنّها تدلّ على عدم التكيّف، و إلاّ فكيف يمكن التفرقة بين الشيخ المريض والشيخ السليم؟

ج- **الربط بين المرض واللاّمفيد:** لا يجب اعتبار المرض حالة مقابلة لعدم الفائدة، فبعض الأمراض مفيدة مثل طريقة استخدام المصل لتكوين المقاومة لدى العضوية (دوركايم، 1990، 120- 124).

ثمّ يفرّق دوركايم بين هذين النوعين من الظواهر بذكر مميّزات الظاهرة السليمة، والتي تستجيب للشروط التالية:

- **العمومية في المجتمع:** أن تكون عامّة في المجتمع يمكن تمييزها بسهولة خلال فترة معيّنة.
- **العمومية بين المجتمعات:** أن توجد هذه الظاهرة في كلّ المجتمعات المتقاربة فيما بينها من حيث درجة التطوّر، ولا نقارن بين ما لا يُقارن.
- **العمومية في الزمن:** أن توجد في كلّ المراحل الزمنية من المجتمع قديماً وحديثاً.
- **الاطّراد أو الانتظامية:** أن تكون نسب ظهورها منتظمة وفقاً للنموذج الاجتماعي المتوسّط المعتاد عليه، لذلك قد تكون سليمة في مجتمع ما ومعتلّة في مجتمع آخر.
- **الخضوع لنفس الظروف:** فإذا كانت الظاهرة خاضعة لنفس الظروف

السابقة كانت سليمة.

بهذا تكون الجريمة مثلاً ظاهرةً سليمةً لعموميّتها ووضوحها في المجتمع، وانتشارها بين مختلف المجتمعات، وعبر مختلف الحقب الزمنية، ولها نسبة ظهور منتظمة سنوياً حسب أبحاث "كيتلي". وكلّ ظاهرة سليمة مفيدة وليس العكس، فالمفيد أعمّ من السليم. وكلّ خروج عن إحدى القواعد السابقة يجعل من الظاهرة معتلّة، فالانتحار قد يكون سليماً، لكنّ زيادته أو نقصانه عن الحدّ أو النموذج المعتاد يُصنّفه في الظاهرة المعتلّة، وهكذا مع العمومية والشروط السابقة (دوركايم، 1990، 130- 142).

الفصل الثالث:

مفكرو علم الاجتماع ونظرياته

المبحث الأول:
مفكرو علم الاجتماع:

تمهيد:

الحديث عن مفكري علم الاجتماع ونظرياته يطرح عدّة إشكالات تراود محدّدات هذا العلم ومسيرته، يمكن إجمالها فيما يلي:

1- إشكالية تطوّر العلم:

تعدّدت مقاربات الإيبستمولوجيين في ملامسة تاريخ العلم، ومن الإشكاليات المطروحة في الموضوع مسار تطوّر العلم، فهل هذا الأخير يسير في خطّ أحادي أم أنّه تمفصلات معزولة عن بعضها بعضاً؟، ولعلّ من أهمّ النظريّات التي عالجت هذه المُساءلة نظريّة "توماس كوهن **T.Kuhn** في كتابه: "بنية الثورات العلمية" (**1962**)، الذي يرى أنّ البراديجم (المحدّد النظري) هو الحلّ للموضوع، إذ يتشكل من أربعة عناصر:

- تعميمات رمزية.   - نماذج.
- قيم علمية.   - أمثلة نموذجية.

ويتطوّر العلم من منطلق البراديجمات وفق الدائرة التالية (باختصار):

شكل يمثل تطوّر العلم عند توماس كوهن

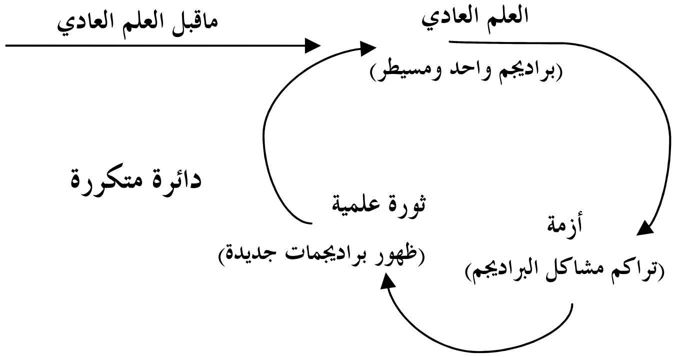

2- إشكالية ميلاد علم الاجتماع:

تمّ طرح هذا التساؤل سلفاً، وتبيّن أنّه يخضع لرهانات متعدّدة أهمّها:

أ- رهانات وطنية: نسبة السوسيولوجي الأوّل لبلد ما تعني فخراً وطنياً.

ب-رهانات نظرية: تحديده في فترة معيّنة يعنى سيادة موضوع معيّن على غيره من الموضوعات.

3- إشكالية تطوّر علم الاجتماع:

نجد أنفسنا أمام عدّة تصنيفات أهمّها:

أ- التصنيف الخطي:

وهو الذي يضع تطوّر علم الاجتماع على شكل خطّ مستمر، وفي ثلاث مراحل فقط، تظهر في الشكل التالي:

شكل يمثّل التطوّر الخطّي علم الاجتماع

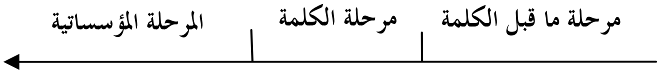

ب- التصنيف الشجري:

يرى أنّ علم الاجتماع له ثلاث لحظات، الأولى تغوص في الجذور مُشكّلةً الفكر الاجتماعي، ولحظة أخرى ثانية تمثّل الجذع مع الرواد الأساسيين (عددهم محدود ولا يتعدى في الغالب سبعة رواد أساسيين) الذين يُعتبرون أساس كلّ النظريّات ولا ينتمون لأيّ نظرية، وأخيراً لحظة ثالثة هي الانقسام إلى فروع ضمن ما يُسمّى النظريّات أو الاتجاهات أو المدارس بمختلف مبادئها وتسمياتها، ويبدو ذلك على شكل شجرة، كما هو مُبيّن في الشكل التالي:

شكل يبيّن التطوّر الشجري لعلم الاجتماع

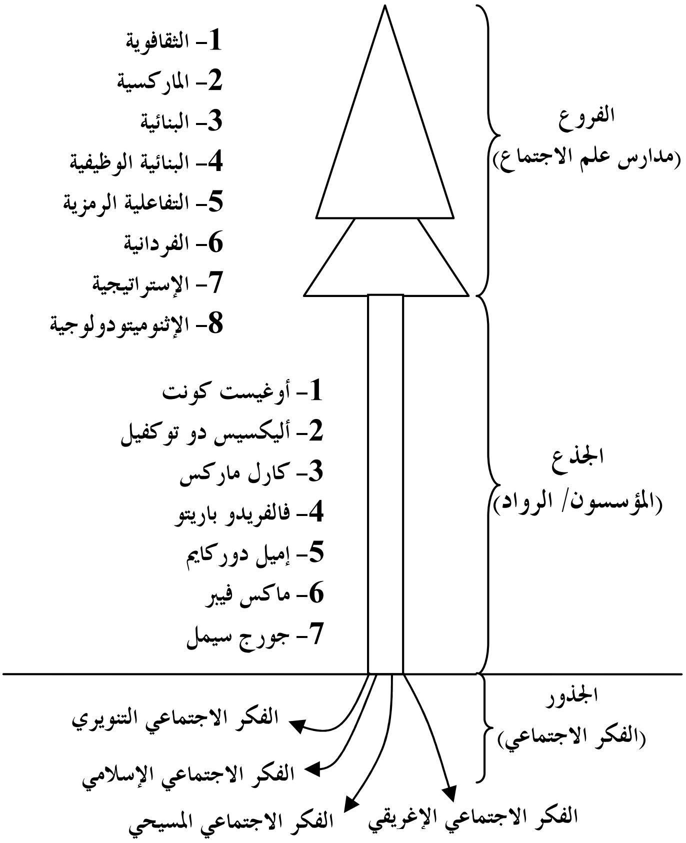

ج- التصنيف الموقعي:

ينطلق هذا التصنيف من متغيّرين رئيسين هما التموقع المكاني (الدول الأكثر شهرةً والأكثر منتوجاً) لعلم الاجتماع والفترة التاريخية المشتركة، ففي كلّ فترة يأخذ هذا العلم موقعه في دول مختلفة بمستويات تطوّرية أو خصوصيات مرحلية معيّنة، ورغم التداخل الموجود بين الأماكن والأزمنة وعدم وجود فواصل دقيقة للانتقال، باستثناء الحرب العالمية الثانية، فإنّ التصنيف يرتكز على الشكل العام والخصوصية الغالبة، ويمكن توضح ذلك في الشكل التالي:

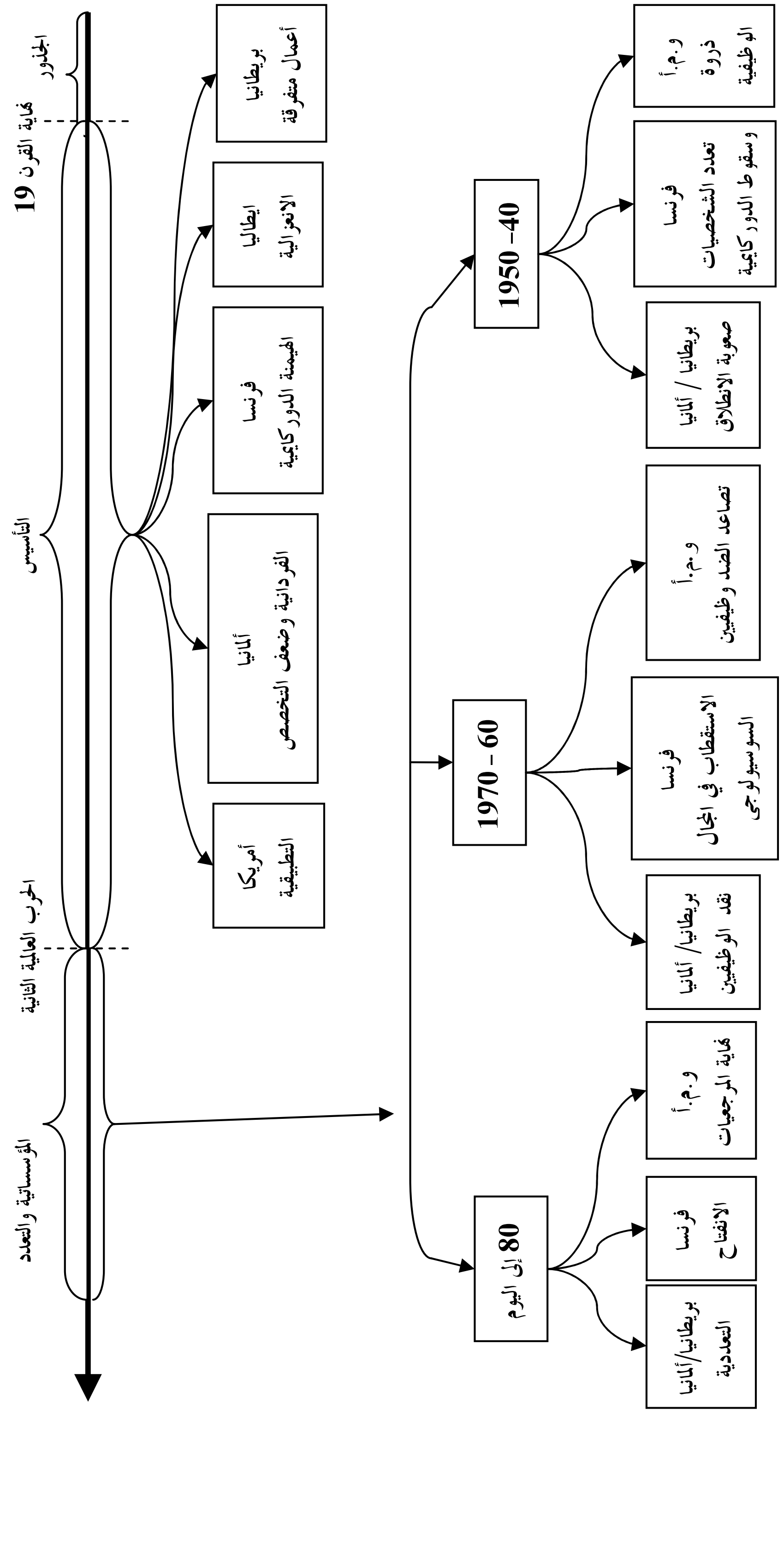
الجذور
نهاية القرن 19
التأسيس
الحرب العالمية الثانية
المؤسساتية والتعدد
بريطانيا
أعمال متفرقة
ايطاليا
الانعزالية
فرنسا
الهيمنة الدوركايمية
ألمانيا
الفردانية وضعف التخصص
أمريكا
التطبيقية
40- 1950
و.م.أ
ذروة
الوظيفية
فرنسا
تعدد الشخصيات
وسقوط الدوركايمية
بريطانيا / ألمانيا
صعوبة الانطلاق
60 - 1970
و.م.أ
تصاعد الضد وظيفيين
فرنسا
الاستقطاب في المجال
السوسيولوجي
بريطانيا/ ألمانيا
نقد الوظيفيين
80 إلى اليوم
و.م.أ
نهاية المرجعيات
فرنسا
الانفتاح
بريطانيا/ألمانيا
التعددية

د- التصنيف الاختزالي:

يعتقد بضرورة اختصار هذا العلم في ثلاث اتجاهات ومراحل فقط، تقوم على مشروع يتحوّل إلى نظرية، والنظرية تتطور إلى جيل يفجّرها إلى اتجاهات مختلفة.

شكل يبين التطور الاختزالي لعلم الاجتماع

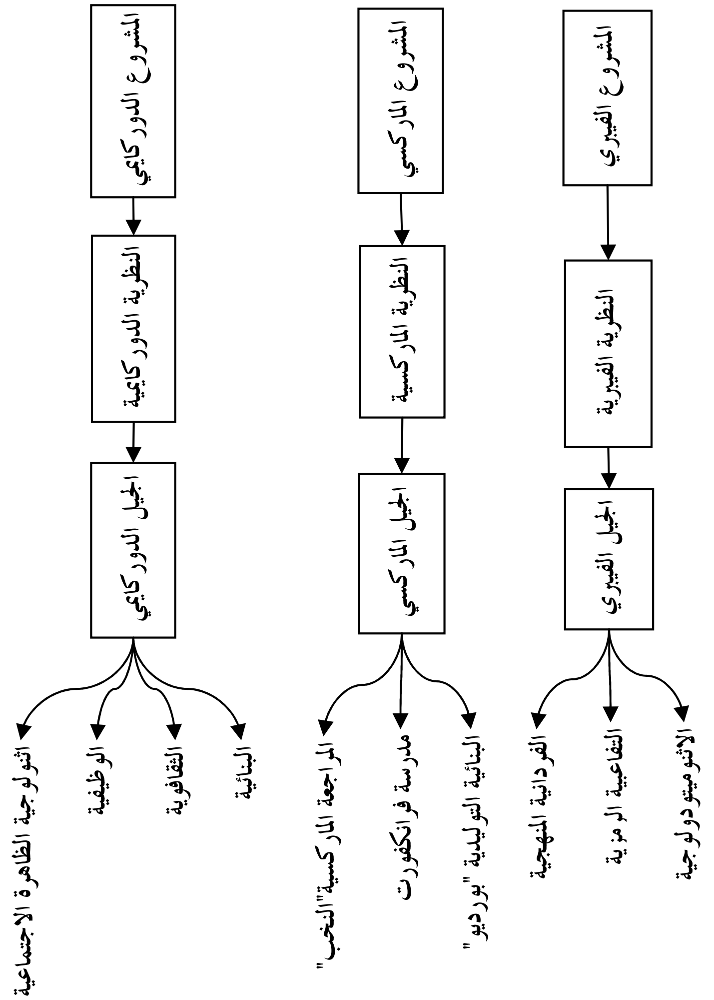

4- إشكالية الرواد:

إنّ التغيّرات المستمرّة في وضع قوائم الرواد وتعديلها، وإن كانت قائمة الـ "7" (كونت، دوتوكفيل، ماركس، باريتو، دوركايم، فيبر، سيمل) تكاد تجد ثباتها، فهذا لا يضمن بقاءها. ويتساءل البعض هل للإسقاطات المتكرّرة للعديدين أمثال: تارد، سبنسر، ترولتش، هربرت ميد، لوبلاي... نهاية؟ مع اختصار القائمة أحياناً من طرف البعض في الثلاث: فيبر، ماركس، دوركايم. ما يجعل طرح الرهانات الوطنية تعود مرّة أخرى للواجهة.

5- إشكالية بداية علم الاجتماع المعاصر:

وهنا نجد مجموعة من التحديدات تتمثّل في:

أ- انطلاق "المعاصرة" في علم الاجتماع بداية من إميل دوركايم خاصة بكتابيه: "قواعد النهج" و"الانتحار" (الأوّل منهجي والثاني ميداني).

ب- انطلاقها بعد الحرب العالمية الثانية وما نتج عنها من تحوّلات في الاهتمامات السوسيولوجية وتعدّدها وبروز التخصّصات.

ت- الفاصل في ذلك بداية وجود النظريّات في علم الاجتماع.

وسنحاول في هذا الفصل تناول أهمّ رواد علم الاجتماع ومفكريه ضمن بطاقات مختصرة، ورغم الانتقائية التي قمنا بها من منطلق اختيار مجموعة من كلّ فترة زمنية، يبقى الآخرون يحتاجون إلى وقفات هم الآخرون في أعمال مستقبلية، فلكلّ مرحلة نخبتها وممثلوها لكن لها أيضاً مفكروها الذين يستحقون الإشارة. ونفس الوضع سرنا عليه بالنسبة للنظريات السوسيولوجية متوقّفين عند أبرزها بالتقسيم الأبسط والأشمل، والذي يُغني الطالب والقارئ عن التعقيدات المعقدّة التي يمارسها بعض الكتّاب في هذه المواضع، ما يخلق عوائق في الفهم والاستيعاب.

I- الكلاسيكيون:

يعتبر علم الاجتماع إجابةً عن الأزمة التي كانت تعيشها أوروبا بعد عهد "الأنوار"، وبحثاً عن الحلّ الأمثل للوضع القائم، ومدى تصوّر النخبة لمستقبل العالم الغربي، فبعد الثورة الفرنسية ونواتج فترة الأنوار انقسمت فرنسا وأوروبا بالتبع طبقاً للشكل أدناه:

شكل يمثّل انقسام التيارات ونشأة الكلاسيكيين

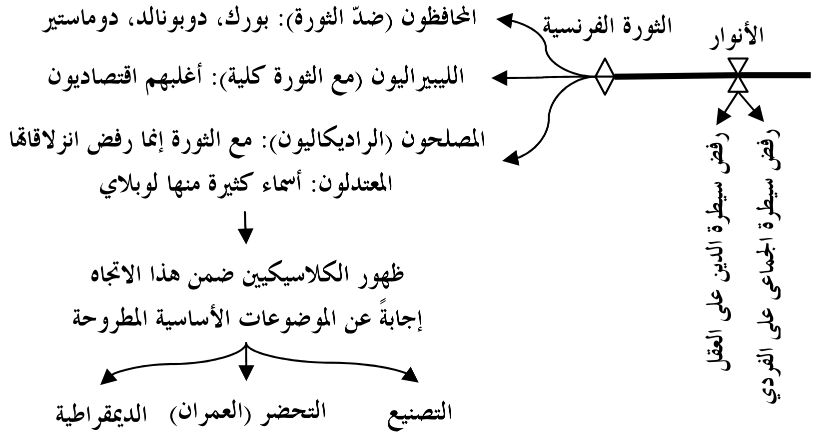

جدول يمثّل إجابة الكلاسيكيين عن مشكلة عصرهم

الرائد	المشكلة الأساسية في نظره	الحلّ
أوغست كونت	عدم وضوح المجال الاجتماعي	الاتجاه نحو العلم (الوضعنة)
دوتوكفيل	سيطرة الأقلية	تساوي الفرص
كارل ماركس	الاغتراب	التراكم المستمر للسلع
ماكس فيبر	خيبة الأمل	عقلنة أنماط التفكير
جورج سيمل	مأساة الثقافة	تسريع التبادلات
إميل دوركايم	زوال المرجعيات	إعادة تحديد العلاقات الاجتماعية

1- أوغست كونت (1798- 1857) A. COMTE:

أ- بيوغرافيا عن حياته:

- **1798** (19 جانفي): ولد في منتوبولي **Montpellier** بفرنسا من عائلة كاثوليكية ملكية، أبوه من الطبقة المتوسّطة.
- **1807- 1814**: الدراسة الثانوية في منتوبولي، ثمّ سرعانما انفصل عن الأفكار الكاثويكية وانضمّ إلى الأفكار التحرّرية والثورية.
- **1814- 1816**: كان الأوّل على دفعته (منتوبولي)، لذا التحق بالمدرسة المتعدّدة التقنيات (ميدي **Midi**).
- **1816** (أفريل): قرّرت الحكومة غلق المدرسة المتعدّدة التقنيات لعدّة أشهر بتُهمة "الجاكوبية"، فعاد إلى مونتبولي وأخذ دروساً في الطبّ والفيزيزلوجيا، ثمّ انتقل إلى باريس لتدريس الرياضيات (لضمان لقمة العيش).
- **1817** (أوت): أصبح سكرتيراً عند سان سيمون **Saint Simon**، وبقي مساعده وصديقه إلى غاية **1824**، وساعده خلال هذه الفترة في كتابة مؤلّفاته الأساسية: المُنظّم، الصناعة، النسق الصناعي...
- **1819- 1925**: إنجاز أعمال مختلفة منها ما كان ضمن مؤلفات سان سيمون، ومنها أعمال فردية في أحجام صغيرة.
- **1925**: زواجه بكارولين ماسين (مومیساء قديمة)، وقد اعتبر ذلك أكبر خطأ حدث في حياته.
- **1926**: بداية تأليف كتاب "دروس في الفلسفة الوضعية".
- **1826- 1827**: أزمة عقلية حادّة نتيجة وضعه العائلي والضغوطات الثقافية، بقي في المصحّة النفسية مدّة ثمانية (**08**) أشهر، وخرج قبل نهاية علاجه، وحاول الانتحار. وقد هدأت أزمته الذهنية بعد ذلك، ولأنّه كان واعياً بهذه الأزمة فقد وضع لنفسه نظاماً قاسياً إن صحيّاً

وإن نفسياً لمنع حدوث الأزمة من جديد.

- **1829** (**04** جانفي): العودة إلى مواصلة تأليف كتابه "دروس في الفلسفة الوضعية".
- **1830**: ظهور الجزء الأوّل من "دروس الفلسفة الوضعية"، ثم تعاقب الأجزاء الأخرى تبعاً: **1835**، **1938**، **1841**، **1842**.
- **1831**: تدريس علم الفلك، وطلبُه لمنصب في المدرسة المتعدّدة التقنيات، لكنّ طلبه رُفض.
- **1832**: عُيّن معيداً للتحليل الميكانيكي في المدرسة المتعدّدة التقنيات.
- **1842**: الانفصال النهائي عن السيدة كونت.
- **1843**: صدور كتابه "مدخل إلى عناصر التحليل الجيومتري".
- **1844**: نشر كتاب "عن الروح الوضعية"، وفقدانه لعمله والعيش على مساعدات (صدقات) الوضعيين، وبعض أغنياء انجلترا.
- التقاؤه بكلوتيلد دوفو **Clotilde Devaux**، أخت أحد تلاميذه البعيدة عن زوجها والبالغة **30** سنة.
- **1845**: إعلان (بعد سنة من حبّها) أنّها مجرد صديقة له.
- **1846** (**05** أفريل): موتها أمام عينيه، وتغيّر حياته من هذه اللحظة، إذ جعل من هذه المرأة مقدساً كبيراً.
- **1847**: إعلانه عن ديانة "الإنسانية" الجديدة.
- **1848**: تأسيس المجتمع الوضعي في "خطاب عن مجمع الوضعية".
- **1851**: صدور كتابه "المدخل إلى علم الاجتماع الصناعي والديانة الإنسانية"، وظهور أجزاء أخرى منه أعوام: **1852**، **1853**، **1854**.
- **1852**: إعلانه عن المسيحية الوضعية أو الديانة العالمية.
- **1857** (سبتمبر): موته في باريس.

ب- أهمّ إسهاماته:

1) قانون الحالات الثلاث: ويظهر في الشكل التالي:

شكل يبيّن قانون الحالات الثلاث عند كونت

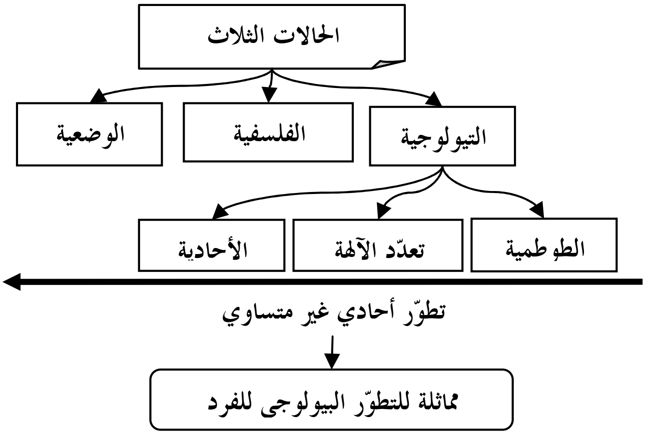

2) تصنيف العلوم: يُصنّفها وفقاً لتعقيدها ودرجة تجريدها، ويظهر علم الاجتماع في أدنى الهرم، حسب الشكل التالي:

شكل يبيّن تصنيف العلوم عند كونت

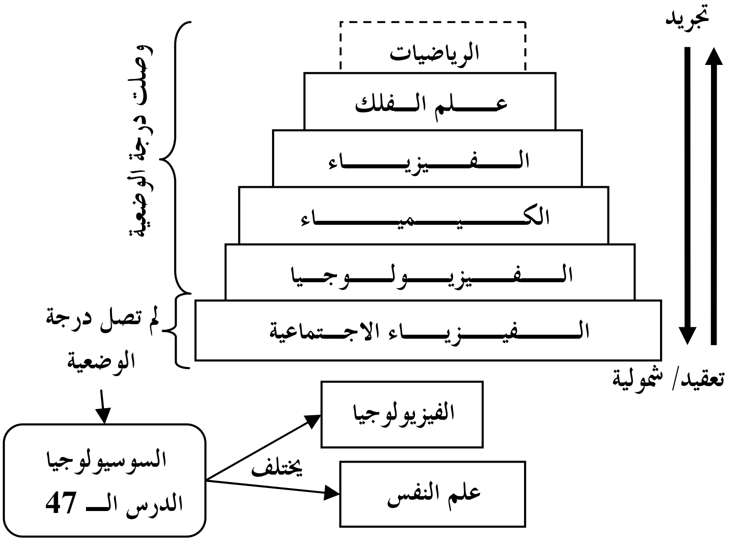

3) حالتا العلم: يُقسّم العلم إلى حالتين، الستاتيكية والديناميكية، تنحدر من كلّ واحدة منهما متطلبات يمكن توضيحها في الشكل التالي:

شكل يبيّن حالتا العلم عند كونت

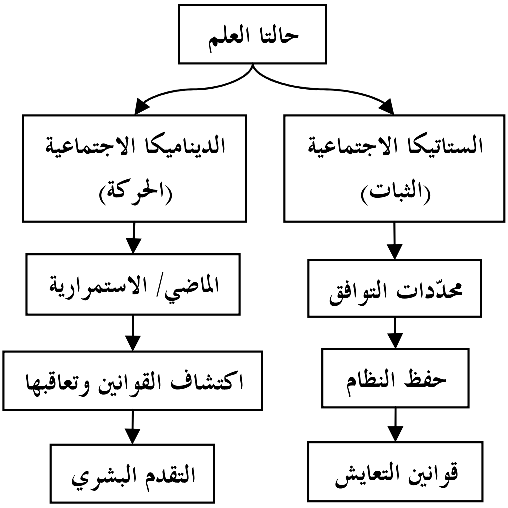

4) المنهج: كما ينقسم العلم عند كونت إلى قسمين، فالمنهج أيضاً ينقسم قسمين، سنكرونيكي ودياكرونيكي، يحكمهما متغيرا الزمان والمكان، كما هو واضح في الشكل التالي:

شكل يبيّن المنهج عند كونت

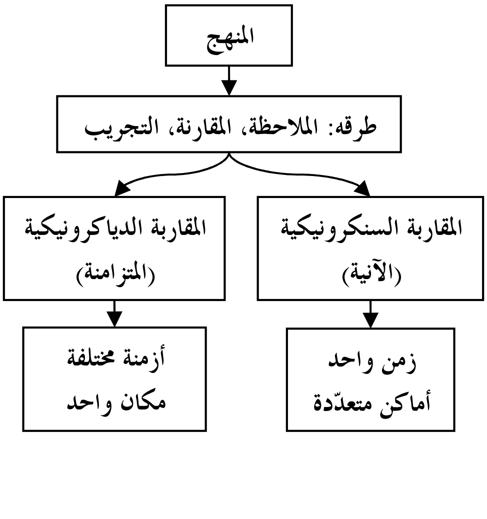

2- كارل ماركس (1818- 1883) K. MARX:

أ- بيوغرافيا عن حياته:

- 1818 (05 ماي): ولد في مدينة ترين Trien بروسيا، من عائلة ثرية أبوه محامي يهودي.
- تعلّم القانون في جامعة بون ثمّ برلين (تخصّص حقوق) وتلقّى بالجامعة دروساً في الفلسفة.
- ناقش رسالته في الدكتوراه في الفلسفة بعنوان: "الفرق في فلسفة الطبيعة بين أبيقور وديمقراطيس".
- 1842: رئيس تحرير صحيفة "الراين" (كانت ضدّ الحكومة الألمانية)، وتبنى الاتجاه الهيجيلي اليساري.
- 1843: تزوّج وانتقل إلى باريس وكتب "الحوليات الألمانية الفرنسية" وأصدر صحيفة "إلى الأمام".
- 1845: طُرد من باريس، واستقرّ في بروكسل (واحتدم صراع بينه وبين الاشتراكيين الفرنسيين خاصة برودون).
- 1845: توثّقت صلته بإنجلز في بروكسل (لقاءهما الأوّل في باريس).
- 1847: اجتمعا مرّة أخرى في لندن، وألّفا "البيان الشيوعي" ومن أجله طُرد من بروكسل وعاد إلى ألمانيا وشارك في الاضطرابات السياسية والاجتماعية بها (الرين).
- تأسيس الحزب الشيوعي" السرري.
- 1849: أقام في لندن وعاش في بؤس (لو لا نفقات زميله إنجلز عليه) ومات نتيجة ذلك ولديه، وحين توفيت ابنته لم يجد ثمن دفنها، وساءت حال زوجته ولم يكن يملك ثمن الدواء لعلاجها.
- كان يقضي أغلب وقته في المتحف البريطاني.
- 1883 (14 مارس): مات في لندن.

ب- أهمّ إسهاماته:

يصعب تصنيف كارل ماركس في تخصّص بعينه، فلم يذكر عبارة "علم الاجتماع في كتاباته، إنّما كان يسعى لتأسيس ما سمّاه "علم المجتمع". وقد قسّم الاشتراكية إلى: الاشتراكية المثالية (توماس مور، دو كومبنيلا...)، الاشتراكية الفوضوية (برودون)، الاشتراكية العلمية (يعتقد أنّه هو مؤسّسها).

وينتمي ماركس إلى أصحاب الطرح الماكرو- سوسيولوجي لأنّه يتناول المجتمع في كليّته بدل أجزائه، والحقب التاريخية الكبرى بدل الأحداث المنفردة. ويمكن إجمال أهمّ إسهاماته في:

1) المجتمع والطبقات: أهمّ ما يمكن تسجيله في الموضوع ما يلي:

- المجتمع لا يتطوّر إنّما ينهار كيفياً، ولا يعرف الاختلافات إنّما التناقضات التي تعمل على هذا التطوّر.

- قلب ماركس، حسب اعتقاده، الجدل الهيجيلي، فأسّس "المادية الجدلية" في نسقها العام والتي أخذت شكل "المادية التاريخية" ضمن النسق السوسيولوجي، والموضحة في الشكل التالي:

شكل يبيّن صراع الطبقات عبر التاريخ (المادية التاريخية)

مشاعي	عبودي	إقطاعي	رأسمالي	اشتراكي	شيوعي
لا طبقات	عبد/سيد	إقطاعي/قنّ	البرجوازي/ البروليتاري	البروليتارية وحدها	دون طبقات

- حدّد الطبقة بدقّة، فهي "تجمّع من الأفراد الذين يُؤدون نفس الدور في عملية الإنتاج". والحياة المادية تنقسم إلى: الحاجات المادية (مأكل، مشرب، مسكن، ملبس)، وحاجات النوع الإنساني (العلاقة بين الرجل والمرأة)، وحاجات جديدة تظهر بعد إشباع الحاجات السابقة. والحاجات هي التي تحدّد طبقتنا والعلاقة التي تربطنا بالآخر.

- ينقسم المجتمع إلى بنية فوقية وبنية تحتية، كما يظهر في الشكل التالي:

شكل يبين التصوّر الماركسية للمجتمع

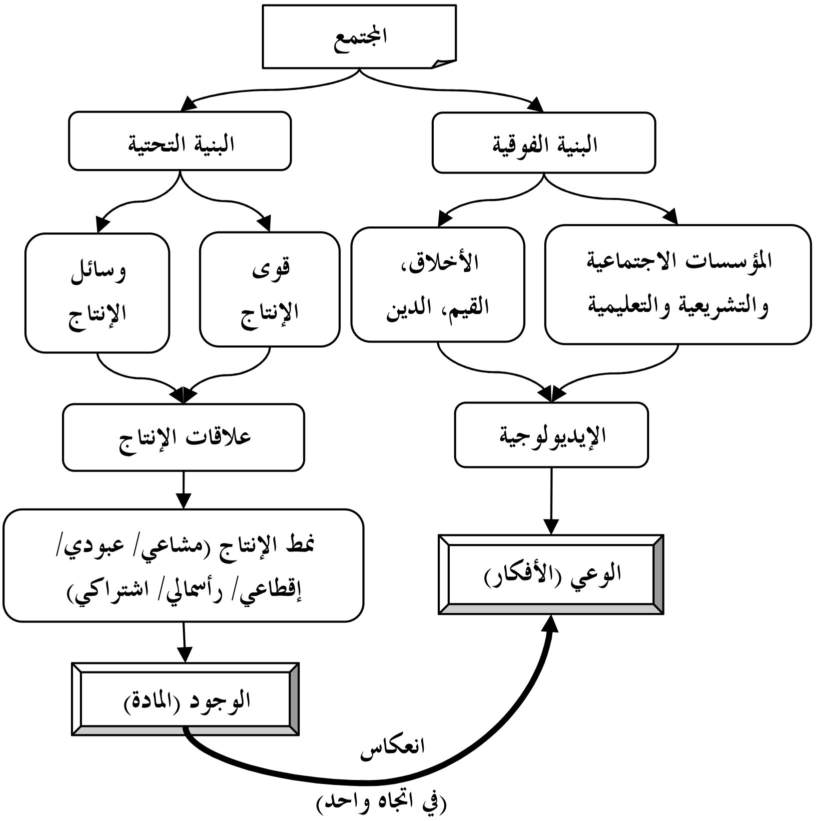

2) الاغتراب وفائض القيمة: الاغتراب فقدان القوّة والمعنى، الناتج عن التكنولوجيا. وهو رمز استغلال الطبقة العمالية، كما يُوضّح الشكل:

شكل يبيّن صيرورة عملية الاغتراب لدى العامل عند ماركس

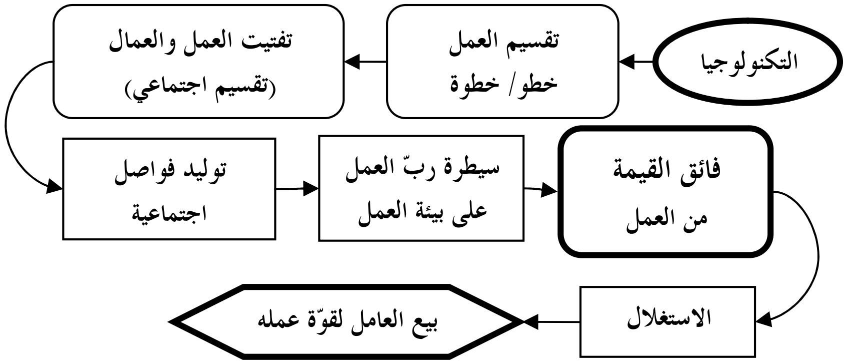

3- إميل دوركايم (1858- 1917) E. DURKHEIM:

أ- بيوغرافيا عن حياته:

- **1858** (15 أفريل): ولد في إيبنال **Epinal** من عائلة يهودية راهبة، مات أبوه صغيراً، ودرس في مسقط رأسه، انتقل إلى باريس لتحضير الدخول للمدرسة العليا العادية **ENS** في ثانوية لويس الأكبر **Louis Le Grand**.
- **1879**: دخل المدرسة العليا العادية.
- **1882**: حاز إجازة الفلسفة وعُيّن أستاذاً في **Saint Quentin**.
- **1885- 1886**: أخذ عطلة لمدّة سنة لدراسة العلوم الاجتماعية في باريس ثمّ في ألمانيا.
- **1886- 1887**: نشر بعد عودته من ألمانيا بـــ "المجلة الفلسفية" ثلاثة مقالات: "الدراسات الحديثة في العلوم الاجتماعية"، "العلوم الوضعية والعادية في ألمانيا"، "الفلسفة في الجامعات الألمانية".
- **1887**: عُيّن بقرار وزاري أستاذاً بيداغوجياً للعلوم الاجتماعية في كلية الآداب بجامعة بوردو **Bordeaux**، وهو أوّل منصب من هذا النوع يُستحدث في فرنسا.
- **1888**: نشر في "المجلة الفلسفية" مقالاً حول "الانتحار والخصوبة".
- **1891**: يُعطي توجيهات لطلبة الفلسفة بدراسة مؤسسي علم الاجتماع (مونتسكيو، كونت...).
- **1893**: ناقش رسالته في الدكتوراه: "في تقسيم العمل الاجتماعي" إضافة إلى أطروحة باللاتينية "مساهمة مونتسكيو في بناء العلم الاجتماعي".
- **1895**: صدور كتابه: "قواعد المنهج في علم الاجتماع".
- **1896**: أسس "السنة السوسيولوجية **L'année sociologique**"

لينشر فيها طلبته بخاصة.

- 1897: نشر كتابه "الانتحار".
- 1900: صدور مقال "الطوطمية" وبداية الاهتمام بالقضايا الدينية.
- 1902: عُيّن على رأس كرسي "البيداغوجيا" في السربون.
- 1906: رُسّم في كرسي البيداغوجيا في باريس، ودرّس بالتوازي علم الاجتماع.
- 1909: صدور كتاب "التيارات البيداغوجية الكبرى في فرنسا في القرن الثامن عشر".
- 1912: نشر كتاب "الأشكال الأولية للحياة الدينية".
- 1913: أخذ كرسيه في الجامعة تسمية "كرسي علم الاجتماع" بالسربون.
- 1915: فقد ابنه الوحيد المقتول في الحدود، وقد نشر كتابين مستقين من الحدث: "ألمانيا فوق الجميع"، "الذهنية الألمانية والحرب".
- 1917: (15 نوفمبر): وفاته بباريس.

ب- أهمّ إسهاماته:

1) الظاهرة الاجتماعية: يعتبر دوركايم أوّل من وضع ضوابط واضحة لتحديد مفهوم الظاهرة الاجتماعية ودراستها وتصنيفها، ويمكن اختصار ذلك في الأشكال التالية:

شكل يبيّن محدّدات الظاهرة الاجتماعية

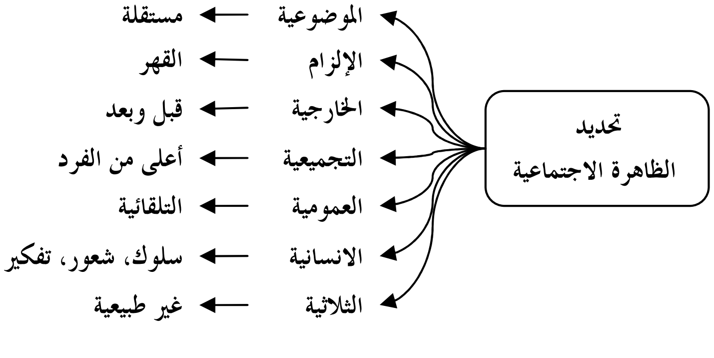

شكل يبيّن طريقة دراسة الظاهرة الاجتماعية

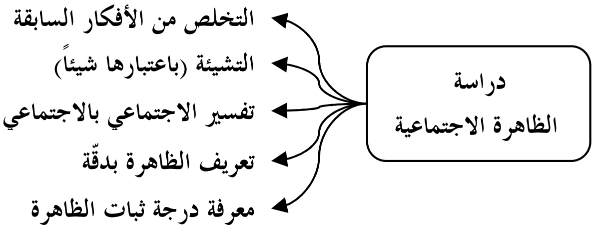

شكل يبيّن أنواع الظاهرة الاجتماعية

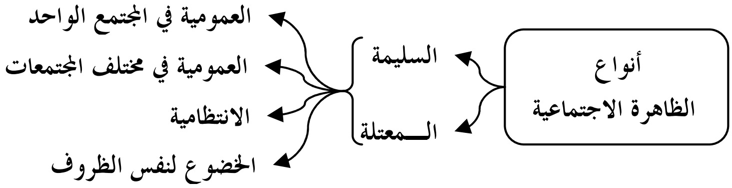

2) في تقسيم العمل الاجتماعي: هو رسالته في الدكتوراه، ويتّضح في:

شكل يبيّن تقسيم العمل الاجتماعي عند دوركايم

المجتمع = لا بد من أخلاق / الأخلاق = التضامن

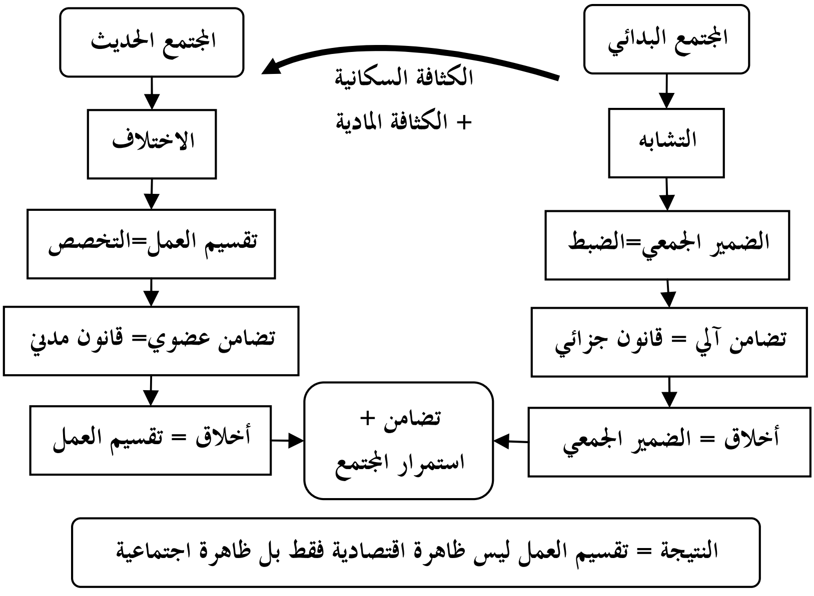

3) الانتحار: العمل الميداني الأكثر شهرة في علم الاجتماع، حاول من خلاله إخراج ظاهرة الانتحار من مجالها السيكولوجي المعتاد، إلى الأسباب الاجتماعية والتحليل السوسيولوجي، كما هو واضح في الأشكال التالية:

شكل يبيّن تعريف الانتحار عند دوركايم

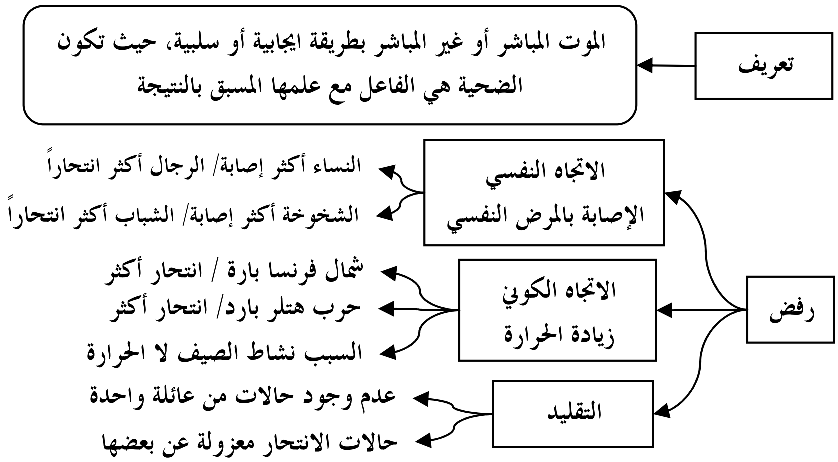

شكل يبيّن أسباب الانتحار وأنواعه عند دوركايم

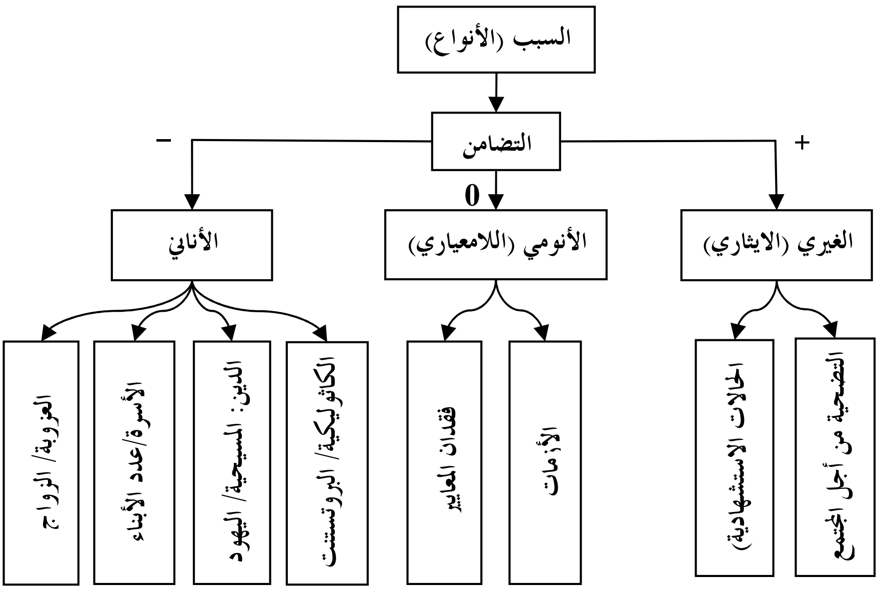

2) **الأشكال الأولية للحياة الدينية**: آخر أعمال دوركايم وقد شارك فيه بشكل واضح ابن أخته مارسيل موس، ورغم الأهمية التي يكتسيها هذا العمل إلاّ أنه جرّ عليه انتقادات شديدة خاصة في النتائج المتوصل إليها وإلغاء البعد الغيبي واعتباره من صناعة المجتمع لضمان التماسك والضبط الاجتماعيين، ويمكن اختصار هذا العمل في الشكل التالي:

شكل يبيّن تحليل الأشكال الأولية للحياة الدينية عند دوركايم

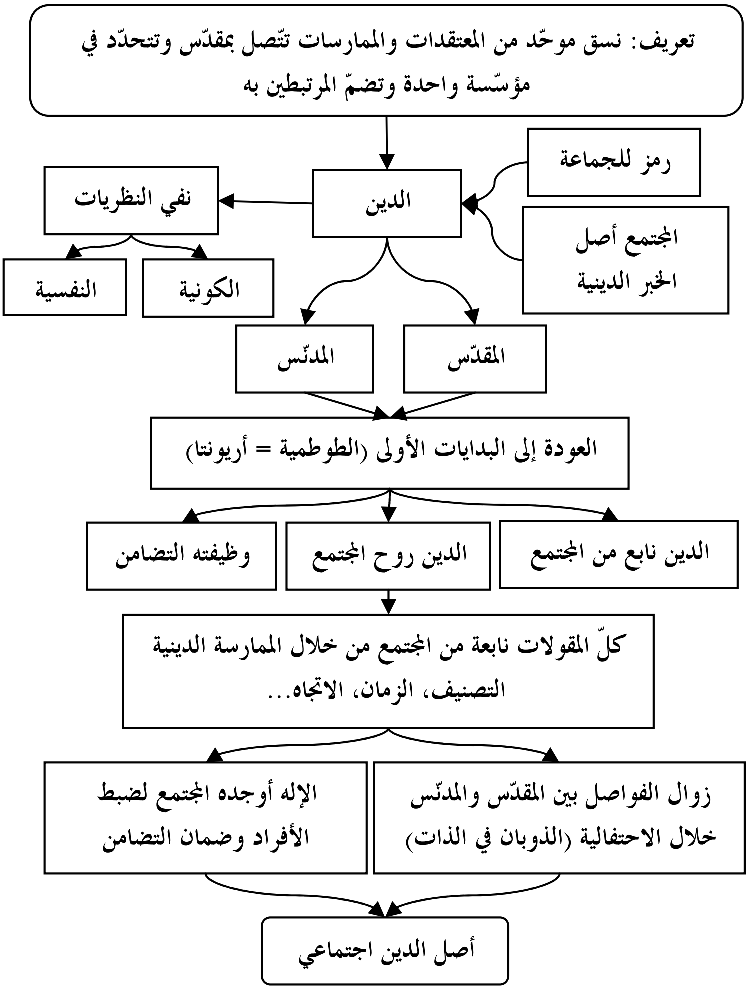

4- ماكس فيبر (1864- 1920) M. WEBER:

أ- بيوغرافيا عن حياته:

- **1864** (21 أفريل): ولد في أرفور **Erfurt** (في **Thuringe**) بألمانيا، أبوه قاض من عائلة صناعية ثرية، له ماض سياسي طويل، استقر في برلين 1869، وهو من التحرّرين، وأمّه من عائلة جدّ مثقّفة عُرفت باهتماماتها بالقضايا الدينية والاجتماعية، وقد تعرّف فيبر في صالون أبيه على أهمّ رجالات الفكر والسياسية في عصره بألمانيا.
- **1882**: بعد دراسته الابتدائية والثانوية بدأ دراسته الجامعية في جامعة هيدلبارغ **Heidelberg** بكلية الحقوق ثمّ درس التاريخ وانتقل بعد ذلك للاقتصاد، ثمّ الفلسفة ثمّ التيولوجيا (تعدّد التخصّصات أمر عادي في ألمانيا زمانه).
- **1883**: قضى عاماً في الخدمة العسكرية في ستراسبورغ **Strasbourg** باعتباره جندياً بسيطاً (بعد سداسيين جامعيين) ثمّ ضابطاً، وكان فخوراً بذلك.
- **1884**: استأنف دراسته في جامعات برلين وغوتنغن **G?ttingen**.
- **1886**: اجتاز اختباراته الأولى في الحقوق.
- **1887- 1888**: شارك في عدّة تظاهرات عسكرية بألسكا وبروسيا الغربية. وأصبح عضواً في جماعة الجامعيين للعلوم الاجتماعية، هذه الجمعية التي تأسّست عام 1872 من قبل شمولر **G. Schmoller** وسيطر عليها "الاشتراكيون الجامعيون".
- **1889**: ناقش رسالته في الدكتوراه ببرلين في موضوع "تاريخ المؤسّسات التجارية في العصور الوسطى". ثمّ تعلّم الإيطالية والاسبانية، وسجّل نفسه في محكمة برلين "**Barreau**".
- **1890**: أجرى تحقيقاً عن واقع الفلاحين في بروسيا الغربية بطلب من

جمعية العلوم الاجتماعية.

- **1891**: قدم أطروحته للتأهيل الجامعي "تاريخ الأراشي الرومانية ودلالته في القانون العام والخاص"، وهي التي سمحت له بمنصب في كلية الحقوق ببرلين، من هنا بدأ مساره أستاذاً جامعياً.
- **1892**: وضع تقريره عن وضعية العمّال الريفيين بألمانيا الغربية.
- **1893**: زواجه بـ **Marianne Schnitzer**.
- **1894**: أصبح أستاذ الاقتصاد السياسي بجامعة فريبور **Fribourg**.
- **1895**: رحلته إلى اسكتلندا (**Ecosse**) وايرلندا.
- **1896**: قبوله لمنصب كرسي بجامعة هيدلبارغ **Heidelberg** (خلفاً لـ **Knies**).
- **1897**: أُصيب بأزمة عصبية خطيرة، أوقفته عن كلّ أعماله لمدّة أربع (**04**) سنوات، فسافر خلالها إلى إيطاليا وكورسيكا وسويسرا تخفيفاً لاضطراباته وقلقه.
- عاد للتدريس في هيدلبارغ، دون أن تكون له حياة جامعية كالسابق.
- **1903**: أسّس مع سومبر **W. Sombart** جمعية علم الاجتماع.
- **1904**: رحلته إلى الولايات المتحدة الأمريكية لحضور مهرجان للعلوم الاجتماعية في سان لويس، وقد أثر فيه العالَم الجديد بقوّة، وقدّم في سان لويس محاضرة عن "الرأسمالية والمجتمع الريفي في ألمانيا".
- نشر الجزء الأوّل من: "الأخلاق البروتستانتية والروح الرأسمالية". و"مدخل إلى الموضوعية في المعرفة في العلوم السياسية والاجتماعية".
- **1905**: أجبرته الثورة البروسية على الاهتمام بالملكية "**Tsars**" الروسية، فتعلّم الروسية لقراءة الكتب الأصلية.
- نشر الجزء الثاني من "الأخلاق البروتستانتية والروح الرأسمالية".
- **1906**: صدر كتابه: "وضعية الديمقراطية البرجوازية في روسيا".
- **1907**: سمح له ميراثه بالتقاعد والتفرّغ للعلم.

- 1908: اهتم بعلم النفس الصناعي، ونشر بحثين في الموضوع. واستقبل في صالونه أغلب المفكرين الألمان في زمانه: سيمل، تونيز، ترولتش... ووجّه العديد من الطلبة في أعمالهم مثل لوكاتش.
- أعاد تنظيم الجمعية الألمانية لعلم الاجتماع، وأطلق حملة جمع كتب العلوم الاجتماعية.
- 1909: بدأ في كتابه: "الاقتصاد والمجتمع".
- 1910: أعلن موقفه المعادي من العنصرية الألمانية.
- 1912: استقال من الجمعية الألمانية لعلم الاجتماع لاختلافه مع العديدين فيها حول مسألة "الحيادية المعرفية".
- 1913: صدور "محاولات في علم اجتماع الفهم".
- 1914: اندلاع الحرب، وطلبه العودة للخدمة، فكُلّف بتسيير مجموعة من المستشفيات في هيدلبارغ.
- 1915: نشر كتابه: "الأخلاق الاقتصادية في الديانات العالمية".
- 1916- 1917: قام بعدّة مهام رسمية ببروكسل، النمسا، بودباست... وكان يسعى لإقناع المسؤولين لتقليص الحرب بألمانيا، مع دفاعه عن بلده واعتبار روسيا أكبر مهدّد في المنطقة.
- 1918: سافر إلى النمسا لتقديم درس بالجامعة في علم الاجتماع السياسة والدين، باعتباره نقداً لتصوّرات المادية التاريخية.
- نشر بحثاً عن الحيادية في نظريّة المعرفة (علم الاجتماع والاقتصاد).
- 1919- 1920: قبول كرسي بجامعة "ميونخ" وانصبّت دروسه في التاريخ الاقتصادي العام.
- 1920: نشر صفحات من كتابه: "الاقتصاد والمجتمع"، والذي قامت زوجته بنشره كاملا بعد موته سنة 1922، وقد صدر في نسخة مطوّرة سنوات 1925، 1956.
- 1920 (14 جوان): مات في ميونخ.

ب- أهمّ إسهاماته:

لم يقصد في بداية مساره المساهمة في تأسيس علم الاجتماع، والتحق بالسوسيولوجيا متأخراً. وغالباً ما يُوضع في الطرف النقيض لدوركايم على مستوى الموضوع والمنهج، فدوركايم مؤسّس الاتجاه الكلاني **Holiste**، وفيبر وراء الاتجاه الفرداني في عمومه، وهو مؤسّس علم اجتماع الفهم.

1) موضوع علم الاجتماع: يمكن تلخيصه في الشكل التالي:

شكل يبيّن تحليل الفعل الاجتماعي عند فيبر

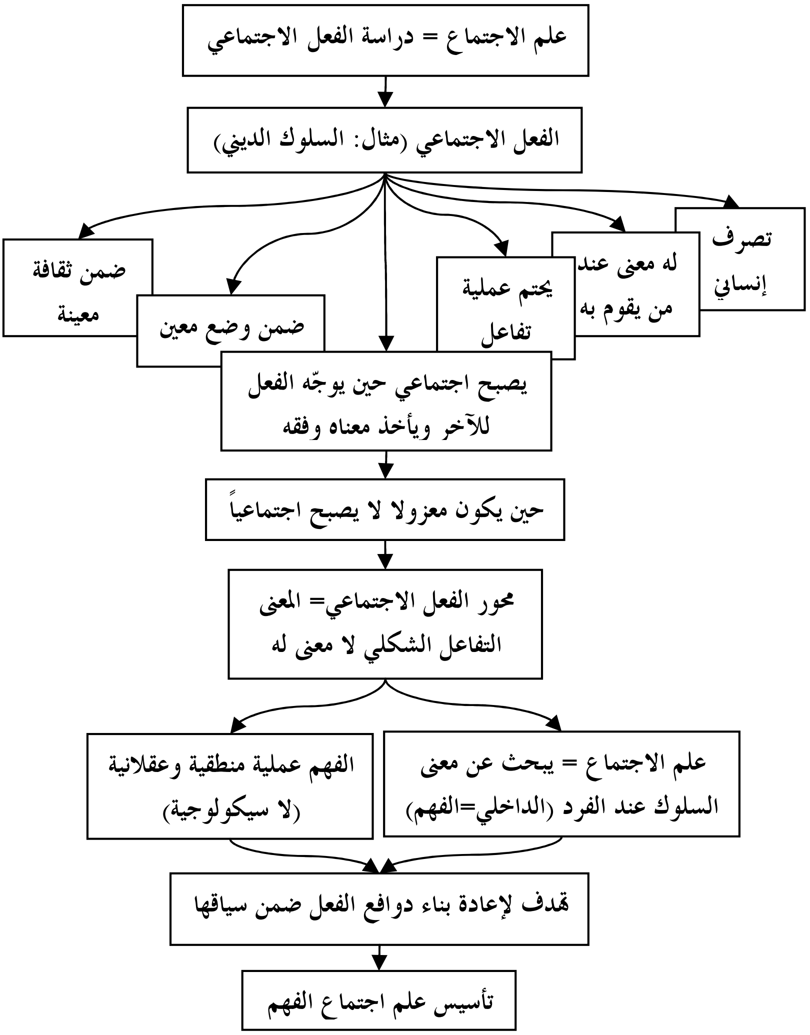

2) المنهج الفيبري: اهتمّ مفكّرنا كثيراً بقضية المنهج، حتّى أنّها طبعت كامل تصوراته، وأسّست لاتجاهٍ قائم بذاته يُدعا "علم اجتماع الفهم"، الذي يرتكز على الدخول إلى عمق الفاعل من جهة، وتركيب، من جهة أخرى، نموذج للتحليل ينطلق من رؤية مجرّدة تصعد بالواقع إلى أقصى حالاته ضمن ما أسماه "النموذج المثالي" ليترل مرّة أخرى تدريجياً حتّى يتطابق مع عناصر الواقع الفعلي. ويمكن توضيح ذلك من خلال الشكل الموالي:

شكل يبيّن تحليل علم اجتماع الفهم عند فيبر

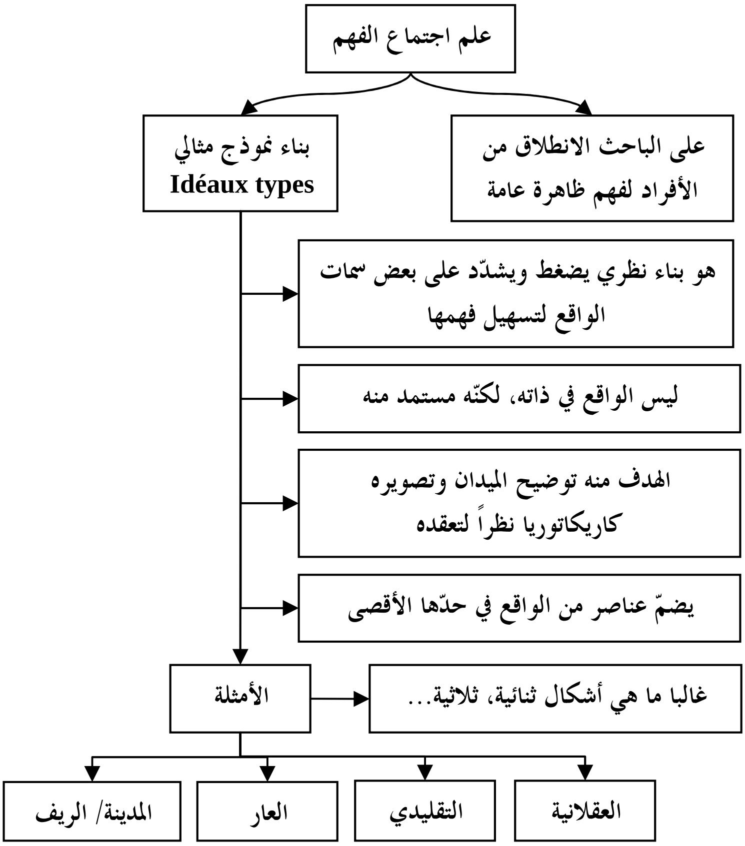

3) أصل الرأسمالية المعاصرة: يختصره فيبر في الشكل التالي:

شكل يبيّن تحليل الأخلاق البروتستانتية والروح الرأسمالية عند فيبر

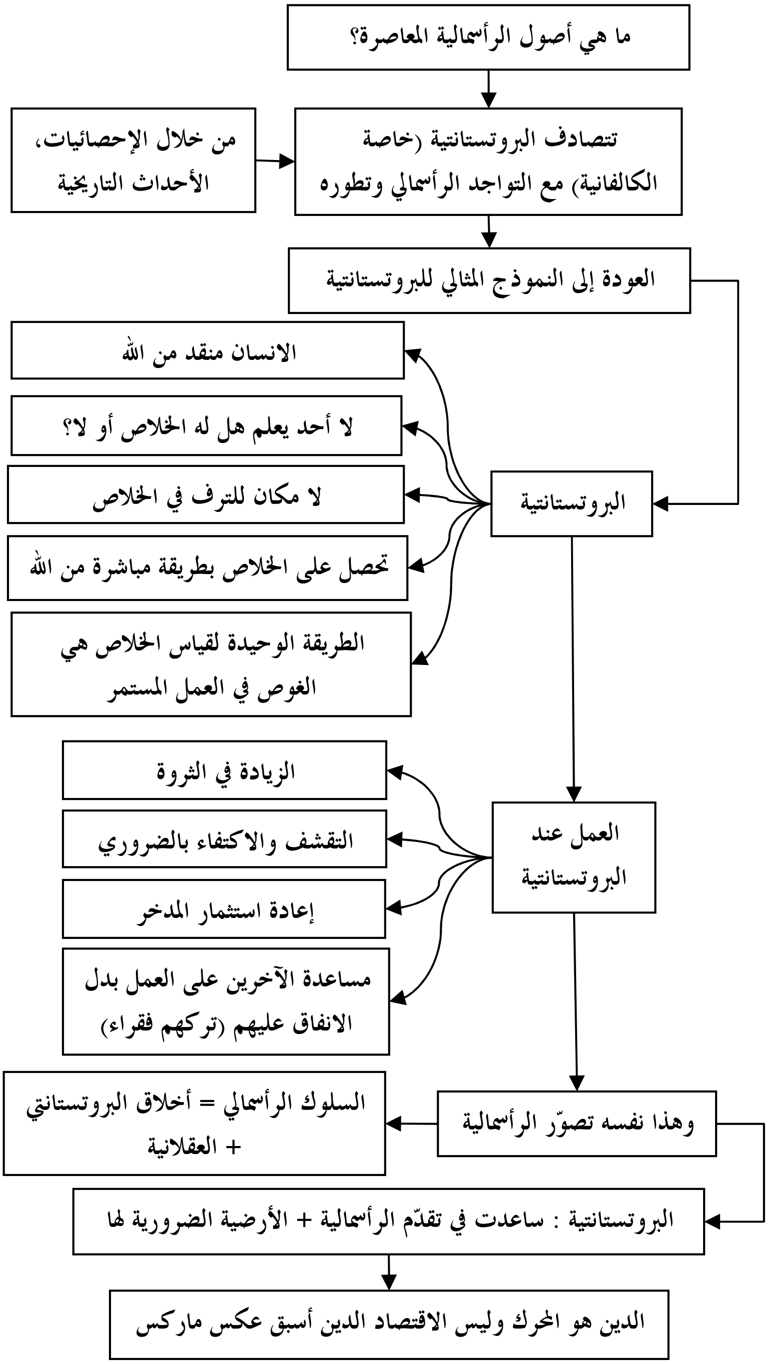

4) العقلانية أساس المجتمعات المعاصرة: يرى فيبر أنّ العقلانية هي السمة الأساسية التي تميّز المجتمع المعاصر، وإن لم يُخصّص كتاباً قائماً بذاته لهذه الظاهرة، فهي واضحة في كلّ مؤلفاته تقريباً، ويمكن تلخيصها في الشكل التالي:

شكل يبيّن تزايد العقلانية في المجتمع المعاصر عند فيبر

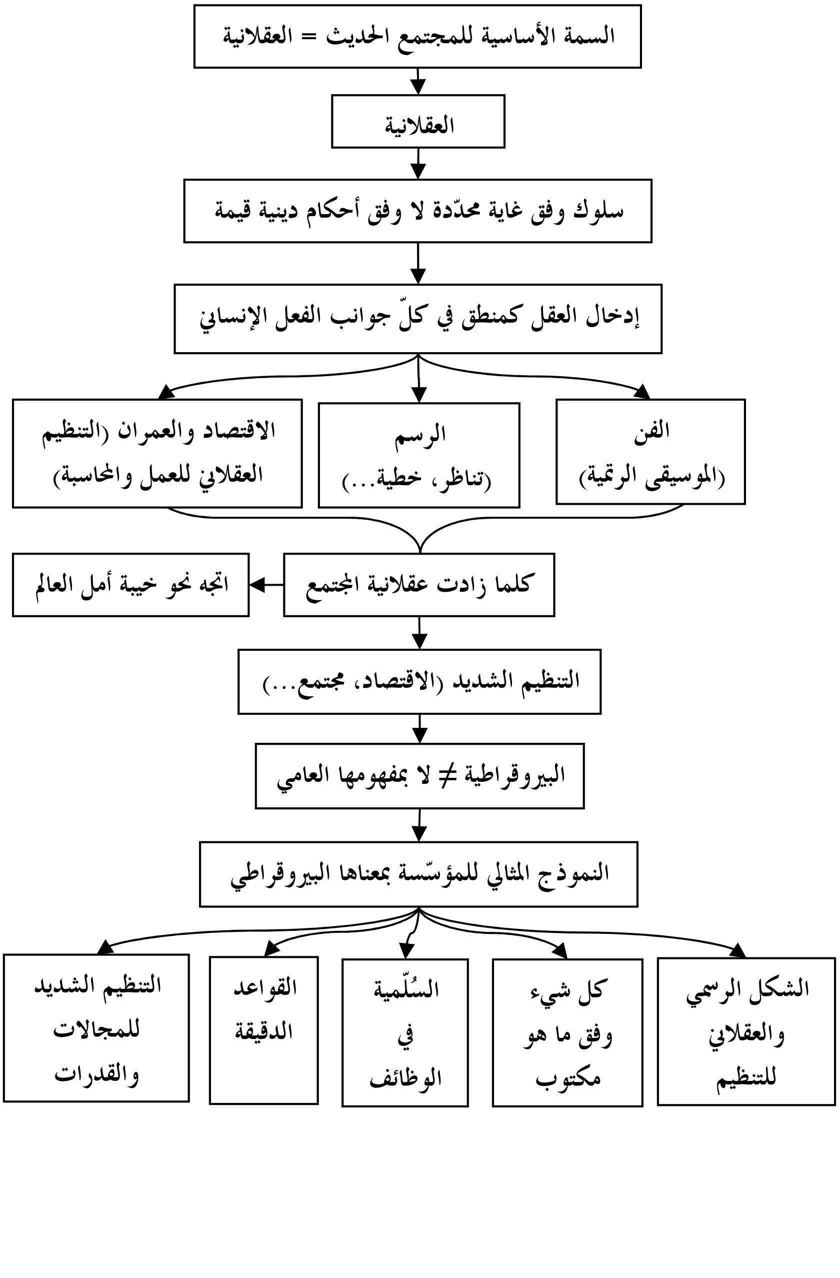

5- تالكوت بارسونز (1864- 1920) T. PARSONS:

أ- بيوغرافيا عن حياته:

- ولد في أمريكا بمنطقة كولورادو سبرينغ Colorado Spring.
- درس في أوروبا البيولوجيا والفلسفة، واكتشف خلال تواجده بها العلوم الاجتماعية.
- عاد إلى أمريكا واشتغل مدرّساً في هارفارد (أستاذ علم الاجتماع).
- 1937: نشر كتابه: "بناء الفعل الاجتماعي The Structure Of Social Action".
- 1951: صدر كتابه: "النسق الاجتماعي Social Systeme".
- نتيجة تعقّد أسلوبه وتجريد أفكاره، لم تُترجم أعماله كثيراً للغات الأخرى وبقيت حبيسة اللغة الإنجليزية.
- تهدف كتاباته إلى تشكيل بناء نظري يُدعى "البنائية الوظيفية".

ب- أهمّ إسهاماته:

1) **البناء والوظيفة**: وهنا يمكن الإشارة إلى ما يلي:

- وقف ضدّ الإمبريقية بخاصة إمبريقية "بول لازارسفيلد" والإمبيريقية في الولايات المتّحدة الأمريكية عموماً. وجمع بين عناصر البنائية والوظيفية فهي:
  - o البنائية: دراسة المجتمع باعتباره "الكلّ".
  - o الوظيفية: دراسة وظائف الأجزاء (الأنساق الجزئية).
- يرى أنّه يجب التفكير في المجتمع باعتباره "نسقاً اجتماعياً" ينحدر إلى أنساق فرعية لكلٍّ منها وظيفة معيّنة.
- نلاحظ تأثّره بالبيولوجيا، إذ يعتبر المجتمع شبيهاً بجسم الكائن الحي الذي يتشكّل من أعضاء تختلف عن بعضها بعضاً لكنّها تعمل للحفاظ على الوظيفة العامة المحدّدة سلفاً من قبل النسق.
- يجب دراسة كلّ عنصر في علاقته بالتنظيم العام، واستقرار كلّ عنصر

يتحدّد بالسير الحسن لوظيفة الكلّ والعناصر الأخرى.

– على الباحث التفكير في المجتمع بكليته، وفي الأنساق الفرعية في علاقتها الوظيفية.

2) موضوع علم الاجتماع ووظيفته:

موضوع علم الاجتماع عند بارسونز هو البحث في دلالة الأفعال الإنسانية، ولا يمكن فهم هذه الأخيرة إلا بالربط بين الوظائف التي تشغلها والبنية الاجتماعية، لهذا نجد أنّ:

– الفاعلين يوجّهون أفعالهم (الفعل الاجتماعي) بشكل قصديّ نحو أهداف محدّدة.
– تشكّل هذه الأفعال الاجتماعية نسقاً متكاملاً.
– تتأثّر هذه الأفعال بمجموع القيم المشكّلة للمجتمع.
– تساهم هذه القيم من خلال تأثيرها على الأفعال في إدماج الفرد داخل النسق (الجسم) الاجتماعي.

هدف علم الاجتماع بالتالي هو "بناء نظريّة تحليلية لأنساق الفعل الاجتماعي، بالشكل الذي يمكن لهذه الأنساق فهمها من خلال طبيعة الاندماج القائم على القيم المشتركة".

3) الأنساق الفرعية:

يتفرّع "النسق العام" للفعل الاجتماعي إلى أنساق اجتماعية فرعية " **Sous Systèmes sociales**" هي:

– النسق الاجتماعي.
– النسق الثقافي.
– النسق السيكولوجي (النفسي).
– النسق البيولوجي.

ويُجمَع عادةً النسقان الأخيران في ما يسمّيه "النسق الشخصاني" أو "نسق الشخصية"، وما يهمّ المختصّ في علم الاجتماع هو النسق الأوّل "النسق

الاجتماعي" الذي يتفرّع بدوره إلى أنساق فرعية جزئية هي:

- النسق السياسي.
- النسق الاقتصادي.
- النسق الإدماجي Intégratif.
- نسق نماذج الثقافة المؤسّساتية (المتفرّعة عن النسق الثقافي).

فحين يقوم الفرد بفعل معين، يندرج ضمن نسق معيّن أو نسق فرعي، والذي يشغل وظائف معيّنة ما يسمح للنسق الكليّ بتنظيم نفسه وضمان بقائه.

شكل يبين الأنساق والأنساق الفرعية عند تالكوت بارسونز

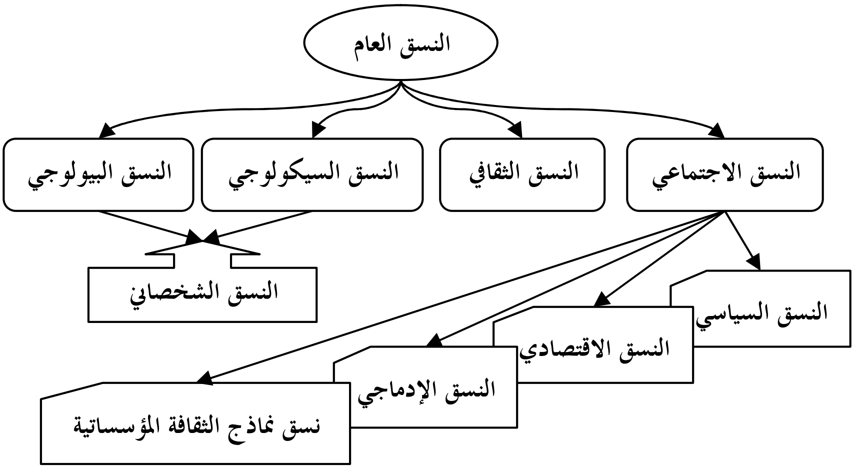

4) **المتطلبات الوظيفية:**

تؤدي الأنساق أربع وظائف رئيسة تختزل في ما سمّاه بارسونز "مخطّط AGIL"، الذي اختصار لــ:

- **Adaptation**
- **Goals attainment**
- **Integration**
- **Latent pattern maintenance**

1- وظيفة التكيّف مع المحيط الخارجي: تسمح هذه الوظيفة للنسق بضرورة العودة إلى المصادر الموجودة في محيطه.

2- وظيفة تحقيق الأهداف: تسمح للنسق بتحديد أهدافه وإعطاء الوسائل

التي تسمح بتحقيقها.

3-وظيفة اندماج النسق: تسمح بالربط بين مختلف الأجزاء قصد ضمان استقرارها.

4-وظيفة الحفاظ على النماذج الكامنة: تسمح بإنتاج وإعادة إنتاج القيم المشتركة لمجموع المجتمع ما يسمح للأفراد بتفعيل أفعالهم.

5) مؤسّسات المتطلبات الوظيفية:

نجد داخل المجتمع مجموعة مؤسّسات تسمح بتحقيق هذه الوظائف هي:

1-بنى التنشئة الاجتماعية: مثل العائلة التي تضمن "الاستقرار المعياري" وبالتالي وظيفة الحفاظ على النماذج "L".

2-البنى القضائية والاتحاديات "المشتركة والمجتمعية": تشغل وظيفة الاندماج "I".

3-البنى السياسية: التي تسمح بتحقيق الغايات، الوظيفة "G".

4-البنى الاقتصادية: التي تسمح بالتكيّف مع الوسط الخارجي.

رغم بقاء وسيطرة السوسيولوجية البارسونزية على علم الاجتماع وبخاصة الأمريكي حتّى الستينيات فقد تعرّضت لعدّة انتقادات، منها:

- البعد عن الموضوعية والجانب الإيديولوجي للنظرية.
- ترصيف الكلمات والابتعاد عن كونها نظريّة منسجمة.

شكل يبيّن المتطلبات الوظيفية ومؤسّساتها

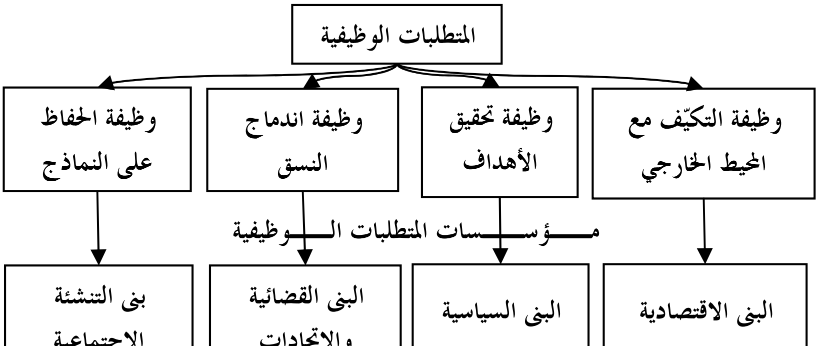

6- ميشال كروزي (1922-)

أ- بيوغرافيا عن حياته:

- 1922: ولد في سان منهولد Saint Menehould (مارن Marne).
- 1949: تخرج من HEC بدرجة دكتوراه في الحقوق.
- 1969: حصل على دكتوراه في الأدب.
- أغلب تكوينه كان في الولايات المتحدة الأمريكية.
- أغلب مساره المهني كان في CNRS (المركز الوطني للبحث العلمي) بفرنسا.
- 1961 – 1993: أسّس ضمن CNRS وحدة أطلق عليها "مركز علم اجتماع التنظيمات".
- أجرى عدّة أبحاث ميدانية، في المؤسّسات العمومية أولاً ثمّ المؤسّسات الكبرى، ثمّ المؤسّسات المختلفة (الصغيرة، التربية، المستشفيات).
- أوّل كتبه "الموظّفون الصغار Petits fonctionnaires" (خصّص الجزء الأوّل منه لدراسة التنظيمات، والجزء الثاني للنقد الليبيرالي للبيروقراطية).
- 1963: صدور كتاب: "الظاهرة البيروقراطية Le phénomène bureaucratique".
- 1967: بدأ مساره أستاذاً جامعياً في جامعة نونتار "Nanterre" ثمّ في جامعة هارفرد.
- 1970: عُيّن مدير بحث في CNRS.
- 1977: صدور كتابه "الفاعل والنسق L'acteur et le système".
- 1979: نشر كتابه: "لا نغيّر المجتمع بقرار On ne change pas la société par décret".
- 1987: كتابه: "المجتمع المسدود La société bloqué".

- 1999: عضو في أكاديمية العلوم الأخلاقية والسياسية.
- كان ترتسكيّ Trotskiste التوجّه يدافع منذ سنوات عن إدارة ليبيرالية نقدية في فرنسا.

ويعتبر ميشال كروزي أوّل من دعا إلى فكرة "التدخل السوسيولوجي" في فرنسا. ويرى أنّ وظيفة السوسيولوجي هي البحث عن علاقات السلطة داخل أيّ تنظيم اجتماعي مهما كان. ودراساته وإن كانت عن المنظّمات إلاّ أنّه كان يطمح لتوسيعها على جميع قطاعات المجتمع.

ب- أهمّ إسهاماته:

1) التحليل الاستراتيجي: يمكن تلخيصه في النقاط التالية:

- دراسة علاقات التأثير والتفاوضات بين الفاعلين الاجتماعيين.
- المنظمة ليست نسقاً مغلقاً، بحيث تكون علاقات السلطة بداخلها محدّدة مسبقاً بشكل نهائي.
- فالمنظمة نسق يُكيّف بداخلها الفاعلون استراتيجيات معينة.
- لا يتصرّف الفاعل ضدّ النسق إنّما باللعب به أو بداخله.
- لا يتمّ التلاعب بالفاعل من قبل قوى خارجية، ولكن عن طريق فاعلين آخرين من داخل المنظّمة ذاتها.
- يحاول الفاعل أن يكون سيّداً على "منطقة اللايقين" لزيادة سلطته داخل المنظمة.
- يقوم التحليل الاستراتيجي بالبحث عن علاقات السلطة في سياق "اللايقين" وفي ظلّ ما يريد فعله المتعاقدون وما ينوون التصرف به.
- يفترض كروزي أنّ سلوكات الفاعلين مقصودة وموجّهة تبعاً لحوافز محدّدة.

2) منطقة اللايقين:

- منطقة يدور فيها كلّ فاعل لضمان هامش من الحرية.

- تسمح منطقة اللايقين لكلّ فاعل ببناء معبر للسلطة يجبر الفاعلين الآخرين في المنظّمة بفتح مجال للتفاوض معه.
- تتشكّل من مجموع المعارف والخبرات التي يملكها أحد الفاعلين داخل المؤسّسة ويحتكرها لنفسه فقط، ويستخدمها أداةً للتفاوض حول بعض مطالبه الخاصة أو الوصول إلى مستويات عليا داخل النسق السلطوي للمنظمة.

يقدّم كروزي أمثلة متعدّدة ومعقّدة في الموضوع، ولعلّ من الأمثلة الكلاسيكية والأكثر بساطة، ما يتعلّق بمنصب "الكاتبة" أو السكرتيرة التي تنظّم الوثائق بطريقة معيّنة لا يستطيع كلّ الأفراد الوصول إليها بسهولة، وبخاصة رئيس مصلحتها، فإذا طلب هذا الأخير إحدى الملفات تماطلت وادعت أنّها تبحث عنه، فتستغل الفرصة للضغط عليه من أجل طلب خدمة خاصة كعطلة استثنائية مثلا، كما قد تقف عائقاً أمام كلّ من يريد الاتصال بمسؤولها لتظهر بأنّها صاحبة سلطة داخل المؤسّسة ويجب العودة إليها في كلّ صغيرة وكبيرة، أو من أجل تمرير هذا على حساب ذاك، وقد تطلب خدمة من أحد الزبائن.

من ذلك أيضا عمال الصيانة أو حتّى العمال العاديون الذي يعمدون إلى تخريب الآلة (نزع إحدى أجزائها مثلاً) للاستفادة من فترات راحة أو المطالبة بزيادة أجورهم، أو مهندس الإعلام الآلي الذي يملك شفرة الدخول إلى أجهزة الكمبيوتر ولا يعطيها لأيّ كان ليعود له الفاعلون الآخرون باستمرار فيبدو أنّه صاحب مكانة وقد يترقى نتيجة ذلك، وقد يطلب خدمات مقابل إصلاح جهاز كتوظيف أحد أقاربه مثلا. وأبرز مثال أيضاً عدم تحديد الفاعل لصلاحيات وحدود عمله ما يجعله يتدخل في كلّ المستويات وبطريقة قد تبدو شرعية داخل المؤسّسة، أو عدم إبلاغ المسؤول موظفيه بالقوانين التي تنظّم علاقات العمل كي لا يتعرّفوا على حقوقهم فيطالبوه بها أو قد يتجاوزونه بقدراتهم وكفاءاتهم.

7- ألان توران A. TOURAINE (1925-)

أ- بيوغرافيا عن حياته:

- 1925: ولد في هارمنفيل Hermanville (كالفادوز Calvados) بفرنسا.
- 1950: درس في المدرسة العليا العادية ENS، وحصل على شهادة إجازة في التاريخ.
- 1952 – 1953: درس في الولايات المتحدة الأمريكية، بجامعات: هارفرد، كولومبيا، شيكاغو.
- 1955: كتابه: "تطور العمل في مصانع Renaut".
- 1958: أسّس مخبر علم اجتماع الصناعي.
- عُرف في بداية مساره العلمي بأبحاثه عن علم اجتماع العمل.
- 1960: عيّن مدير الدراسات في المدرسة السياسية للدراسات العليا.
- 1966 – 1969: درس في كلية الآداب في نونتار Nanterre.
- 1970: أسّس مركز الدراسات في الحركات الاجتماعية.
- 1974: كتابه: "من أجل علم الاجتماع".
- 1981 – 1993: أسّس مركز التحليل والتدخّل السوسيولوجي.
- 1984: كتابه: "الحركة العمالية (مع Dubet و M.Wieviorka)".
- 1984: صدور كتابه: "عودة الفاعل Le retour de l'acteur".

ب- أهمّ إسهاماته:

1) الحركة العمالية: تناول ضمن الحركة العمالية ما يلي:

أ- المراحل: حسب توران مرّت الحركة العمالية بمجموعة من المراحل على شكل أنساق، هي كالتالي :

1- النسق الاحترافي: وتتميّز بـــ:

- الفرق بين المسيّر والعامل.

- استقلالية العامل المحترف
- تأهيل عالي للعامل يؤهله لممارسة سلطته في اتخاذ القرارات.

2- النسق التقني (التايلورية والفوردية): تتميّز هي الأخر بـــ:

- كانت نهاية القرن التاسع عشر
- تجزئة المهام (تصميم، إنتاج، تسيير، تنفيذ)
- نزع سلطة القرار من العامل وإعطائها للمهندس.

3- النسق الأتوماتيكي: خصائصها هي:

- تسيير العمال لأنساق تقنية (الربو، سلسلة...)
- ربط العمل بخصائص المراقبة، الاتصال...، والتي هي خصائص شخصية أكثر منها مهنية (التركيز، المسؤولية...).

ويرى أنّ الانتقال في هذه المراحل: تطوري وتدرجي.

ب- الموقف العمالي: يتكون من العناصر التالية:

- مكننة العمل.
- مستوى ونوع الأجرة
- طرق التنظيم وتسيير المؤسّسة.

ويتطوّر الموقف العمال حسب الشكل التالي:

شكل يبيّن خصائص المرحلة العمالية عند توران

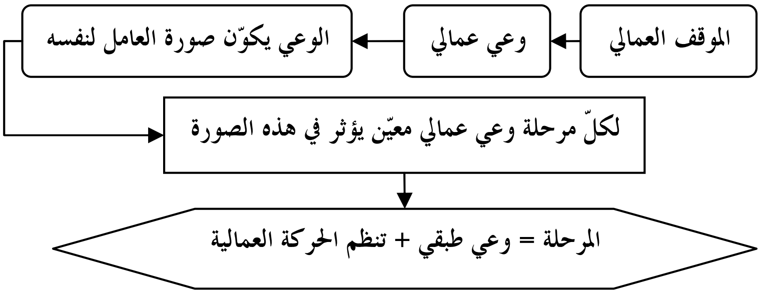

وتطبيقا لهذا المخطّط نحصل على خصوصيات المراحل السابقة في الجدول التالي:

المرحلة	الموقف العمالي	الوعي (المطالب)
الأولى	العمال في المركز الاقتصادي	المطالبة بتقسيم الأرباح
الثانية	كثافة العمال في المكان الواحد، الاستمرارية في العمل، عمال غير مؤهلين (فلاحون في الأصل)	مطالب عامة
الثالثة	عزل العمال في أماكن العمل، فردنة الوعي والوضعية (العقلنة).	مطالب خاصة (لكلّ مجموعة مطالبها)، ضعف النقابة (من نقابة المطالبة إلى نقابة المشاركة أقل تعبيرية وأكثر عقلانية)

النتيجة: الحركة العمالية لا تتحدّد من خلال ذاتها، إنّما من خلال مكانتها في المجتمع ووفقاً للتغير الاجتماعي العام الذي تُحدثه، ما دفع بآلان توران بالتالي للاهتمام بالتغير الاجتماعي.

2) علم اجتماع التغير الاجتماعي (من المجتمعات الصناعية إلى المجتمعات المبرمجة)**:** ضمن هذه النقطة نسجل:

- من خلال دراسته لواقع الحركة العمالية والحركات الاجتماعية عامة خلال الستينيات لاحظ أن المجتمع ينتقل من مرحلة "المجتمعات الصناعية إلى مجتمعات جديدة سمّاها "الما بعد الصناعية" (أو المبرمجة).
- يفترض مع دنبال بيل **Baniel Bell** أنّ المجتمع الذي نشأ مع الثورة الصناعية الأولى أعطى مكانة لظهور نمط آخر جديد من المجتمع، وتعود مرّة أخرى إشكالية البرجوازية والرأسمالية من ورائها في تحويل المجتمع من حالة إلى حالة، وهذا ما يتّضح في الشكل التالي:

شكل يبيّن تطوّر المجتمعات من الصناعية إلى المبرمجة عند توران

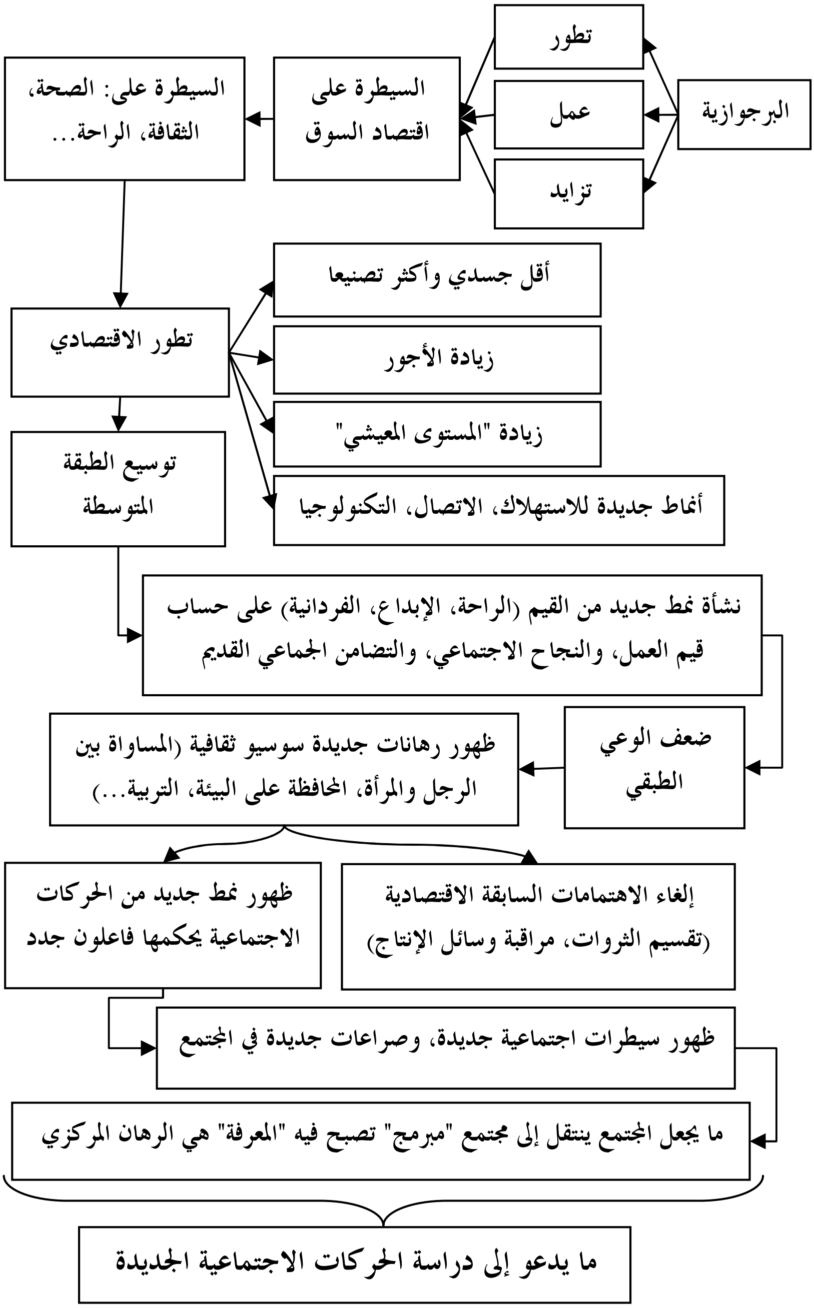

3) تحليل الحركات الاجتماعية:

تتحدّد الحركات الاجتماعية عند توران بالخصائص التالية:

1- مبدأ "الهوية": فاعلو الصراع يعملون أو يُجمعون على قيم ومواقف مشتركة، والمنتجة من قبل الفاعل للتعريف بذاته.

2- مبدأ "المعارضة: تحديد الخصم الذي من أجله يصارع الفاعل (فردي أو جماعي).

3- مبدأ "الشمولية": الهدف من المطالب تكون شاملة وليست جزئية، مع اجتماع الكلّ في جدلية الصراع.

يوسّع توران من مفهومه للحركة الاجتماعية خارج المؤسّسات العمالية والإدارية والطبقات ويطبّقه في كلّ المجتمعات خاصة خلال الستينيات والسبيعينيات (دراسة الحركة النسائية، معاداة النووية، الجهوية...).

4) التدخّل الاجتماعي:

تتمّ عملية التدخّل الاجتماعي أو السوسيولوجي وفقاً للمراحل التالية:

- الدخول في الحركات المراد دراستها.
- البحث عن أسباب المواقف التي تقوم بها.
- إجراء مقابلات مع الفاعلين داخل هذه الحركات الاجتماعية.
- توجيه الفاعلين إلى "التحليل الذاتي" **Auto- analyse**.
- بالموازاة البحث في الحركة من خلال الوثائق، الشهادات، المقابلات.
- تحديد فرضيات لفهم هذه الحركات (التي تسير عليها).
- وضع الحركة ضمن نظريّة معيّنة أو تنظيرها.
- يقدم الباحث أمام الحركة صورتها ويعطي للفعل معناه.
- تسمح هذه الطريقة بعد ذلك للحركة بالتطوّر (أجريت عدّة أبحاث بهذا الشكل).

5) التاريخانية:

يعرّفها توران بأنّها قدرة المجتمعات على إنتاج مبادئها من خلال نماذج ثقافية وعن طريق صراعات وحركات اجتماعية. بـ "النمط التاريخاني" هو «تجميع للنماذج الثقافية والمعرفية والاقتصادية والأخلاقية، بطريقة يعمل من خلالها المجتمع اعتماداً على نفسه وبيئته لإنتاج وإعادة إنتاج ذاته» (جون سكوت، 2009، 139). كما يُدعا التاريخانية هذا العمل على العمل، وهذا الفعل لتحوّل المجتمع من خلال ذاتها، فالأمر يتعلّق بفعل يجب أن يُعرَّف بمعناه، وتوجّهاته وبتقنياته، هذه التجديدية تُحدّد من خلال ثلاثة عناصر:

1- نوع من تراكم العناصر البسيطة للفعل الاقتصادي، ووسائل التواصل، ورأس مال التجديد.

2- التصوّر الخاص بالتجديد.

3- النموذج المعرفي.

هذه الأبعاد الثلاث تحدّد خصوصية المجتمع الإنساني عامة وتنتج معناه، وكلّ الصراعات ناتجة في عمقها عن التاريخانية.

سلسلة الأبحاث التي أنجزها عن الحركات الاجتماعية، جعلت من توران أحد المنتمين إلى "ما بعد الماركسية"، فشكل الصراع تحوّل من العلاقة بين رأسمال والعمال، إلى التمركز حول الحركات الاجتماعية الجديدة، لأنّ نمو الرفاهية في هذه المجتمعات قضى على حالات الصراع العمالي، وساهم في ظهور نمط تاريخي جديد يقوم على المطالب الجديدة نحو الإدارة الاستيجابية، ولم يعد النموذج الماركسي يصلح للتفسير في رأيه، رغم أنّه كان موقناً «بأنّه يكمن وراء هذه الصراعات المتعدّدة حركة اجتماعية وحيدة ورئيسة، تحدّد سمة النمط التاريخي الذي تنتمي إليه، والتي يكون لها مهمّة تاريخية عليها الوفاء بها» (جون سكوت، 2009، 139)، مؤكّداً على عناصر: الوكالة والعملية والتغيير (أي معارضة البنائية).

8- بيار بورديو P.Bourdieu (1930- 2002)

أ- بيوغرافيا عن حياته:

- 1930: ولد في عائلة ريفية بـــ Doguin (منطقة البرانس جنوبي غرب فرنسا. أبوه موظف في البريد.
- درس في المرحلة العليا بمعهد Louis Le Grand (باريس).
- 1954: درس في المدرسة العليا للمعلمين E.N.S تخرّج أستاذاً في الفلسفة (معهد علماء جيله).
- بعد سنة من التدريس أُرسل إلى الجزائر للخدمة العسكرية.
- عاصر أحداث الثورة، وأجرى عدّة بحوث في منطقة "القبائل".
- 1958- 1960: درّس الفلسفة بكلية الآداب بالجزائر العاصمة.
- غلب على تدريسه الطابع الاثنوغرافي الاثنولوجي الاجتماعي أكثر من الفلسفي.
- 1958: كتابه الأول "سوسيولوجيا الجزائر: Sociologie de l'Algérie".
- 1960- 1961: بعد العودة إلى فرنسا عُيّن أستاذاً مساعداً بكلية باريس.
- 1961- 1964: أستاذ محاضر بجامعة "ليل".
- 1964: أستاذ بالمدرسة العليا للمعلمين E.N.S.
- عُيّن في نفس العام مدير الأبحاث بمدرسة الدراسات العليا للعلوم الاجتماعية EHESS.
- شرع في نشر أعماله مع مجموعة من الباحثين خاصة باسرون J.C.Passeron.
- مدير سلسلة Les Sens Commun "المعنى المشترك" بدار E.Minuit التي نشر فيها أغلب كتبه.

- أسّس مجلته "حوليات البحث في العلوم الاجتماعية Acte de recherche en sciences sociales" 1975 (طوّر بها مدرسته).
- 1964: صدور كتابه: "الورثة: الطلبة والثقافة Les héritiers: les étudiants et la culture".
- 1970: كتابه: "إعادة الإنتاج: أصول نظريّة في التعليم La reproduction: éléments pour une théorie du système d'enseignement".
- 1979: كتابه: "التمييز: النقد الاجتماعي لحكم الذوق La distinction: critique sociale du jugement".
- 1980: كتابه: "الحس العملي Le sens pratique".
- 1982: أستاذ علم الاجتماع بمعهد Collège de France.
- 1984: كتاب: "مسائل علم الاجتماع Questions de sociologie".
- 1989: مدير المجلة العالمية للكتب "Liber".
- 1992: الوقوف ضدّ التدخّل العسكري في العراق.
- 1993: كتاب: "بؤس العالم La misère du monde".
- 1995: دعّم حركات الاحتجاج والإضراب في فرنسا.
- 1996: كتابه: "عن التلفزيون Sur la télévision".
- 1998: كتابه: "السيطرة الذكورية La domination masculine".
- الوقوف مع المهاجرين والعاطلين عن العمل.
- اتخاذ مواقف ضدّ العولمة.
- الوقوف ضد التمييزية في التعليم بخاصة كتابه "الورثة".
- فتح مجالات عدّة في البحث السوسيولوجي لم تكن موجودة من قبل.
- مارس البحث الميداني في أكثر من عشرين (20) مجتمعاً.

-له أكثر من 30 كتاباً وأكثر من 100 مقال، ترجم لعدّة لغات.
- 2002 (23 جانفي): توفي بعد إصابته بالسرطان.

ب- إسهاماته

1) مفهوم الحقل: ما يمكن تسجيله عن هذا المفهوم:

- ينقسم العالم الاجتماعي في المجتمع الحديث إلى حقول (أو فضاءات)، مثل الحقل الاقتصادي، السياسي، الصحفي، الفني...
- يتنافس الفاعلون على احتلال مواقع السيطرة في الحقل (كالصحفي والبحث عن أحسن مجلة وأعلى منصب).
- الحقل الاجتماعي ذو طبيعة تنازعية.
- النزاعات تخصّ كلّ حقل وهي ديناميكية وليست مجرد طبقات ثابتة ومحدّدة.
- لكلّ حقل مجموعة مسيطرة ومسيطر عليها، وكلّ طرف يحاول باستمرار الحفاظ على ميزان القوى أو تغييره لصالحه.
- كلّ فرد يحاول ضمان استمرار إنتاج طبقته في الحقل من خلال رأسماله الثقافي.
- رغم الاستقلالية النسبية للحقول فبينها تداخل وترابط.
- الهدف من إستراتيجية كلّ فرد هو زيادة رأسماله الاقتصادي وتحسين الوضع الاجتماعي وتثبيت رأسماله الرمزي.
- بخلاف ماركس فالفضاء الاجتماعي متعدّد وغير أحادي (اقتصادي فقط عند ماركس).
- تعدّد أشكال الحقول أوجد تعدّد أشكال السيطرة، وتحدث المواجهة بينها في إطار الحصول على أوسع رقعة من السلطة.
- يعرف الحقل بقوله: "يمثّل الحقل فضاء تجري فيه لعبة ما، إنّه حقل للعلاقات الموضوعية بين الأفراد أو المؤسّسات المتنافسة لتحقيق ذات الغاية".

2) مفهوم الرأسمال: أهم ما يحدد هذا المفهوم:

- غيّر بورديو مفهوم الرأسمال كما هو عند ماركس.

- الرأسمال هو: "طاقة اجتماعية يمتلكها الفرد ويعتمد عليها في التمييز والمنافسة".
- خصوصية الرأسمال:
  - كلّ شيء قابل للمراكمة،
  - وللتحويل
  - ويدر نوعاً من أنواع الربح.
- أنواعه:

أ- الرأسمال الاقتصادي: يتمثّل في الثروة، والممتلكات، وهو يؤمن مستوى من الحياة وتكوين الثروة.

ب- الرأسمال الثقافي: المؤهّلات الثقافية المكتسبة في التعليم، والهيئة الجسمانية، والقدرات اللغوية، وقد تأخذ شكلاً فردية أو مؤسّساتية تتمّ عن طريق التنشئة.

ت- الرأسمال الاجتماعي: شبكة العلاقات التي يستعين بها الفرد عند الحاجة، وهي موروثة عائليّاً وقد تتعلق بالفرد، والحفاظ على استمراريته.

ث- الرأسمال الرمزي: الشكل الذي تأخذها الأشكال السابقة ورؤية المجتمع لها ومدى اعترافه بها.

- هذه الرساميل تنقسم إلى جزئين، جزء مورث، وجزء يكتسبه الفرد خلال مساره وينقله إلى أبنائه (يورثه).

3) العنف الرمزي:

- "هو كلّ سلطة تتمكّن من فرض مفاهيم أو دلالات ومعاني وإظهارها على أنّها شرعية عن طريق حجب علاقات القوّة التي هي أساس قوة هذه السلطة"
- فهو عنف لأنّه يفرض سلطة أو ممارسة معينة.
- وهو رمزي لأنّ ما يفرضه مفاهيم ودلالات.

- يفرض الفاعلون الاجتماعيون منتوجاتهم الثقافية (الذوق) والرمزية (جلوس ضحك) على المسيطر عليهم.
- هذا يعيد إنتاج علاقات السيطرة بين المجموعات.
- ويتم إعطاء الشرعية لهذه المنتجات الرمزية (حجب التعسّف عنها).
- العنف الرمزي يولّد استبطان الأفراد للسيطرة المرتبطة بالمراكز والمواقع.
- هذه السيطرة لا تكون بينية مباشرة إنما بنيوية عن طريق الرساميل التي يملكها الفاعلون.
- تولّد عنفاً غير مدرك يتجلّى في الشعور بالدونية، فيخضع الأفراد بغير موضوعية وبتلقائية.
- وهذا ما يعطي شرعية لمخطّطات التصنيف المرتبطة بالتدرّج وتراتبية الجماعات الاجتماعية.
- فهي آلية مغلقة لها قواعدها لا يشعر بها الآخرون لأنّه عنف "الثقة" وإضفاء القيمة والالتزام والولاء.
- و هي أيضا ترسخ ثقافة الغالب على المغلوب بحجب علاقات القوّة.
- مثال:

  - اعتبار اللغة الفرنسية رمز الرقّة مع أنّها ليست كذلك في ذاتها.
  - واللغة العامية رمز الغلاظة وهي ليست كذلك في ذاتها.
  - ما يعطي سيطرة المفرنسين والمثقّفين والساسة واعتبار اللغة العربية رديئة.
  - ثمّ احتقار المعرّبين، ما يولّد احتقار المعرب لنفسه، ورغبته في اللغة الفرنسية وهذا يعني تمجيد الآخر.
  - ومن وراء كلّ ذلك عنف رمزي لإبقاء المفرنسين في مواقعهم... وتوريث هذه المواقع وإبقاء المعرّب دوني باستمرار.

4) التطبع/ الأبيتوس L'habitus:

- "نسق الاستعدادات الدائمة والقابلة للنقل، وهياكل مُهيكَلة (بنى مركبة) مستعدّة لتعمل كهياكل مهيكِلة (بنى تركيبية) أي كمبدأ مولِّد ومنظِّم للممارسات والتمثّلات التي يمكن أن تتكيّف موضوعياً مع هدفها دون افتراض البعد الواعي للغايات والتحكّم الصريح بالعمليات الضرورية من أجل الوصول إليها".

5) وظيفة علم الاجتماع:

- البحث السوسيولوجي يقوم على الفهم من أجل الكشف عما لا يمكن رؤيته من أوّل نظرة، والظواهر الاجتماعية معقّدة، والعلاقات الاجتماعية مقنعة بأغطية تسمح للذين يسيطرون بإعطاء الشرعية لسيطرتهم.
- لهذا على السوسيولوجي تجاوز المرئي، وإعادة بناء الخطابات من أجل الوصول للوقائع.
- يتم ذلك بـــ "تحيين أشياء، يعرفها الجميع بشكل أو بآخر، لكنّها تقع في مستويات عميقة لا نبحث عنها عادة".
- والسبيل هو استعمال طرق صارمة في الملاحة، وبمفاهيم خاصة لوضع القطيعة مع "السوسيولوجية التلقائية" التي هي رهينة فاعلين اجتماعيين يحسنون اللغة ويستخدمون أدوات للسلطة.
- رغم أنّ هذا يجعل من الخطاب السوسيولوجي معقّداً وأحياناً يصعب قراءته، إلاّ أنّ هذا المنحى ضروري من أجل الفهم ثمّ الكشف عن آليات عمل المجتمع.

9- ريمون بودون Raymond Boudon (1934-)

أ- بيوغرافيا عن حياته:

- 1934: ولد في باريس.
- درس في المدرسة العليا للمعلمين ENS.
- 1958: حصل على الإجازة في الفلسفة والدكتوراه في الأدب.
- درس في ألمانيا.
- 1962: حصل على منحة لمدّة سنة بجامعة كولومبيا في الولايات المتّحدة الأمريكية.
- 1964: عُيّن أستاذاً محاضراً بجامعة بوردو Bordeaux.
- 1969- 1972: تسيير مركز الدراسات السوسيولوجية Center d'Etudes sociologique (CES).
- 1972- 1998: رئيس فرقة دراسة مناهج التحليل السوسيولوجي.
- 1973: كتابه "اللاتساوي في الفرص: الحراك الاجتماعي في المجتمعات الصناعية L'inégalité des chances: la mobilité sociale dans les société industrielles".
- 1967: أستاذ علم الاجتماع بجامعة السربون.
- 1977: كتابه: "الحوادث المنحرفة والنظام الاجتماعي Effets pervers et ordre social".
- 1979: كتابه: "المنطق الاجتماعي: مدخل للتحليل السوسيولوجي la logique sociale: introduction à l'analyse sociologique".
- فرض نفسه كأحد كبار السوسيولوجيين بداية من السبعينيات.
- 1984: كتابه: "مكانة اللانظام: نقد نظريّات التغير الاجتماعي La place du désordre, critique des théorie du changements social.
- 2003: كتابه: "المنطق: النوايا الحسنة Raison: bonnes raisons".

- 2004: كتابه: "علم الاجتماع: هل هو علم؟ la sociologie est-elle une science?".
- وهو حاليا رئيس لجنة تحرير "السنة السوسيولوجية L'année sociologique".

ب- إسهاماته:

1) الفردانية المنهجية: أهم ما يمكن توضيحه:

- تقوم الفردانية المنهجية على اعتبار الفرد العنصر المركزي في التحليل السوسيولوجي.
- يُعرّف الفرد باعتباره يضمّ خاصيتين:
  - العقلانية (سلوك غير ميكانيكي)
  - الاستقلالية (قيم ومعتقدات خاصة).

ويتمّ ذلك ضمن وضعية معيّنة.

- ليست البنى الاجتماعية هي التي تحدد الفعل الاجتماعي، إنّما مجموع الأفعال الفردانية هي التي تولد الظواهر الملموسة. فالفرد هو نواة التحليل السوسيولوجي.

2) منطق الاجتماعي:

- يقصد به هدف علم الاجتماع ومنهجه في الدراسة والذي تحكمه المبادئ التالية:

أ- لا يمكن فهم الفعل الفردي إلا ضمن محيط اجتماعي محدّد، والمحيط لا يحدّد إنّما يوجّه الفاعلين حسب وضعياتهم داخل نسق من التفاعل، وبالتالي يملك الأفراد هامشا من التصرّف.

ب-الفاعل الاجتماعي محور التحليل السوسيولوجي، وتصرّف الفرد ضمن سياق معيّن وداخل تناقضات متباينة عليه بقبولها كمعطيات، لا يعني أنّنا يجب أنّ نضع من سلوكه نتيجة مباشرة لهذه التناقضات.

ت- الفعل الفردي منطقي، لكنّ هذا المنطق لا يخضع دوماً للمنطق الاقتصادي القائم على إشباع أكبر قدر من الحاجات، فقد يتصرّف الفرد وفقاً لدوافع مختلفة وحتى متناقضة أحياناً، ويجب التفكير من منطلق الاختيارات الممنوحة في مقابل قيمة الأهداف المرغوبة.

- يرفض الوعي الجمعي، ولا ينفي تأثير البنية الاجتماعية، إنّما هي عبارة عن تأثير مختلف عما يُعتقد أنّه ضمير جمعي.
- الأفراد غير واعين بالضرورة بنتائج أعمالهم.
- حين تتناقض نتائج أعمال الفرد مع رغباته فنحن أمام سلوك منحرف "Pervers".

3) التغيّر الاجتماعي "اللانظام":

- يلاحظ بودون أنّ أغلب نظريّات التغيّر الاجتماعي أخفقت، لأنّها تبحث عن قوانين عامة تحكم التاريخ.
- وأغلب المنظرين حاول إعطاء معنى للتاريخ بالبحث عن ارتباط النتيجة بالسبب.
- عمل السوسيولوجي ليس التنبؤ بمستقبل المجتمع من خلال قوانين وعلمنة لم تعط شيئا في الحقيقة، وهو بذلك يرفض كلّ حتمية تعمّم قانون "أ يعطي ب".
- لا يمكن التنبؤ بالمستقبل لأنّه غير أكيد، لهذا على علم الاجتماع إعطاء مكانة لـــ "اللانظام" في عملية التغيّر الاجتماعي.
- التغيّر الاجتماعي غير محدّد لأنّ عملية تجميع السلوكات الفردية ليست روتينية بشكل مسبق.
- وظيفة علم الاجتماع إعادة التفكير في "الصدفة" و"الذاتية" في التاريخ، وليست الحكم عليه بنتائج غير مضمونة دوماً.

المبحث الثاني:
نظريات علم الاجتماع:

1- التاريخية:

كلمة "النظرية" مصطلح كغيره من مصطلحات العلوم الاجتماعية يكتنفه الغموض والضبابية، وقد مرّ بمراحل في تشكّله، هي:

- استعمل مصطلح "النظرية الاجتماعية" للدلالة على كلّ ما يتّصل بالدراسات الفلسفية والسياسية.
- استعمل لأوّل مرّة بشكل دقيق في جامعة "أكسفورد" ليُشير إلى "نظرية الدولة" التي تتّصل بنشوء الدولة الحديثة.
- ثمّ أصبح يعني كلّ ما يتّصل بمجال التنظيمات والقوانين.
- في المجال الدراسي، كان يعني الأفكار التي ترتبط بالمفكرين الاجتماعيين والسياسيين خاصة: هوبز، لوك، روسو، هيجل، كانط...
- وتعني في المجالات الثقافية "تاريخ الفكر" في كلّ ما له علاقة بالمجتمع البشري وحضارته.
- ويقترح البعض التمييز بين مفهوم النظرية بشكلها العام والنظرية بمفهومها المنهجي، بإضافة كلمة "سوسيولوجية" لتصبح "النظرية السوسيولوجية" تعني الدلالة المنهجية للموضوع، والنظرية الاجتماعية تعني دلالة الموضوع في عموميته (دينكن،1986 ،244–245).

2- لغة:

كلمة **Théorie** من أصول:

- في الأصل اللاتيني **Theoria** تعني: البحث التحليلي.
- وفي الأصل اليوناني **Theoria** تعني: فعل النظر.

وهي نظام مبني أو مهيكل من الفرضيات هدفه التفسير « Système structuré d'hypothèses à vocation explicative" (Akon, 1999 , 535)

في اللغة العربية: نظر في الأمر: تدبّره وفكّر فيه، قدّره وقاسه، حكم وفصل دعاوي الناس، والنظرية قاموسياً تعني: قضية تحتاج إلى البرهان لإثبات صحتها، جمع نظريات. (منجد الطلاب،1986، 806).

3- مصطلحات مشابهة:

يُستعمل للدلالة على النظرية عدّة مصطلحات تبدو في ظاهرها شبيهة المعنى لكنّها في الأصل مختلفة، وتنقسم هذه المصطلحات إلى نوعين:

- منفصلة: أطروحة، مقاربة، منظور...
- مضافة للنظرية: إطار نظري، تحليل نظري، بعد نظري، فكر نظري، نموذج نظري، براديجمات نظرية...

4- الاستعمالات المتكرّرة (الشائعة):

حسب ميرتون في كتابه "النظرية الاجتماعية والبنية الاجتماعية"، يُوظّف مفهوم النظرية سواء من حيث المعاني أو الكلمات أو الجمل، من قبل كتب علم الاجتماع للدلالة على المفاهيم التالية:

- المنهجية.
- الأفكار المُوجّهة (الجانب النظري للبحث).
- تحليل المفاهيم.
- التفسيرات.
- التعميمات التجريبية.
- الاشتقاق والتقنين (الاستنتاج، الافتراضات). وكلّ هذه الاستعمالات السابقة ترد بصيغة تشبيهية، والأصل أنّها لا تأخذ المعنى العملي للنظرية.
- النظرية بالمفهوم الضيّق. وهذا هو الاستعمال العلمي المباشر للكلمة.

من هنا يمكن تجميع هذه الاستعمالات في ما يلي: (حسب بودون)

- النظرية بالمفهوم الضيق.

- النظرية بمفهوم "ما يتعلق بالمثال" وهو يضمّ: الاقتراحات، الأحكام المابعد نظرية) والهدف منها مواجهة الحقيقة الاجتماعية. ومن الأفضل تسميتها "أطروحات". فالنماذج بالتالي أقلّ درجة من النظرية وهي جزء منها في لحظة معيّنة من تكوّنها.

5- **وظيفة النظرية:** يمكن إجمالها في:

- إعطاء معنى لنتائج البحث.
- إثراء البحث بالعلاقة المتبادلة بين البحث والنظرية.
- توجيه عملية البحث بصياغة الفرضيات والإطار المرجعي.
- توجيه المفاهيم وإعطاء دلالات لها.
- قاعدة تصوّرية منطقية للتنبؤ الاجتماعي.
- الاستقراء والاستنباط في مختلف أشكالهما بين الميداني والنظري.

6- **تعاريف للنظرية:** نورد هنا مجموعة من التعاريف من باب المثال لا الحصر:

- "النظام التجريدي الذي يجمع بين الأفكار ويُوحّد بينها، ويضعها في قالب يعكس معنى المفاهيم التي يطرحها العالم في سياق أبحاثه الأكاديمية" (دينكن،1986 ،244-245).

- جلاسير وشتراوس: "إستراتيجية بحثية تقدّم نماذج من مفاهيم تساعد الباحث في الشرح والتفسير الاجتماعي".

- بلالوك: "أشبه بقوانين تربط بين متغيرين أو أكثر في نفس الوقت"

- جيب: "مجموعة من الأحكام المترابطة منهجياً لتؤكّد مشاهدات واقعية تفسر خصائص معيّنة من الأحداث والأشياء".

- رينولدز: "قوانين من العلاقات المتكاملة على درجة معيّنة من الصدق في تفسير ظواهر المجتمع ومشكلاته".

- "مجموعة مفاهيم مترابطة بشكل متناسق مكوّنة قضايا تهتمّ بشرح

قوانين ظاهرة اجتماعية معيّنة تمّت ملاحظتها بشكل منتظم".

– "استنتاجاً نسقيّاً مستخلصاً من ملاحظات منتظمة صيغت بشكل منطقي على شكل قضايا مترابطة ومستخلصة الواحدة من الأخرى".

– "سلسلة قضايا تكوّنت بالأساس من مجموعة بديهيات وتعاريف ومفاهيم".

– "مجموعة من العلاقات التي تفسّر ظواهر التفاعل في إحدى مجالات الأنشطة..." (الزيات،د.تا ،20).

7- التعريف بالمجموع: حاول بعض الباحثين تعريف النظريّة بالمجموع، منهم:

– دراندورف: مجموع قوانين.

– أيبل: مجموعة مفاهيم.

– هايمس: مجموعة ملاحظات.

– بريزيت: مجموعة افتراضات.

– دوين: مجموعة نماذج.

8- أنواع النظريات:

أ- حسب بودون: يقسّمها إلى:

1- النظريّات ذات النماذج الإدراكية أو النماذج التصنيفية: تقوم على تصنيف ضمنيّ أو صريح، تتضمّن مجموعات متعارضة أو مختلفة تماماً عن بعضها. مثال: – نظريّة تونيز (المجتمع/ الجماعة)

– نظريّة رادفيلد (مجتمعات تقليدية/ مجتمعات حديثة)

– نظريّة توران (صناعية/ ما بعد الصناعية "المبرمجة")

2- النظريّات ذات النماذج القياسية: تستعير "نماذج" أو "منظورات" من علوم أو مجالات أخرى خاضعة للمشابهة بينها. مثال:

– نظريّة دود **Dodd**: ظواهر شبيهة بمبادئ نيوتن في الجاذبية.

– نظريّة هيبرماس: تشبيه الحدث والفاعل بالمسرح والأدوار.

- النظرية الوظيفية: تشبيه الظواهر بالكائن والأنساق الحية.

3- النظريّات ذات النماذج الشكلية: تعتمد على مؤشرات نحوية، واستعمال تفرّعات صادرة من اللغة، ومؤشّرات معيّنة. مثال:

- تحاليل ميرتون عن النموذج الكامن والظاهر فهي تقسيمات لغوية.

- أغلب الأبحاث التجريبية ذات المتغيرات التفسيرية (التحليل العاملي).

ب- حسب بيار أنصار: يقسّمها إلى:

1- نظريّات عامة وشمولية: تهدف لإعطاء تفسير عام للظواهر في إطار الممارسة الاجتماعية. مثال: التطورية، الجدلية، الوظيفية، البنيوية...

2- نظريّات متوسطة المدى: لا تعطي تفسيرات عامة وشاملة للظواهر، إنّما تُعطي افتراضات جزئية قابلة بسهولة للمراجعة والتحقّق منها من خلال العمل الإمبريقي. مثال: نظريّات الصراع، البطالة، البيروقراطية، فهي تستجيب لحالة مجتمعات معينة (Akon, 1999 , 535).

ج- حسب هلموت واجتر: نجد التقسيم التالي:

1- النظريّات الوضعية: تشبّه العمل الاجتماعي بالعلم الطبيعي ونجد فيها: أ- الوضعية الجديدة: نظريّة النموذج الرياضي، نظريّة التخلّف الثقافي، نظريّة التغير الفعلي.

ب- البيئة البشرية: نظريّة البيئة، البنائية الوظيفية، الوظيفة الثقافية التنظيمية، النسق الاجتماعي، السلوك الاجتماعي، النفسو- بيولوجية الثقافية، الفريديون الجدد.

2- النظريّات التفسيرية: العمل الاجتماعي يختلف عن العلم الطبيعي، ونجد فيها: نظريّة الفهم الثقافي، الألسنية الثقافية، نظريّة المجتمع الكلي، الفعل الاجتماعي، الفينومينولوجية، الخبرات الدينية.

3- النظريّات التقديرية: هي في طور التشكّل ولم تصل إلى المستوى العلمي الدقيق، وتضمّ: نظريّة الفلسفة الاجتماعية، نظريّة علم اجتماع المعرفة، نظريّة العقيدة الاجتماعية، نظريّات الصراع الاجتماعي، نظريّة الإصلاح

الاجتماعي (معن،1997، 36–39).

9- شروط النظرية العلمية: للنظريّة العلمية شروط هي:

- أفكار ومبادئ ومفاهيم مترابطة ومتكاملة بعيدة عن التناقض.
- تعبّر عن أفكار واضحة ومركّزة ومتسلسلة منطقيّاً.
- مشتقّة من الواقع الاجتماعي بعيدة عن الأفكار الفلسفية واللاهوتية.
- تشمل تفسير وتحليل الظواهر التي تدخل في إطارها.
- نسبيّة الطرح قابلة للتغيير والتعديل.
- تصل إلى نفس النتائج إذا تكرّر فحصها في فترات مختلفة وأماكن متباينة.
- تنفرد بتفسيرها لمجموعة من الحقائق. فوجود عدّة نظريّات لنفس الحقائق يضعف من مصداقيتها (إحسان محمد الحسن،2005، 20).

1- النظرية الظاهرتية Phénoménologie:

1) الكلمة والتطوّر العام: كلمة مكوّنة من قسمين:

Phainomai إغريقية تعني: الظاهر

Logos إغريقية تعني: المعرفة أو العقل (**Akon, 1999 , 397**)

أوّل من استعمل هذه الكلمة هو **J.H.Lambert** سنة **1764**. ثمّ استعملها كانط سنة **1986**، وبعد ذلك هيجل عام **1807** في كتابه: " **La phénoménologie de l'esprit**"، وبداية من القرن العشرين أصبحت تُطلق على مذهب هسرل **Husserl** (**1858– 1938**)، والذي كان من أنصاره ماكس شيلر (ألمانيا)، جون بول سارتر (فرنسا)، وقد تأثر بهم هيدجر زعيم النظرية الوجودية (بدوي، **1984**، **61**). ويبقى هوسرل أب هذا الاتجاه.

2) المعنى الاصطلاحي:

المعنى الدقيق للفينومينولوجية أو الظاهرتية هو علم الظواهر، وهو هذا

التيار الفلسفي، ثمّ السوسيولوجي بعد ذلك، الذي يعتمد على كلّ ما هو ظاهر، ولا يعترف بما هو خفيّ أو باطن، وفي مجال علم الاجتماع هو التيار الذي يهتمّ بمجريات الحياة اليومية باعتبارها ذات دلالة (**Akon, 1999 , 397**).

3) الفكرة الموجّهة:

– الرجوع إلى الأشياء نفسها (في ذاتها) بعيداً عن الأحكام السابقة واللاحقة (بدوي،**1984** ،**61**).

– وصف الأشياء الموجودة فعليّاً باعتبارها جزءاً من العالم الموجود حولنا (حامد،**2008** ،**127**).

المعارضة: عارضت الظاهرتية الاتجاهات التالية:

أ– المذهب التجريبي: لأنّه ينطلق من مقولات سابقة كالإطار النظري والفرضيات والبديهيات وغيرها.

ب– الاتجاه النفساني: لأنّه يقوم على تخمينات ذاتية لتحليل الواقع.

ج– المذهب العقلاني الرياضي: لأنّه يقوم على التجريد البعيد عن الواقع، والقوانين التي هي تصوّرات مسبقة.

د– قطيعة أفلاطون ومثاليته: لأنّها تعيد الواقع إلى عالم المثل وحقائق خارجية عن الأشياء.

4) الأهداف: يرى أصحاب هذا الاتجاه أنّهم يقترحون منهجاً أكثر ممّا يشكّلون مذهباً، لهذا فهم يطمحون في رأيهم إلى ما يلي:

أ– إعادة الاعتبار للفلسفة وجعلها علماً دقيقاً وإخراجها من أزمتها.

ب– تعليق "الحكم" عن العالم والأشياء بكلّ أشكاله، ما سوف يُولّد تقارباً في الرؤى.

ج– القصدية بإزالة المسافة بين الذات والوعي، فالشعور وعي ذاتي نهايته مضمون واقعي وموضوعي.

د– مواجهة الظواهر بمعيارين ايجابي وسلبي: السلبي هو إخراج الشيء من

كلّ الأحكام اللغوية والفوقية والتركيبية وغيرها، الايجابي إعطاء الشيء الصفة الظاهرة للعيان المباشر فقط (المعطى المباشر) (بدوي،1984 ،61).

هـ- الوصول للحقيقة الموضوعية عن طريق الواقع، إذ يصبح ما يعتقده الفرد واقعاً ملموساً.

و- دراسة أشكال الوعي بتنوّعه وطرق وعي الأفراد لما يعشونه حولهم.

ز- ليس الكشف عن بنية الجهاز المفهومي عند الفرد فقط إنّما أيضاً "الطرق التي نمارس بها وجودنا"، باعتبارنا بشراً نختلف عن غيرنا من الكائنات.

5) مبادئ النظرية: تقوم هذه النظرية على المبادئ التالية:

- الظاهرة قد تكون حدثاً أو موقفاً أو تجربةً أو مفهوماً.
- العالم كلّه ظواهر محاطة بالإنسان.
- لا ينطلق الباحث من فروض مسبقة إنّما من الخبرة الذاتية ككائن ومن المعنى العام والمشترك الذي يعيشه ويتصرّفه مع الآخرين.
- الاعتماد على ما هو ثابت واضح في الإدراك والوعي بالشعور.
- اعتماد مقولة فيبر في "الفهم" للوصول إلى معرفة الأشياء ومنها النفاذ إلى ظواهر الوعي.
- الوعي وسيلة وهدف من خلاله نصف الظواهر ونصل إلى الخبرة الخالصة.
- عدم التفكير تجريديّاً في عالم موضوعي.
- لا يجب إغفال خبرات الحياة اليومية والعالم المحسوس والخبرة الحياتية إنّما يجب الانطلاق منها.
- نصف ولا نفسر، لذا وجب علينا تفادي كلّ أشكال التجريد.

6) الفينومينولوجا وعلم الاجتماع:

ترتبط الفينومينولوجيا في علم الاجتماع بالعالم ألفرد شوتز **A.Shutz** (**1899- 1959**)، الذي اعتمد على أفكار الفيلسوف هوسرل **Husserl**

(1859– 1938)، وعدّل في بعض مقولات ماكس فيبر، وقد نظّر لها بشكل دقيق في مجال الانثروبولوجيا وعلم الاجتماع المفكّر ميرلوبونتي **Merleau Ponty** الذي يرى أن هذا الاتجاه يمكن تقليصه إلى المبادئ التالية:

- الاعتماد على الوصف لا التفسير.
- الابتعاد عن كلّ المقولات العلمية لأنّ أصلها تجريدي.
- العودة إلى ما قبل العلم في فهم العالم.
- إلغاء التفسيرات السببية لأنّها مسبقة.

ويعطي مثالين للتوجّه الفينومينولوجي في الأنثروبولوجيا:

1– قبل علم الجغرافيا كان يجب لمعرفة بلد ما، ألاّ ننطلق من خطوط الطول والعرض والحسابات التجريدية، إنّما من الوصف بقولنا عن هذا البلد "توجد به الغابة كذا وبها المراعي الفلانية والنهر كذا..."، هكذا نكون فينومينولوجيين في طرحنا.

2– يعطي مثالاً آخر لوصف مدينة باريس دوما في كتابه "**Les sciences de l'homme et la phénoménologie**"، باريس لا تملك عدّة جوانب أو أوجه، فكلّ التصوّرات تُختصر في رحلتي الأولى لها، المقاهي، وجوه العباد، جماهير الأرصفة، الروائح التي تلقيتها في محطة الحافلات...

فهو يرفض التفكير تجريدياً في عالم موضوعي، لهذا يجب ترك التيار للأشياء تتحدّث بنفسها عن نفسها بدل إخضاعها للأحكام والتفسيرات.

وهنا نشير إلى أنّ الفينومينولوجيا نشأت في علم الاجتماع كردّ فعل على الوضعية التي تعتمد على النسبية، فالفينومينولوجية تبحث في الظاهرة عن معناها، أي ماهيتها وجوهرها. لكن القفزة التي أحدثها الفينومينولوجية هي ضرورة العودة للحياة اليومية كما هي معطاة بكلّ تدفّقاها وغلياها الشعبي، وهي لا تحتاج إلى علمنة جديدة.

7) روادها:

أهمّ علماء الاجتماع والانثروبولوجين الفينومنولوجين:

- أفرد شوتز: Alfred Schutz، Le chercheur et le quotidien, 1987.
- شيلر ماكس: Max Scheler
- باتريك واتيي: Watier Patrick، Le savoir commun, la typification et la sociologie, 1995
- تاكوسيل باتريك: Tacussel Patrick، Mythologie des formes sociales, 1995
- ميشال مافيوزولي: Michel Maffesoli، Eloge de la raison sensible, 1996
- موريس ميرلوبونتي: Maurice Merleau Ponty، Phénoménologie de la perception, 1945.

2- النظرية الثقافوية Culturalisme

1) الثقافة:

للثقافة عدّة تعاريف أهمّها وأشهرها تعريف تايلور Taylor (1832-1917) الذي قدّمه عام 1871: «الثقافة بالمعنى الاثنوغرافي هي ذلك الكلّ المعقّد من المعارف والمعتقدات والفنّ والعادات والتقاليد والقانون والأخلاق والتقاليد وكلّ القابليات والتطبيقات الأخرى التي يكتسبها الإنسان باعتباره عضواً داخل مجتمع ما»

2) تعريف الثقافوية:

تيار نشأ بين أحضان جامعة كولومبيا Columbia، وتعود أصوله الرئيسة لمجال الأنثروبولوجيا الأمريكية في القرن العشرين (سنوات الثلاثينيات)، ويُسمّى أيضاً مدرسة "الثقافة والشخصية"، انضمّ له مفكرون من اختصاصات مختلفة فهو تيار لا تؤمن بالحدود الكلاسيكية بين التخصّصات، ويضع في محور اهتمامه

الواقع الاجتماعي للثقافة. أثر في المجال السوسيولوجي بقوّة وبخاصّة الدراسات التي عالجت الثقافة، والتغير، والمحلي، والتنشئة الاجتماعية.

3) مراحل تطوّرها:

1- المرحلة الأولى: الأبحاث الأولى.

أ- أوّل من دعا إلى تأسيس انثروبولوجيا ثقافية هو فرانز بواس **Franz Boas** في القرن العشرين، أمريكي من أصل ألماني جغرافي التكوين لاحظ في بحثه عن مجتمع "الأسكيمو" أنّ الثقافة تحدّد السلوك الفردي والبيئة الفيزيقية (وبهذا كان يعادي الاتجاه السائد القائل بأولوية تأثير العرق على الأفراد)، وكلّ ما يفرّق الأفراد له جذور ثقافية وليست عرقية.

ب- انطلاقاً من أنّ الثقافة لها استقلاليتها وتأثيرها على الأفراد أجرى أيضا هذا الباحث دراسات عن هنود "كوكيوتل **Kwakiutl**" في كندا، ودعا إلى توسيع الملاحظة بالمشاركة.

جـ- نتيجة تدريسه (بواس) في جامعة كولومبيا **Columbia** كوّن جيلاً بأكمله من الباحثين (رالف لنتون **R.Linton**، مرغريد ميد **M.Mead**، روث بينديكت **R.Benedict**...) وهم الذين يعود لهم الفضل فيما بعد لتأسيس ما يسمّى "بالثقافوية" كمدرسة قائمة بذاتها.

2- المرحلة الثانية: المؤسّسون الأوائل:

- رغم أنّ الثقافويين يضعون في محور دراساتهم تعريف تايلور للثقافة باعتبارها تعريفاً موحّداً، لكنّهم يرون أنّه لا توجد ثقافة واحدة على المستوى الانثروبولوجي، إنّما هناك ثقافات متعدّدة ومختلفة عن بعضها بعضاً.

- ولّد هذا التصوّر دراسات عدّة في المجال الثقافوي (وهي الدراسات التأسيسية لهذا الاتجاه) أهمّها:

1- دراسة مارغريد ميد **M.Mead** (1901-1971) التي بيّنت أنّ البعد البيولوجي (الاختلاف بين الجنسين)، والذي يبدو معطى بسيطاً في ظاهره،

يختلف من مجتمع إلى آخر فبتتبّعها للسلوكات الثقافية للرجال والنساء في مجتمعات مختلفة (الأرباش **Arapesh**، موندغونور **Mundugonor**، شوبيلي **chambuli**، وهي مجتمعات من غينيا الجديدة) يتبيّن أن تصرفاتهم تتأثّر بالسمات الثقافية لا البيولوجية:

- الأرباش: النساء والرجال هادئون ووديعون.
- موندغونور: على العكس الرجال والنساء عدوانيون.
- شوبيلي: صورة معاكسة للمجتمع الحديث، المرأة فيه هي المسيطرة.

2- بعد دراسة روث بيندكت **R.Benedict** (1887-1948) لمجتمعات دوبي **Dobu** في غينيا الجديدة، والكواكيوتيل **Kwakiutl** في الألسكا، والزوني **Zuis** في مكسيكا الجديدة، اقتراحت تصنيفاً للمجتمعات يقوم على التقسيم النيتشيني **Nietzschéenne** (نسبة إلى نيتشه) ويتفرّع إلى نوعين:

أ- مجتمعات أبوليانية **Appolliniennes** (ولها تنسب السريالية) أي متأدبة: والتي تعطي الأولوية للحكمة، والتأمّل، والتناسب بين الإنسان والطبيعة.

ب- مجتمعات ديونيزية **Dionysique** أي عنيفة: والتي تقوم على روح المعارضة، والتنافس والسيطرة.

3- أعمال المحلّل النفساني كاردينار **A.Kardiner** (1891-1981) عن "الشخصية القاعدية" الذي بيّن أنّ الأفراد الذين يخضعون لنفس الثقافة تتشكّل لديهم قاعدة ثقافية مشتركة، ما يجعل الأمريكي يختلف عن الفرنسي أو الجزائري. وتتشكّل هذه الشخصية القاعدية عن طريق التنشئة الاجتماعية وهي التي تبيّن الفروق الثقافية بين مختلف المجتمعات في عمقها. سمح هذا المفهوم ببيان دور الثقافة في تشكيل الشخصية وأنّ البيئة لها تأثيرها في مستقبل الفرد ولا يمكن للفرد أن يتشكّل خارج سياق ثقافته، فجزء من شخصيته تابع للمحيط الذي كبر فيه.

كانت تهدف كلّ هذه الأعمال إلى بيان أنّ الثقافة نسبية لكلّ مجتمع

وترفض كلّ اثنومركزية **Ethnocentrisme** تجعل من نفسها المقياس لكل شيء.

3- المرحلة الثالثة: الانتقال إلى علم الاجتماع.

رغم الانتقادات المقدّمة للثقافوية إلاّ أنّ تأثيرها على علم الاجتماع كان قويّاً في الولايات المتّحدة الأمريكية ثمّ في فرنسا. وأهمّ هذه التأثيرات:

أ- توسيع الرؤية: كانت وراء عدّة اكتشافات سوسيولوجية خاصة توسيع مجال الرؤية وتوفير بيانات عن مجموعة معتبرة من المجتمعات "البدائية".

ب- الإثراء المفاهيمي: قدّمت كمّاً من المفاهيم لعلم الاجتماع أهمّها: الثقافة، المراكز (لظاهرة، الخفية)، الدور، نمط السلوك. كما قدّمت الفرضيات الأولى حول التنشئة الاجتماعية، وتأثير الثقافة على تكوين الشخصية ومكانة الأدوار التي تعطي لكلّ مركز أنماطاً من السلوك الثقافي، لأنّ الثقافة مشكّلة من أنماط مثالية وأنماط السلوك (المركز هو الموقف الاجتماعي للفرد أو ما ينتظره الفرد من المجتمع، والدور هو ما ينتظره المجتمع من الفرد).

جـ- توسيع البحث في الحقل السوسيولوجي: المفاهيم السابقة سمحت بالذهاب بعيداً في البحث السوسيولوجي للواقع الاجتماعي، فظهرت أبحاث عن موضوعات مثل:

1- الثقافات الفرعية (**Sous- Cultures** بالنسبة لعلم الاجتماع و **Sub- Cultures** بالنسبة للثقافويين) وهي تعالج ثقافة الجماعات داخل الثقافة العامة في المجتمع الحديث كثقافة الشباب، العمال، الشيوخ...، إضافة إلى الثقافات المضادّة **Contre- Cultures** وهي الثقافات المعارضة للثقافة العامّة السائدة، كثقافة المنحرفين، ويبدو ذلك في أعمال هوقار **Richard Hoggart** "ثقافة الفقير **La culture du pauvre**" (1957) عن ثقافة العمال البريطانيين، بيار بورديو **P. Bourdieu** في "**Distinction**" (1979) الذي يبيّن معارضة ثقافة العمال للثقافة البرجوازية وطريق عيش كل واحد.

2- دراسة المجتمعات الصغيرة (القرية، المجموعات، الأحياء) أو ما يُسمّى

علم الاجتماع المحلّي. أهمّها دراسة الزوجين ليند Lund عن مدينة مونسي Munice في ميدل تاون Middletown (Middletown, A study of American culture, 1929)، إضافة إلى الدراسات المتتالية بعد ذلك كدراسات لوسيان برنو Lucien Bernot وروني بلونكار René Blanchart "نوفيل: قرية فرنسية Neuville un village français"، 1953، وأعمال إدغان موران Edgar Morin في "البلدية في فرنسا ميتامورفوزية بولازفيت Commune en France, la métamorphose de Plozévet"، 1967.

3- دراسة المؤسّسات: عادت الثقافة خلال الثمانينيات إلى مجال التسيير والمؤسّسات ضمن مفاهيم "ثقافة المؤسّسة"، "التسيير الثقافي" وغيرها من المفاهيم وأصبح يُنظر للمؤسّسة باعتبارها وحدة ثقافية ومجالاً للوظيفة الثقافية. وأصبح قطاعاً واسعاً من تخصّص علم اجتماع المؤسّسة، ويبدو هذا الطرح في أعمال سانسوليو Renaud Sainsaulieu "الهوية في العمل L'identité au travail" وأتباعه.

رغم الانتقادات الموجّهة للثقافوية فهو تيار ترك تأثيراً كبيراً في علم الاجتماع الأوروبي، لهذا فهو اتجاه غير قابل للمنازعة في السوسيولوجيا بالرغم من جذوره الأنثروبولوجية.

4) مبادئ النظرية:

أ- الفكرة الموجّهة:

الثقافة هي محور المجتمع، ولا يمكن فهم الظواهر الاجتماعية وتفسيرها إلاّ من خلال العودة لثقافة المجتمع.

ب- المبادئ الأساسية:

- الثقافة تضمّ كلّ أشكال الممارسات اليومية من عادات وتقاليد وغيرها ولا تخصّ شخصاً دون الآخر.
- كلّ الظواهر تفسّر من خلال الثقافة بما في ذلك الظاهرة التي تبدو

بيولوجية.

- لكلّ مجتمع مجموعة سمات ثقافية تميّزه، ومجموع السمات تكوّن نسق السلوك.

- لا يمكن فهم سمة ثقافية إلاّ ضمن الثقافة السائدة لذلك المجتمع.

- السمات المشتركة العامة لمجتمع معيّن والتي تجعله يختلف عن مجتمع آخر تُسمّى "الشخصية القاعدية".

- تؤثّر الثقافة بشكل مباشر في تكوين شخصية الأفراد.

- تتكوّن الثقافة عن طريق التنشئة الاجتماعية التي هي العملية المركزية للمجتمع بها يعيش المجتمع والفرد وبها يستمرّان.

- يتكوّن المجتمع من ثقافة سائدة، وثقافات فرعية خاصة بكلّ مجموعة ضمن الثقافة السائدة.

5) أهمّ رواد الثقافوية:

- فرانز بواس: **Franz Boas**

- روث بندكث: **Ruth Benedict** (1887– 1948): **Echantillons de civilisation, 1934**.

- مرغريد ميد: **Margaret Mead** (1901– 1978): **Mœurs et sexualité en Océanie, 1923- 1935**.

- ابراهام كاردينار: **Abraham Kardiner** (1891– 1981): **L'individu dans sa société, 1939**.

- رالف لنتون: **Linton Ralph** (1893– 1953): **Les fondements culturels de la personnalité, 1945**.

- دافيد رايزمن: **Riesman David**: **La foule solitaire, 1950**.

- رونو سانسوليو: **Renaud Sainsaulieu**: **L'identité au travail, 1977**.

3- النظرية الوظيفية Fonctionnalisme

1) كلمة الوظيفة: لها معاني مختلفة، أهمّها:

أ- المعنى العامي (الشائع): نظام، أو مهنة أو مركز مهني "شغل وظيفة سكرتيرة"، وهي أيضاً مجموع المهام الخاصّة بواجب ما أو مسؤولية "هذه وظيفة المسؤول كذا".

ب- المعنى الرياضي: علاقة بين عنصرين أو أكثر، والتي تُصاغ علي شكل المعادلة التالية: س= ع (ن). فتُقرأ س هي وظيفة (ن)، وهذا بمعنى أنّ كلّ تغيّر لــ ن ينتج عنه تغيّر تلقائي لــ س.

ج- المعنى البيولوجي: المشاركة التي يعطيها عنصر للعضو أو لعمل المجموعة التي ينتمي لها: الأعضاء مثل القلب، المعدة، الكبد... لها وظائف حيوية في جسم الإنسان.

2) المعنى الاصطلاحي للوظيفية:

الوظيفية "براديجم بحث" تطوّر بخاصة في الولايات المتّحدة الأمريكية بداية من سنوات **1940** (استمرارية لمدرسة شيكاغو)، والذي سيطر على علم الاجتماع الأمريكي إلى غاية سنوات **1960**، من خلال الأعمال الأنثروبولوجية والسوسيولوجية والسيكولوجية، وتعود أصوله للسوسيولوجيين الأوائل في أوروبا، وما يزال يُعتبر أهمّ التيارات في أمريكا إلاّ أنّ تأثيره كان محدوداً في أوروبا، ويظهر في بعض التخصّصات بقوة مثل علم اجتماع التنظيمات وعلم اجتماع السياسي. وقد أخذت الوظيفية المعنى البيولوجي لكلمة "الوظيفة"، فتبنّي الاتجاه الوظيفي سوسيولوجيا يعني تفسير الظواهر الاجتماعية من خلال وظائفها الاجتماعية. ينقسم هذا الاتجاه إلى ثلاث (**03**) تيارات:

- الوظيفية المطلقة.
- البنائية الوظيفية.
- الوظيفية النسبية.

يرى غي روشيه Guy Rocher أنّه لا يجب الخلط بين المقاربة الوظيفية "Approche fonctionnaliste" والتحليل الوظيفي " Analyse fonctionnelle"، رغم أنّ المؤسسين الأوائل لهذا الاتجاه يستعملوهما دون التفرقة بينهما في كثير من الحالات:

فالتحليل الوظيفي: هو عام يتعلّق بكلّ المجالات العلمية ويعني الوصول إلى قوانين تحكم ظاهرة ما بشكل دقيق، وهو مماثل للتحليل السببي الرياضي (سبب يعطي نتيجة).

أمّا الوظيفية أو المقاربة الوظيفية: فتندرج في إطار البراديجمات النظرية التي لها مفكروها ومبادئها الخاصة بها ومرجعياتها. فهي طريقة لرؤية الواقع هدفها إعطاء نموذج لتفسير الظاهرة الاجتماعية مهما كانت بغضّ النظر عن المنهجية المتبعة.

3) جذور الوظيفية:

تعود الوظيفية في جذورها إلى أعمال كلّ من هربرت سبنسر H. Spencer وإميل دوركايم E. Durkheim، فبالاعتماد على التصور التطوري والعضوي درس لأوّل مرّة سبنسر وظيفة المجتمع من منطلق بيولوجي، واعتبر المجتمع أشبه بكائن حيّ حيث أنّ الأجزاء التي تكوّنه تشارك في حفظ الوظيفة العامة لهذا الكائن.

أمّا دوركايم الذي تأثّر بأفكار سبنسر والذي انتقده بشكل كبير فيذهب بعيدا في تحليله منطلقاً من مفهوم "الوظيفة"، واستطاع أن يضع المبادئ الأولى للوظيفية في كتابه "في تقسيم العمل الاجتماعي" لذا اعتبره مالينوفسكي الأب الأوّل للوظيفية. فقد بيّن كيف أنّ لتقسيم العمل وظيفة أساسية تتمثّل في ضمان التماسك بين الأفراد فيما بينهم، متجاوزاً النظرة الاقتصادية التي تعتقد أنّ تقسيم العمل يزيد في الإنتاج فقط (الاستجابة لحاجة وظيفية فقط)، فدوره عند دوركايم تثمين التضامن الاجتماعي الذي هو عامل أساسي في ربط العلاقات

الاجتماعية، وبالتالي ضمان وظيفة السير الحسن للمجتمع في عمومه. فهو يقرّب بين مفهوم الوظيفة بالمعنى البيولوجي من مفهوم الحاجة كما فعل المؤسّسون الأوائل للوظيفية لهذا اعتبروه الرائد الأوّل لهم.

4) الاتجاهات الثلاث للوظيفية:

نجد في مجال علم الاجتماع ثلاث اتجاهات أو أنواع للوظيفية:

– وظيفية "مالينوفسكي ورادكليف براون، والتي تُسمّى الوظيفية المطلقة **Fonctionnalisme absolu**.

– وظيفية تالكوت بارسونز، والتي تُدعا البنائية الوظيفية **Structuro-fonctionnalisme**.

– وظيفية ميرتون، والتي سمّاها هو نفسه بالوظيفية المتوسطة المدى **Fonctionnalisme de moyenne portée** أو النزعة المتوسطة أو النسبية.

1- الوظيفية المطلقة:

ظهور الوظيفية في بدايتها كان من خلال أعمال كلّ من برانسلاو مالينوفسكي **B. Malinowski** ورادكليف براون **R. Radcliffe Brown**، ورغم اختلافهما أحياناً في بعض القضايا خاصّة ما يتعلّق بالحاجة، فقد درسا الظواهر بخاصة الثقافية منها تبعاً لوظيفتهما.

بالنسبة لمالينوفسكي كلّ نشاط يَشغل وظيفةً تُشبع حاجةً محدّدة. فالحاجة والوظيفة مفهومان غير قابلين للفصل بينهما، فهما يُشكّلان وحدة متجانسة لا يمكن فصل الواحدة عن الأخرى. ولا وجود لعنصر غير نافع أو عشوائي، فإن وُجد فهذا يعني أنّه يستجيب لحاجة محدّدة وبالتالي وظيفة ما تضمن حسن سير الوظيفة العامة.

أخذ مالينوفسكي مثال الطقوس السحرية عند الأرخونت **Argonautes** في المحيط الغربي **Pacifique occidental** والتي ترافق صناعة القوارب الموجّهة للبحر، والتي لا تتمّ مع القوارب المستعملة داخليا، فالبنسبة لمالينوفسكي

تستجيب هذه الطقوس لحاجة الحماية، ووظيفتها تهدئة مخاوف الصيّادين تجاه البحر وإعطائهم بالتالي الثقة في النفس.

أمّا براون فلا يتحدث كثيراً عن "الحاجة **Besoin**"، إنّما عن "الظروف الضرورية للوجود **Condition nécessaire d'existence**"، ويجب أن يكون مفهوم الوظيفة في محور التحليل الاجتماعي، لأنّ من خلال ذلك نستطيع فهم السير الحسن للوظيفة العامة للنسق الاجتماعي.

2- البنائية الوظيفية:

يعود الفضل للوسسيولوجي تالكوت بارسونز **Talcott Parsons** في تأسيس البنائية الوظيفية، التي تهدف إلى إنشاء سوسيولوجية مجرّدة وشاملة، وبناء نظريّة عامة للمجتمع في عمومه. بالنسبة له كلّ الأفعال الإنسانية يجب أن تفسّر في ظلّ وظيفتها مقابل البنية الاجتماعية، والتي أخذت منها تسميتها "البنائية الوظيفية **Structuro- fonctionnalisme**"، ويهدف تحليله إلى تحديد الضرورات الوظيفية **Impératifs fonctionnels**" التي تضمن السير الحسن للوظيفة العامة للمجتمع، وهذه الضرورات هي:

- التكيّف
- تحقيق الأهداف.
- اندماج النسق
- الحفاظ على النماذج الكامنة (مرّت سابقاً).

طبّق تحليلاته على العائلة، واستطاع أن يطوّر التحاليل الخاصة بالعائلة النووية **Nucléaire**. حسب بارسونز التغيّرات الاجتماعية والمهنية الناتجة عن حدث "المجتمع الصناعي" فرضت قطيعة في الروابط العائلية التقليدية، ومحورية العائلة حول الزوجين وفي عدد محدود من الأطفال. فظهور العائلة النووية وتطوّرها هو استجابة لحاجة تتعلّق بالتطوّر المجتمعي.

3- الوظيفية النسبية "ذات النزعة المتوسّطة":

أنشأ ميرتون **Robert King Merton** (1910- 2003) متغيراً آخر سمّاه هو نفسه "النزعة المتوسّطة" من خلال الانتقادات التي وجّهها للتيارين السابقين في الوظيفية، لهذا يختار البعض تسميتها أيضاً "الوظيفية المراجعة (التي تمّ مراجعتها)". نقده للوظيفية المطلقة يرتكز على نقطة انطلاق رئيسة هي إعادة النظر في ثلاث مبادئ أو مسلّمات يُسميها "الثالوث الوظيفي **Triptyque fonctionnaliste**" وهي:

أ- مبدأ الوحدة الوظيفية للمجتمع: والذي يرى أنّ المجتمع وحدةً متجانسة ومنظّمة. في حين يرى ميرتون أنّ في المجتمع الحديث:

- جماعات مختلفة لا تنضمّ بالضرورة في نفس القيم،
- ونجد قيماً قد تكون وظيفية للبعض، لكنّها غير وظيفية للبعض الآخر.

ب- مبدأ عالمية الوظيفي: وهو المبدأ الذي يرى أنّ كلّ الأنشطة الاجتماعية لها وظيفة معينة، في حين يبيّن ميرتون في كتابه "**Elements de théorie et méthode sociologique**" أنّه:

- يمكن لبعض الأنشطة لا أن تكون لها وظيفة محدّدة
- أو أن تكون لها عدّة وظائف.
- أو حتّى تكون لها وظيفة مضادة للسير الحسن للوظيفة العامة.

ج- مبدأ الضرورة: الذي يرى أنّ كلّ الأنشطة الإنسانية ضرورية للسير الحسن للوظيفة العامة للمجتمع لأنها تضمن وظيفة معينة. وعند ميرتون: كما أنّ العنصر الواحد قد يشغل عدّة وظائف، يمكن للوظيفة الواحدة أن تُشغل من قبل عدّة عناصر متناوبة والتي يسمّيها "بدائل وظيفية **Substituts fonctionnels**"، أو "المقابلات الوظيفية **Equivalents fonctionnels**".

فهو يرى أنّ الوظيفية المطلقة اختزالية، والبنائية الوظيفية تجريدية عمومية

(شمولية)، فالتركيز على ضرورة التوازن الاجتماعي والسير الحسن للوظيفة العامة، جعلهم لا ينتبهون إلى إشكالية الديناميكية الاجتماعية وبخاصة التغيّر الاجتماعي والمعيقات الوظيفية (**D. Giaymaun; B. Barbusse, 2005, 121**).

لهذا وانطلاقاً من هذه العناصر يقترح وظيفية تبدو أكثر واقعية تقوم على المصطلحات التالية:

1- عناصر "لا وظيفية **A- fonctionnels**": وهي عناصر ليست لها وظيفة محدّدة داخل النسق.

2- عناصر "متعدّدة الوظيفة **Pluri- fonctionnels**": عناصر لها وظائف متعدّدة ضمن النسق.

3- المعوّقات الوظيفية "**Dysfonctionnels** ": تتمثل في "العناصر الضد وظيفية": وهي عناصر لا تساهم في السير الحسن للوظيفة العامة للمجتمع.

4- البدائل الوظيفية **Substituts fonctionnels** : أو "المقابلات الوظيفية **Equivalents fonctionnels**"، وهو إشغال وظيفة معيّنة بعناصر عدّة متناوبة فيما بينها.

5- الوظيفة الظاهرة والوظيفة الخفية **Manifestes et Latentes**: على عالم الاجتماع التفرقة بين شريحتين يخلط العامة بينهما:

- الشريحة الذاتية: التي تظهر في الأهداف والدوافع المعلنة من طرف الفرد في فعل اجتماعي ما.
- والشريحة الموضوعية: وهي النتائج الظاهرة (التي يمكن مشاهدتها) للفعل والتي تنقسم إلى وظيفية وضد وظيفية.

ويمكن توضيح هذه العلاقة ضمن الشكل التالي:

شكل يبيّن النتائج الظاهرة والخفية للسلوك

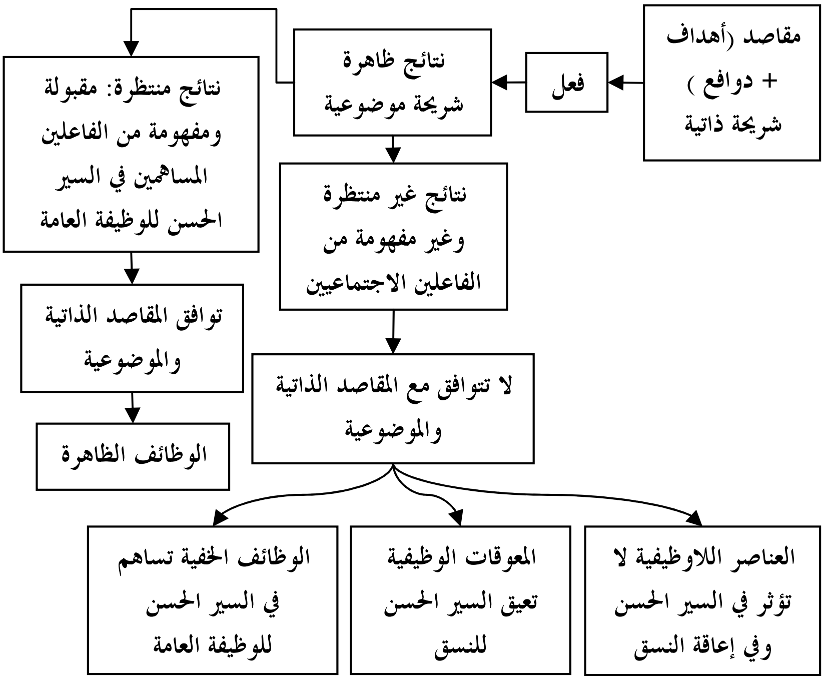

5) الفكرة الموجّهة:

لا يمكن فهم الظاهرة إلاّ ضمن الوظيفة العامة للمجتمع، والوظيفة التي تشغلها البنى والعناصر المكوّنة له.

6) مبادئ النظرية:

عرفت النظريّة الوظيفية تطوّرات عدّة، لهذا قد تبدو بعض العناصر متناقضة إنّما هي في الأصل تعكس مرحلة في تاريخ تشكّلها، أهمّ هذه المبادئ:

- لكلّ مجتمع وظيفة عامة يشغلها ويحافظ عليها باستمرار (مبدأ عالمي).

- لكلّ عنصر أو بنية داخل المجتمع وظيفة محدّدة تشارك بها في الوظيفة العامة للمجتمع، ولا وجود لعنصر دون وظيفة.

- أيّ تعديل في البنية الجزئية يؤثّر في تعديل البنى الأخرى والبنية العامة.

- كلّ تعديل لإحدى البنى تتعدّل تبعاً لذلك وظيفتها، ما يُؤثر في وظائف البنى الأخرى والبنية الكلّية.

– تتحدّد وظيفة البنية ضمن النسق العام من خلال موضعها الدقيق، ودرجة شدّها (أشبه بالحروف من حيث مواضعها وشدّها).

– المجتمع يعدّل من وظائفه باستمرار وفقاً للحاجات، ولا يعرف حالة الصراع، إنّما انتقال من تكيّف إلى تكيّف آخر.

– المجتمع وحدة متجانسة ومنظّمة، وكلّ عناصره تساهم في السير الحسن للوظيفة العامة.

– الضرورات الوظيفية أساسية لسير أيّ مجتمع مهما كان.

– أحدث ميرتون تغييراً في هذه المبادئ بإنشاء مصطلحات جديدة هي: عناصر لا وظيفية، عناصر ضدّ وظيفية، عناصر متعدّدة الوظيفة، بدائل وظيفية، الوظيفة الظاهرة والوظيفة الخفية.

7) رواد الوظيفية:

– برانسلاو مالينوفسكي: **B.Malinowski** (**1884– 1942**)، **Les argonautes du Pacifique,1922**

– رادكليف براون: **A.R.Radcliffe Brown** (**1883– 1955**).

– تالكوت بارسونز **Talcott Parsons** (**1902– 1979**): **Système des société modernes, 1971**.

– روبارت ميرتون **Robert King Merton** (**1910– 2003**): **Eléments de théorie et méthode sociologique, 1953.**

4- الفردانية المنهجية Individualisme Méthodologie

1) اصطلاحا:

الفرد هو الوحدة المقابلة للمجتمع، وللفردانية ثلاثة معاني:

أ– المعنى الأخلاقي "الفردانية التبريرية **Individualisme justificatif**": يكون فردانيّاً كلّ شخص أو إيديولوجية تضع في مركز مبادئها الشرعية الفرد، بهذا المعنى فالفردانية هي نقيضة "الجماعي".

ب- المعنى السوسيولوجي "الفردانية الوصفية Individualisme descriptif": يُميّز نوعاً أو نمطاً من المجتمع، تكون فيه استقلالية الفرد القيمة الأساسية، وتكون المرجعية لتمجيد أو تقديس الفرد هي المسيطرة على مجمل التصرفات الإنسانية. المجتمع الفرداني يناقض المجتمع الذي تكون فيه، على العكس، القيم الجماعية والمشتركة هي السائدة. لا يوجد مجتمع فرداني كلية ولا مجتمع جماعي كلية، فكلاهما موجود بشكل أو بآخر (حسب دوركايم). إنّما درجته وتطوّره تجعل الفترات التاريخية تختلف عن بعضها، بهذا المعنى فالفردانية تسمح بتحديد الخصوصية التي تميّز حالة مجتمع في فترة من الزمن.

ج- المعنى المنهجي "المنهجية التفسيرية": هو قاعدة لعملية تفسيرية، وهو إشكالية وطريقة للإجابة عن تساؤلات بحثية، بهذا تعتبر المنهجية الفردانية مبدأ منهجياً أساسياً في العلوم الاجتماعية، ولا تخصّ علم الاجتماع والاقتصاد فقط، حيث وجدت نجاحاً كبيراً وما تزال تهيمن فيهما إلى حدّ اليوم. فالمنهجية الفردانية ترى أنّ السلوكات الفردانية سبب الظواهر الكبرى، وليس العكس. بهذا فهي تعارض الاتجاه الكلاني والبنائي. والى هذا الإطار تنتمي الفردانية المنهجية المعالجة هنا.

2) مراحل نشأة النظرية وتطوّرها:

الفردانية المنهجية مبدأ منهجي له أصول نظرية، ويعود الفضل إلى ريمون بودون في إبرازها، وقد تبنّاها عدد كبير من علماء الاجتماع، ثمّ اتجه بها بودون إلى سوسيولوجية الفاعل بتقليد فرداني.

3) أهمّ المراحل:

أ- الأصول النظرية:

تعود الأصول النظرية للفردانية المنهجية إلى عالم الاجتماع ماكس فيبر، وهي نتيجة المبادئ الأساسية لسوسيولوجية الفهم عنده، وقد ذكرها هذا الأخير في رسالة له عام 1920 موجّهة إلى زميله الاقتصادي ليفمان Robert

Liefmann: «علينا أن نتبنّى بشكل صادم المناهج الفردانية». ويرى أنّ الظواهر هي نتيجة أفعال، وعقائد، ومواقف وسلوكات فردية، يجب على السوسيولوجي فهمها، وأنّ الأفراد يقومون بأفعال لها معنى بالنسبة لهم ولغيرهم خلاف دوركايم الذي يعتقد أنّ الأفراد مضبوطون بمحدّدات اجتماعية مسبقة تَفرض عليهم طرقَ تصرفاتهم وتفكيرهم بشكل أو بآخر.

هدف علم الاجتماع بالتالي عند فيبر هو إيجاد المعنى الذي يعطيه الأفراد لأفعالهم من أجل إعادة بناء عملية ظهور الظواهر الاجتماعية المطلوب تفسيرها، وقد دعا إلى علم اجتماع ينطلق من الفرد لفهم الظواهر الماكرو اجتماعية، وتفترض سوسيولوجية الفهم من أجل ذلك إعادة بناء المعنى الذي يعطيه الفاعلون لأفعالهم.

ب- الإطار النظري للتفسير:

استناداً للعناصر النظرية السابقة يُعلن بودون عن تأسيس الفردانية المنهجية، ويرى أنّه من أجل تفسير ظاهرة اجتماعية مهما كانت من الضروري إعادة بناء دوافع الأفراد المعنيين بالظاهرة المدروسة، ومعالجة هذه الظاهرة باعتبارها نتيجة لتجميع الأفعال الفردية المنحدرة عن هذه الدوافع"

ويقتضي تفسير الظواهر وفقاً لمنطق الأفراد بالمعنى الفيبري، أن يعمل الباحث على تقصي الأسباب التي دفعت الأفراد للتصرف كما تصرفوا، أي وضع السلوكات الفردية ضمن سياق الفعل الخاص والذي يلخّص نسقا محددا من التفاعلات. بهذا يستطيع عالم الاجتماع تبعاً لهذا المبدأ المنهجي تفسير عدّة أحداث وظواهر اجتماعية (D. Giaymaun; B. Barbusse, 2005, 109).

تنبّه بودون لهذه الظاهرة سنوات 1960، في عمل مشترك مع عالم الاجتماع دافيدوفتش Davidovitch الذي لفت انتباهه إلى تزداد أرشفة (Classer) القضايا منذ القرن التاسع عشر نتيجة سلوكات فردية تخصّ القضاة الذين زاد العمل عليهم ونقصت وسائل المحكمة، فهم لا يهتمّون إلاّ بالقضايا

المهمّة أمّا غيرها فتُحال إلى الأرشفة. ولاحظ أنّ نفس التفسير يمكنه أن ينطبق على عدد لا بأس به من الظواهر في المجال الاجتماعي.

وذكر بودون لأوّل مرّة عبارة "الفردانية المنهجية" في كتابه " **L'inégalité des chances**" (1973) مستعيراً إيّاها من شومبيتر **Shumpeter**، وهايك **Hayek**، وبوبار **Popper**.

ولأنّه كان يسعى لإدخال الرياضيات لعلم الاجتماع فقد لخّص نظريته ضمن المعادلة التالية: **M=M [m(p)]**

M : الظواهر العامة (الشاملة) المراد تفسيرها.

m : التصرفات الفردية.

p : الدوافع الفردية الناتجة عن المعطيات العامة (الشاملة)

فالظواهر الشاملة (**M**) هي نتيجة (ارتباط وظيفي بالمعنى الرياضي) التصرفات الفردية المجمّعة (**m**) والتي يتمّ تحريكها عن طريق المعطيات العامة (بالتالي ارتباط **m** بـــ **p** وظيفيّاً).

مثال: نتيجة ارتفاع سعر المنتجات المستهلكة (السياق)، يستجيب المستهلك لردود فعل (دوافع) منطقية وهو تحويل استهلاكه لمنتوج آخر (عدا الاستثناء)، وما ينتج عن هذا السلوك الفردي للمستهلك طلب أقل لهذا المنتوج وهذا يعني أن انخفاض السلعة (الظاهرة المدروسة **M**) ناتج عن تجميع السلوكات الفردية (**m**) والتي هي نفسها ناتجة عن الوضعية الاقتصادية (**p**) (**D. Giaymaun; B. Barbusse, 2005, 79**).

ولفهم أفعال الأفراد، يجب اعتبارها أفعالا عقلانية، والعقلانية عند بودون أن يكون للفرد سبباً واضحاً لفعل ما يقوم به أو اعتقاد ما يعتقده.

والعقلانية **Rationalité** بهذا تنقسم إلى ثلاث:

– عقلانية وسائلية **Instrumentale**: استعمال وسيلة معيّنة لبلوغ هدف محدّد: مواصلة الطالب للدراسة كي تكون لديه إمكانية الحصول على وظيفة (بالنسبة للاقتصاديين هذه هي حدود العقلانية).

– عقلانية إدراكية Cognitive: تصرّف الفرد في سلوكه وفقاً لمنطق ثقافي في فهم أو إدراك الواقع، بمعنى عن طريق العودة إلى نظريّة تفسيرية مُستعارة من المجال العلمي أو السياسي أو الديني أو غير ذلك. وهو عموماً النمط المستعمل في منطق البحث العلمي، وهو أيضاً النمط الذي يمكن أن تعتمد عليه المعرفة العادية.

– عقلانية قيمية Axiologique: أن يتصرّف الفرد طبقاً لمبادئ أخلاقية أو قيم معيّنة.

الفرد ليس عقلانيا بطبيعته، إنّما يصبح عقلانيا بداية من اللحظة يكون فيها منطق سلوكه خاضع للسياق الاجتماعي الذي يوجد فيهـ ما يجعله يصبح فاعلا اجتماعيا Acteur social.

ج- من الفردانية المنهجية إلى سوسيولوجية الفاعل:

وسّع بودون من الفردانية المنهجية إلى إطار أشمل سُمّي بسوسيولوجية الفاعل، والتي تقوم على التقليد الفرداني. فكلّ فعل اجتماعي لا يتمّ إلا ضمن سياق خاص، والذي يجب أن يُؤخذ بعين الاعتبار لفهم التصرّفات الفردية، ويُطلق بودون على هذا السياق عبارة "نسق التفاعل Système d'interaction، ويفرّق بين نوعين من نسق التفاعل (حسب درجة تنظيمها):

– نسق وظيفي: يرتبط مباشرة بالأدوار ويتمّ ضمنها.

– نسق تبادلي: يتمّ بشكل تلقائي دون العودة للأسوار ولا يرتبط بها.

	النسق الوظيفي fonctionnels	النسق التبادلي interdépendance
الطبيعة	نسق منظّم، مضمر أو واضح، حيث تلعب فيه كلّ قطعة دوراً محدّداً. مثال: حين يكتب الجامعي مؤلّفاً أو يراقب العامل إنتاجيته فهو يستجيب لسياق ضمن الدور	نسق غير منظّم، يتم فيه ممارسة الأفعال الفردية دون العودة إلى مرجعية الأدوار. مثال: دراسة الاقتصاد بدل الأدب، أو أخذ السيارة بدل القطار، فهي ليست أفعالاً تتمّ في سياق دور معيّن لكنها تقع بشكل تبادلي.

الفرد	فاعل فردي (الفاعل باعتباره دور معيّن)، له استقلالية، وبما أنّ كلّ دور غير محدّد بدقّة، فللفاعل هامش من الفهم الشخصي.	عضو فردي يتصرّف وفقاً لما يراه ضمن السياق، ويتطوّر دون العودة إلى أيّ دور محدّد مسبقاً.
طريقة العمل	يعمل مثل اللعبة، وعمله يرتبط بالاستراتيجيات التي يحركها الفاعلون. تحلل التنظيمات باعتبارها نسقاً للفعل بالنسبة لكروزي أمّا فريدباخ كلعبة تُبنى يومياً من قبل استراتيجيات الفاعلين.	هي باستمرار مثل الأنساق الوظيفية منتجة للأفعال التجميعية أو الظاهرة. الفعل الظاهرة فعل لا يتمّ البحث عنه بوضوح من قبل الأفراد، والذي هو نتيجة وضعيتهم التبادلية.

ويصل إلى حوصلة مفادها أنّ المجتمع مكوّن من أفراد في حالة تفاعل (في كلا النسقين)، لا من أفراد بجوار بعضهم بعضاً. لكنّ مؤلّفنا لا يقف عند هذا الحدّ، إنّما يصل إلى أنّ الأفعال الفردية قد تُعطي نواتج غير متوقّعة من قبل الفاعل ذاته، أو أفعالاً تجميعية.

– ظهور الأفعال التجميعية: تنتج الوضعيات التفاعلية ظواهر اجتماعية غير منتظرة (غير مقصودة) من قبل الأفراد أسماها بودون "الأفعال الظاهرة Emergents (أو الطائفة لأنها تطفو)" أو أفعال "التركيبية Composition" أو "التجميعية Agrégation" أو أفعال "النسق Systèmes". ويختار هذه المفاهيم بدل "الأفعال المنحرفة Pervers" لأنّ هذه العبارة الأخيرة تقوم على حكم مسبق، وكأنّ كلّ الأفعال غير المنتظرة غير مرغوب فيها، وهذا غير صحيح. مثال ذلك الازدحام الناتج في التجمعات عن استعمال الأفراد لسياراتهم بدل الحافلات لأسباب خاصة كالراحة، الثمن، الوقت، السهولة... لكن هذه الظاهرة تعطي نتيجة سلبية على أصحاب السيارات أنفسهم. مثال آخر هو الحطّ من قيمة الشهادات، فكلّما زاد عدد الطلبة أكثر تمّ الحطّ من قيمة

الشهادات لدرجات أقلّ، ونفس الشيء بالنسبة لتخصّصات معيّنة.

ومن أهمّ نماذج الأفعال التجميعية:

1- الأفعال التضخيمية **Effets d'amplification**: خلال أزمة 1929، ونتيجة خوف الأفراد من إفلاس البنوك، جعلهم يتهافتون على شبابيك البنوك وسحب أموالهم، وهذا السلوك ولّد إفلاساً حقيقياً للبنوك. فالأزمة تمّ تضخيمها على المستوى الكلّي. مثال آخر للعنصرية، فالأحكام التي كان يملكها البيض (في أمريكا) عن السود بأنّهم محطّمون للإضراب عزّز السلوك العنصري ورفض السود في النقابات (شمال أمريكا كما درسها ميرتون بعد الحرب العالمية الأولى).

2- الأفعال التجميدية **Effets de neutralisation**: يمكن للرأي العام (الذي هو تجميع للآراء الفردية) حسب ما يقيسه سبر الآراء أن يبقى كما هو رغم تغيّر رأي الملايين من الأشخاص. فـ 80 % من الفرنسيين مع تقليص مدّة العمل عام 2000 وهو نفسه عام 1985، وهذا لا يعني أن لا أحد غيّر من رأيه خلال هذه الفترة، والـ 80 % ليست نفسها في الفترتين. فاستقرار الرأي (ظاهرة جماعية) قد يكون ناتج عن الاستقرار الحاصل في الآراء الفردية، إذ أنّ عدداً كبيراً من الأفراد يغيّر من رأيه في الاتجاهين (**D. Giaymaun; B. Barbusse, 2005,81- 82**).

إنّ الأسباب الصغيرة **Micro- motifs**، في العمق، تُنتج عن طريق تجميعٍ بسيطٍ أفعالاً كبرى **Macro- phénomènes**. ونواتج الأفعال الفردية تخرج عن الأفراد الذين أنتجوها (الجمع بين الأفراد والقوّة الاجتماعية التي تحيط بهم).

وترى النظرية الاقتصادية الفردانية أنّ الفرد مرتبط في سلوكه بثلاث افتراضات:

- افتراض "الناتجية **Conséquentialisme**": ضبط السلوك وفقاً للنتائج المفترضة بالمفهوم الاقتصادي.
- افتراض الأنانية **Egoisme**: اهتمام الفرد بمصالحه الخاصة والمصالح المرتبطة بأقاربه.

- افتراض الحدّ الأقصى Maximisation: البحث عن الحلّ الأقصر والأضمن اقتصاديّاً.

تُشكّل هذه الافتراضات في مجملها "الرجل الاقتصادي Homo Oeconomicus". لكنّ سوسيولوجية الفاعل تستطيع تفسير عدد أكبر من الظواهر التي عجزت الفردانية الاقتصادية من فهمها بإدخال عوامل أوسع ونقل الإنسان إلى حالة "الإنسان السوسيولوجي Homo Sociologicus".

شكل يبيّن الفرق بين الإنسان الاقتصادي والإنسان السوسيولوجي

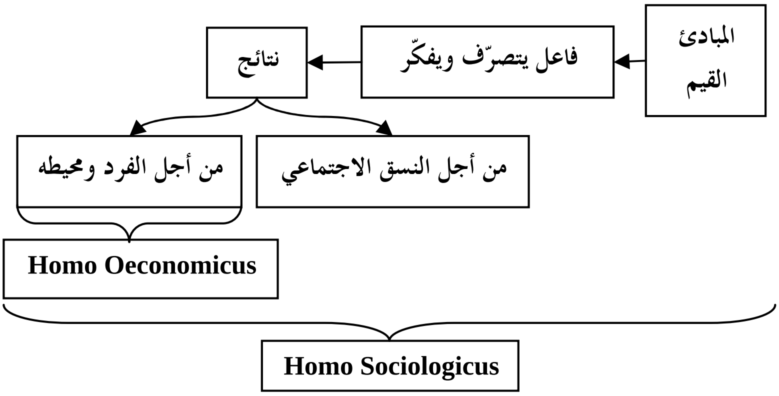

4) مبادئ النظرية:

أ- الأفكار الموجّهة:

يعتبر الفرد محور التحليل السوسيولوجي باعتباره فاعلاً اجتماعياً عقلانياً ومستقلاً. ولكلّ ظاهرة خصوصيتها في تركيبتها وتاريخها تبعاً لظروف إنتاجها من قبل هؤلاء الأفراد.

ب- المبادئ الأساسية:

- المجتمع يقوم على الأفراد المكوّنين له باعتبارهم فاعلين عقلانيين ومستقلّين.
- الإنسان ليس عقلانياً بطبعه إنّما يصبح كذلك في اللحظة التي يسير

فيها وفقاً لمنطق السياق الاجتماعي دون أن يكون ميكانيكيّاً.

– كلّ فرد يتصرّف ويفكر كما يشاء، وكلّ أفعاله تحمل معنى، على السوسيولوجي البحث عن هذا المعنى ودوافعه (محرّكاته).

– ليست البنى الاجتماعية هي التي تحدّد الفعل الفردي إنّما مجموع الأفعال الفردنية هي التي تنتج الأفعال الظاهرة، فالظواهر الاجتماعية نتاج تجميع الأفعال الفردية (رفض فكرة الضمير الجمعي).

– البنية الاجتماعية توجّه وتؤثّر في الفعل حسب وضعية الأفراد ولا تحدّده، كما لا يمكن فهم الفعل الفردي إلا في إطار الاجتماعي (الفرد يملك هامش التصرّف).

– المنطق الفردي لا يستجيب للمنطق الاقتصادي فقط الذي يهدف لتحقيق أقصى درجة من الراحة، إنّما يمكنه أيضاً أن يستجيب لدوافع غير متجانسة ومتناقضة.

– الأفعال التجميعية هي حصيلة الأفعال الفردية، والأفراد غير واعين بالضرورة بنتائج أفعالهم التجميعية، والتي قد تكون مناقضة لأهدافهم.

– رفض القوانين الاجتماعية المباشرة للتاريخ (أ يعطي ب)، فالمستقبل غير مرئي وغير مؤكّد دوماً، ولكلّ ظاهرة خصوصيتها، والفوضى جزء من التاريخ، لذا يجب إعطاء مكانة للصدفة والذاتية للتاريخ (J. Ferrette, 2006, 111- 115).

5) رواد الفردانية المنهجية: أعمال ريمون بودون Raymond Boudon:

- L'inégalité des chances, la mobilité social dans les société industrielles, 1973.
- Effets pervers et ordre social, 1977.
- La logique du sociale, introduction a l'analyse sociologique, 1979.
- La place du désordre, critique des théories du changement social, 1984.
- Y a- t- il encor une sociologie?, 2003.
- Raison, bonne raison, 2003.
- La sociologie est- elle une science?, 2004.

5- التفاعلية Interactionnisme (التفاعلية الرمزية، الإثنوميتودولوجيا)

1) تعريف التفاعل: عملية التأثير المتبادل بين نظامين أو أكثر.

2) تعرف التفاعلية:

التفاعلية اتجاه يجمع مدرستين: التفاعلية الرمزية والإثنوميتودولوجيا، وما يجمعهما هو رفضهما لتطرّف وجهات نظر الفردانية والكلانية. وغالباً يُطلق على التفاعلية عنوان "مدرسة شيكاغو الثانية"، لقد أثر روادها في السوسيولوجية الأمريكية خلال فترة الستينيات، ولم تنتقل إلى فرنسا إلاّ خلال الثمانينيات. ومع إصرار هاتين المدرستين على البرجماتية (النفعية) فقد طوّرتا السوسيولوجيا النوعية وفقاً للصورة الأولى لمدرسة شيكاغو.

3) المدرستان (الاتجاهان):

1- التفاعلية الرمزية:

أ-النشأة والتسمية:

يتكوّن هذا التيار من جيلين من الباحثين كلاهما تكوّن في جامعة شيكاغو:

- الجيل الأوّل (سنوات 1930- 1940): أهمّ أعلامه بلومر **Herbert Blumer**، وهوجي **Everett Hugues** واللذان تكوّنا هما وزملاؤهما على يد السوسيولوجيين الأوائل لمدرسة شيكاغو (هوجي طالب لبارك **R.Park** مثلا).

- الجيل الثاني (سنوات 1950- 1960): أهمّ زعمائه غوفمان **Erving Goffman** وبيكر **Howard Becker**، اللذان تكوّنا بدورهما مع زملائهما على الجيل السابق (بيكر درس على يد بلومر وهوجي مثلا).

صاحب عبارة "التفاعلية الرمزية" هو بلومر الذي أحدثها سنة 1937، ويعتبر هذا التيار استمرارية للتقليد الأوّل لشيكاغو، ولهذا يُلقب – كما سبق- غالبا "مدرسة شيكاغو الثانية"، لأنّه يتبنّى نفس الاتجاه البراجماتي والتصوّر المنهجي (البحوث الميدانية، الوسائل الكيفية مثل المقابلات، السير الذاتية،

الملاحظة بالمشاركة...).

ب-مراحل تطوّرها:

1- المؤسّسون الأوائل:

- وضع المبادئ الأولى لهذا الاتجاه الجيل الأوّل من التفاعليين الرمزيين، وتمّ ذلك من خلال أعمالهم الميدانية. لكنّ الجيل الثاني هو الذي نظّمها وعمّقها أكثر. وتقوم التفاعلية الرمزية على مبدأين أساسيين:

أ- يتصرّف الفاعلون وفقاً للمعنى الذي يعطونه للأشياء التي تحيط بهم، وليس لما هم عليه فعليّاً، بمعنى آخر لا نرى الواقع كما هو إنّما من خلال التصوّرات التي ننتجها عنه.

ب- تتكوّن هذه التصورات من خلال التفاعلات اليومية، لهذا من أجل معرفة المعنى الذي يعطيه الآخرون للأشياء التي تحيطهم، يجب فهم طبيعة تفاعلاتهم اليومية، كما يقول بيكر **H. Becker** «أمام أفعال تبدو أنّها غير مفهومة، يمكن على الأرجح إنشاء فرضية ممتازة بالتساؤل كيف تبدو الفكرة جيّدة بالنسبة للأفراد الذين فعلوها في الفترة التي فعلوها. العمل التحليلي يبني بالتالي على اكتشاف الأسباب التي دفعت الفاعل للاعتقاد بأنّها فكرة جيّدة» (**H. Becker, 2002, 58**).

من خلال المبدأين السابقين نرى أنّ وجهة نظر الفاعل أساسية في تفسير الفعل الاجتماعي (تأثير سوسيولوجية الفهم لفيبر والبراديجم الفرداني)، ويبدو بوضوح معارضة التقليد الدوركايمي، فلا وجود لفعل اجتماعي خارجي بالنسبة للفرد خلال اللحظة التي يتشكّل فيها هذا الأخير أثناء عملية التفاعل.

يصنع العالم الاجتماعي يوميّاً من خلال الفاعلين أنفسهم (في خضم العلاقات التي يشكّلونها مع بيئتهم «بهذا المنظور، لا يتلقى الأفراد الظواهر الاجتماعية، فهم لا يتوقّفون، على العكس، من إنتاجها» (**Lallemert, 1993, 219**).

لكنّ هذا لا يقود التفاعليين إلى اعتبار الفاعلين عقلانيين "جيّدين" كما يفترض الفردانيون. فبالنسبة للتفاعليين الرمزيين يعتبر تصوّرُ الفاعلين للعالم الموضوعَ الأساسي لعلم الاجتماع. ومن أجل الفهم الداخلي للفرد فهم ينتقون من صندوق أدواتهم المناهج الكمية، لأنّها حسب رأيهم تُوجد مسافةً بين الباحث وموضوعه، وهو الأمر الذي يُشكّل في النهاية عائقاً أمام جمع البيانات.

2- حركية التفاعلية الرمزية:

أهمّ الأعمال التي أعطت ديناميكية كبيرة للتفاعلية الرمزية، منجزات كلٍّ من: بيكر **H. Becker** وغوفمان **E. Goffman**:

أ- سجّل بيكر في كتابه "المنافس القليل الحظّ **Outsiders**" (**1963**) منعطفاً في سوسيولوجية الانحراف: فقد درس مجموعتين منحرفتين: متناولو الماريجيونا **Marijuana** (نوع من المخدّرات)، وعازفو الجاز **Jazz** (وكان هو عازفاً للجاز). حلّل من خلالهما ميكانيزم بناء الانحراف.

يُعرّف بيكر الانحراف بأنّه "التبادل الذي يتمّ بين الفرد ومجموعة اجتماعية، هذا الفرد الذي يُعتبر في نظر المجموعة مخترقاً أو منتهكاً لقيمة معيّنة". ولا يكفي انتهاك قيمة لاعتبار الفرد منحرفاً، إنّما أن يكون الفعل الممارس معترفاً به من قبل المجموعة على أنّه انحراف.

يحمل الانحراف بالتالي صفتين:

- اختراق أو انتهاك قيمة ما.
- الإشارة أو التعيين (**Etiqueté**) من قبل المجموعة بأن هذا الفرد منحرف. فالانحراف غير مرتبط بالفعل إنّما هو لصيق بحكم الآخرين على ما يقومون به من فعل.

نجد في هذه النظرية "نظرية الإشارة أو التعيين **Etiqueté**" الفكرةَ الأساسية للتفاعلية الرمزية، المتمثّلة في: العالَم الاجتماعي غير معطى وخارجي بالنسبة للأفراد، إنّما مبني من قبل الفاعلين أنفسهم.

ويتّضح أنّ الانحراف هو نتيجة تفاعل وليس فعلاً معزولاً (وفقاً لصورة الانحراف)، وبناء عموم الواقع الاجتماعي يتمّ من خلال تفاعلاتنا اليومية (إعطاء دور للفرد في تشكيل الواقع الاجتماعي بخلاف البراديجم الشمولي). لكنّ أهمية الفرد لا تصل إلى الحرية المطلقة، فالأفراد المنعزلون ليسوا فاعلين بحرية مطلقة وعقلانية ولا يُنتجون الواقع الاجتماعي، إنّما العلاقات اليومية مع المحيط الذي ننتمي له هي التي تُنتج المجتمع (بين الفرد والمجتمع علاقة تبادلية).

ب- تناول غوفمان في كتابه "أعراف التفاعل **Les rites d'interaction**" (**1974**):

- التفاعلات التي تتمّ في الحياة اليومية وطبّق عليها مبادئ التفاعلية الرمزية.

- عالج قواعد التصرّف اليومي باعتبارها مقبولة، ويتعرّض الفرد للعقبات حال مخالفتها.

- هذه المعايير هي التي تسمح باستقرار العلاقات التبادلية في الحياة اليومية وتُنتج "نمذجة للتصرّفات **Modelage du comportement**".

- اهتمّ بالمعايير الاحتفالية لأنّها أقلّ تناولاً في مجالات البحث.

- تنتمي المعايير الاحتفالية للقضايا التي تعتبرها أقلّ أهمية في حدّ ذاتها، إنّما أهمّيتها تكمن فيما تحمله من معاني (بالنسبة لنا وللآخرين).

- أهمّ هذه المعايير الاحتفالية عند غوفمان: الاحترام والهيئة.

أ- الاحترام: تجمع كلّ القواعد التي تهدف للتعبير لشخص ما أو لشيء معيّن عن رمزية الإعجاب له، منها أعراف:

- التحاشي التي تستدعي الحفاظ على مسافة مع الآخر

- ما لا يجب فعله (عدم طرح أسئلة خاصة، استخدام ضمير الجمع للأعلى...).

- أعراف التعريف (**Présentation**) التي تبيّن للآخر مدى التقدير كاستعمال المجاملات (التي تأخذ سياقات عدّة، في حال تسريحة

شعر جديدة، لباس جميل...)

– الابتسامة

– سلوك معيّن.

– تقديم خدمة معيّنة...

ب– الهيئة: تجمع كلّ ما يسمح للفرد بإعطاء صورة جيّدة عن ذاته، والإثبات للآخرين أنّه شخص مقبول، ويتضمّن هيئة الجسم، ارتداء اللباس، السيطرة على بعض الانفعالات أمام الجمهور.

– دعا غوفمان إلى تطبيق التفاعلية الرمزية على العلاقات الوجاهية (وجها لوجه)، وتناول العلاقات التي تبدو للباحثين عادية وقليلة.

– يعرّف التفاعل بأنّه التأثيرات التبادلية التي يمارسها المشاركون على أفعالهم المحترمة.

– تتكوّن الحياة الاجتماعية من عدد لا محدود من أعراف التفاعل، والتي يتمّ إظهارها وكأنّها داخل عرض مسرحي. وكلّ تفاعل عبارة عن فعل نلعب من خلاله دورًا نصبح عن طريقه شخصية "مسرحية" ما،

– الفاعل هو الفرد ذاته الذي يظهر على الخشبة يومياً، أمّا الشخصية (المسرحية) فهي الصورة التي يريد أن يشكلّه الآخرون عنه. من أجل ذلك يستخدم كلّ واحد منّا تقنيات للعرض هي بمثابة الواجهة (أي طريقة الظهور بها للآخرين، وغالباً ما تكون رمزية)، ويحاول بشكلٍ واع أو غير واع إعطاء صورة ايجابية عن الذات قدر المستطاع (التزيين، الملابس، السلوكات، الإيماءات، اللغة، التشديدات...).

2– الاثنوميتودولوجيا:

أ– التعريف:

تمّ إنشاؤها عام 1954 من قبل هارولد كارفينكل **Harold Garfinkel**، وهو الممثّل الرئيس لهذا الاتجاه السوسيولوجي إضافة إلى أرون سيكورال **Aron**

Cicourel. يُحلّل هذا اتجاه امبريقياً الإجراءات (أي المناهج) التي يقوم بها الأفراد بشكل تلقائي (دون أن يشعروا بها حتّى وكأنّها تسير من تلقاء ذاتها) لإنجاز ما يقومون به في حياتهم اليومية. هذه الإجراءات تتمّ وتظهر داخل جماعتهم الاجتماعية، ومن هنا جاءت كلمة "Ethos" التي تعني الجماعة، واقترنت من أجل الضبط المنهجي بكلمة "المنهج Méthode".

الإثنوميتودولوجية بالتالي هي الدراسة العلمية "Logos" لمناهج أو إجراءات الجماعة "Ethnométhodes"، وقد وسّعت هذه المدرسة من المبادئ المنهجية والنظرية للتفاعلية الرمزية بإعطاء الأهمية المركزية للميدان وتسجيل كلّ تصورات الفاعلين وتفاعلاتهم اليومية.

ب- المراحل:

1- المؤسّسون الرئيسيون:

كانت نقطة الانطلاق عند كارفينكل H. Garfinkel من ملاحظة سجّلها خلال تحليله لمجموعة من التسجيلات الخاصة بإصدار الأحكام القضائية (المحكمة)، إذ تعجّب كيف أنّ المحلفين، مع أنّهم غير مختصين في القانون يصلون إلى أحكام ملائمة عن طريق خزّان من المعارف المتراكمة، والتي تُبيّن كفاءة قضائية عالية عند هؤلاء (بمعرفة الصحيح من الخاطئ، والاحتمالي من الحقيقي...)، وهذا يستنتج ما يلي:

- كلّ سلوكاتنا اليومية (اتصالات، اتخاذ القرارات، الأحكام طريقة التطهير، تربية الأطفال...) تخضع لنفس الإجراء باستعمال آليات عادية وفنية، أطلق عليها البعض تسمية "التصرّف الحسن Le bon sens".

- الأفعال الاجتماعي بالتالي هي نتيجة انجازاتنا التطبيقية، وليست بنى اجتماعية تُفرض علينا. والأفراد ليسوا "سذّج ثقافياً" يتصرّفون بشكل ميكانيكي.

- نعتبر كلّنا في الحياة اليومية "سوسيولوجيون في حالة تطبيق

"Sociologue à l'état pratique (يظهر هنا تأثير شوتز بظاهريته في هذه النظرية) والفرق بين السوسيولوجية بالمعنى المشترك " sociologie du sens commun" والسوسيولوجية العلمية أو الاحترافية مبدئيّاً هو درجة تقدّم المعارف فقط.

– بالنسبة للإثنوميتودولوجيا على السوسيولوجي الاهتمام بشكل خاص بالمعنى المشترك وإبراز الظواهر الخفيّة (كأنّها تسير من تلقاء ذاتها)، وهو ما أهملته في الغالب السوسيولوجية "المحترفة" واعتبرته غير علمي.

– من الناحية الإيبستمولوجية تقوم الإثنوميتودولوجية على ثلاث مبادئ مستمدة من الظاهرتية مباشرة وهي:

1 – الإشاروية (الفهرسية) L'indexication: والتي تعني العودة بنائياً إلى المعنى ضمن السياق. نجد هنا مثالاً لحوار يعطيه H. Sacks:

أ: لدي ابن له 14 سنة.

ب: جيّد.

أ: لكن لدي أيضا كلب

ب: آه، أعتذر...

وبالتالي نفهم أن "ب" هو المالك، و"أ" هو مستأجر عنده.

– الانعكاسية Réflexivité: إضافة إلى وظيفة الوصف، فإنّ اللغة تعمل على إعطاء معنى لإنجازاتنا اليومية في اللحظة ذاتها التي ننجزها، وهو ما يسميه الإثنوميتودولوجيون الانعكاسية. بمعنى آخر تحويل أفعالنا إلى كلمات تساهم في إنتاج الواقع الاجتماعي بالطريقة التي يراها بها كلّ واحد منّا.

– التوصيفية Accountabilitie: بفضل الانعكاسية فإنّ انجازاتنا يمكن وصفها، وتقديمها على شكل تقرير وتحليلها، ومن خلال هذه الإنجازات الموصوفة (القدرة على كتابتها) اليومية يمكن للسوسيولوجي دراسة هذا النوع من الظواهر التي تؤخذ من مصادرها، وليس بإعادة بنائها عن طريق النسق العلمي الخارجي عن الأفراد.

2- مرحلة ديناميكية الإثنوميتودولوجيا:

هدف الإثنوميتودولوجية دراسة مناهج الجماعات "الإثنوميتوديات"، وترى أنّ كلّ بحث يهتمّ بالحياة اليومية يستحق العناية وله دلالة سوسيولوجية (وهو ما أُطلق عليه تسمية سوسيولوجيا الحياة اليومية). بهذا يصبح مجالاً للتحليل السوسيولوجي كلّ سياق من سياقات الحياة اليوميّة: حديث الأب مع ولده، محادثات هاتفية، راجل يعبر الطريق، فرد يغيّر من جنسه، سلوكات الأطفال داخل المدرسة...

ومن أجل إجراء هذا النوع من البحوث لا يجب الانطلاق من أيّ فرضية كانت بما أنّ الأمر يتعلّق فقط باستعمال وسيلة هي الطريقة الإثنوجرافية (الملاحظة، المقابلة...) لفهم اثنوميتوديات الأفراد.

يخصّص كارفينكل في كتابه "Studies in Ethnomethodology" (1967) جزءاً معتبراً لـــ "أناس Agnès" وهي حالة من "الشيء الواقعي" في العملية التأسيسية للأنوثة(أناس فتاة، لكنّها وُلدت بجهاز ذكري مشوّه، وأرادت العودة لحالتها الأنثوية، فأجريت لها العملية وطلب من مجموعة من المختصّين متابعة هذا التحوّل في الجنس، منهم كارفينكل وكان أمامه 35 ساعة من المقابلة. واشتغل على كيفية اكتساب الدور النسائي (الأنثوي) مع الذات ومع المحيط ليصل إلى نتيجة مؤداها أنّنا: لا نولد امرأة إنما نصبح كذلك)، ويبقى هذا المثال الأكثر دلالة في أعمال هذا التيار السوسيولوجي.

ففي تصوّر "أناس" العالم غير معطى مرّة واحدة، إنّما يتحقّق في انجازاتنا التطبيقية. وهي حقيقة نراها يوميّاً لكن لا نعطيها أيّة أهمّيّة. وهو الهدف الذي يريد أن يصل إليه الإثنوميتودولوجيون والمتمثّل في إبراز مبادئ إنتاج الواقع.

يعود الفضل لسيكورال A. Cicourel في نشر أوّل كتاب يتعلّق مباشرة بالإثنوميتودولوجيا "Methode and measurement in sociology" (1964). لكنّه، خلال السبعينيات، أخذ مسافة من أستاذه كارفينكل. وشرع في التأسيس، على ركائز الإثنوميتودولوجية، لسوسيولوجية قائمة على الفهم. تقوم

أعماله على ملاحظة المجال الطبي، وبخاصة العلاقة بين الطبيب والمريض ومشاكل الاتصال بينهما، ومن منطلق أنثروبولوجي مدعّم بالملاحظة عن طريق المشاركة يُعيد بناء المنطق الطبي الذي يدعو الطبيب لإجراء فحص ما أو توصيف محدّد أو تدخّل معيّن. لكنّ أعمال هذا السوسيولوجي لم تلق الانتشار الكافي في فرنسا.

استطاع التيار التفاعلي أن يُشكّل بديلاً عن الكلانية والفردانية المنهجية. ويمكن تصنيف هذه السوسيولوجيا ضمن ما بدأ يُسمى الآن عند بعض مؤرخي علم الاجتماع بـــ "السوسيولوجيا التشييدية **Constructiviste**"، واستطاع المساهمة في تقدّم المعرفة السوسيولوجية وتكوين مجمّع نظري إضافي ضمن أدوات علم الاجتماع المعاصر. فبتوجيه أعماله للحياة اليومية فتح المجال السوسيولوجي على موضوع كان يُعتقد أنّه لا يستحق الدراسة أو حتّى أنّه غير علمي.

ومن الأعمال الرائدة في فرنسا والمنتسبة لهذا التيار أعمال جون كلود كوفمان **Jean-Claude Koufman** التي تناولت موضوعات أعمال التنظيف، موضة النهود العارية في الشواطئ، العلاقات العاطفية. وإن كان البعض يشكّك في إمكانية مساهمة مثل هذه الأعمال في تقدّم فهم الواقع وحركة المجتمع ووظيفته (**D. Giaymaun; B. Barbusse, 2005, 127-133**).

4) رواد التفاعلية:

- بيكر هوارد: **Becker Howard**، **Outsider, 1985**.
- أيرون سيكورال: **Cicourel Aaron**، **La sociologie cognitive, 1979**.
- جون كلود كوفمان: **Kouffman Jean Claude, La trame conjugale, 1996**.
- غوفمان إرفين: **Goffman Erving, La mise en scène de la vie quotidienne, 1973**.

خاتمة

تتبعنا ضمن هذه المحاضرات أهمّ الحضارات التي مرّت على التاريخ البشري، مركّزين على فكرها الاجتماعي وما خلفه من ممارسات، وإن تجاوزنا بعضاً منها لا لكونها غير مهمّة أو أنّها لم تترك مخلفاتها على الفكر الإنساني، وإنّما لما تقتضيه صفحات هذا العمل من اختصار وتركيز على أهمّها، لكنّه لا بدّ من الوقوف في محاضرات أخرى على الحضارة الفارسية مثلا، والحضارات الزنجية، ولعلّه من المفيد أيضاً الغوص في حضارة البربر (الأمازيغ) بالشمال الإفريقي وما ساهموا به في تقدّم البشرية، فما لا يدرك كله لا يترك جلّه، ونرجو أن يتمّ ذلك في أعمال أخرى، خاصة إذا كانت مشتركة ومتعدّدة التخصّصات، تضمّ السوسيولوجي كما الأنثروبولوجي والمؤرّخ، والجغرافي والنفساني وغيرهم... وهذه دعوة تنتظر الاستجابة.

أمّا المساحة الثانية من هذا العمل فقد كنّا فيها جدّ مختصرين لما تقتضيه منهجية التدرّج البيداغوجي في اكتساب علم ما، كما أنّ المقرّرات الغربية اليوم تتّجه نحو الحوصلات والاختصارات الدقيقة دون الإخلال بالمضمون. لكنّ هذا يطرح إشكالاً رئيساً يتمثّل في مخرجات هذه الطريقة، فهل هي ناجعة في تكوين المختصّين أم أنّه من الضروري الاعتماد على مؤلفات تفصيلية معمّقة وموسّعة للطالب من أجل الحصول على منتوج يُسمّى "السوسيولوجي" أو بشكل أكثر تواضعاً الحصول على "مختصّ في السوسيولوجيا".

هذه الإشكالات البيداغوجية والمعرفية تنتظر من المختصّين حوارات صريحة وهادئة، تقوم على عملية تقييمية للواقع العلمي في بلادنا، وقد بدأ بعضها يظهر هنا وهناك، في انتظار توسّعها وتعميمها، نتمنّى أن يُفيد هذا العمل الطالب المختصّ في العلوم الاجتماعية والإنسانية، ويساعد الأستاذ في محاضراته، ويُعطي للقارئ العادي صورة ولو بسيطة عن علم ما يزال يكافح من أجل وجوده يسمّى "علم الاجتماع". والله من وراء القصد وهو أرحم الراحمين.

المراجع

1-المراجع باللغة العربية:

- أبو المحاسن محمود عصفور، معالم تاريخ الشرق الأدنى القديم من أدنى العصور إلى مجيء الاسكندر، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت لبنان، 1981.
- إحسان محمد الحسن، النظريات الاجتماعية: دراسة تحليلية في النظريات الاجتماعية المعاصرة، دار وائل للنشر، عمان، الأردن، 2005.
- أمين سلامة، التاريخ الروماني، دار الفكر العربي، بيروت، لبنان، 1959.
- إيما أندري، أبويه جون، تاريخ الحضارات العام: ج1: الشرق واليونان القديمة، ج2: روما وإمبراطوريتها، تر: فريد داغر وآخرون، منشورات عويدات، بيروت، باريس، فرنسا، 1981، 1964 .
- بسيوني عبد الغني عبد الله، القهواجي علي عبد القادر، تاريخ النظم الاجتماعية والقانونية، الدار الجامعية للطباعة والنشر، د.تا.
- بوتول جاستون، د.تا، تاريخ علم الاجتماع، تر: غنيم عبدون، مطاع الدار القومية للطباعة والنشر، د.م.نا، د.تا.
- توينبي أرنولد، تاريخ الحضارة الهيلينية، تر: رمزي عبدة جرجس، سلسلة الألف كتاب، 1963.
- جون سكوت، خمسون عالما اجتماعيا أساسيا: المنظّرون المعاصرون، تر: محمود محم حلمي، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، لبنان، 2009.
- دوركايم إميل، قواعد المنهج في علم الاجتماع، موفم للنشر، سلسلة أنيس، الجزائر، 1990.

- دياكوف. ف، كوفاليف. س، الحضارات القديمة، 2ج، تر: نسيم واكيم اليازجي، دار علاء الدين، دمشق، 2000.
- دينكن ميتشيل، معجم علم الاجتماع، تر:إحسان محمد الحسن، دار الطليعة، بيروت، لبنان، ط2، 1986.
- ديورانت ويل، قصة الحضارة، تر: بدران وآخرون، (كلّ المجلدات) المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، دار الجيل حالياً ، بيروت، 1970.
- الزيات كمال عبد الحميد، طلعت إبراهيم لطفي، النظرية المعاصرة في علم الاجتماع، دار غريب، القاهرة، مصر، د.تا.
- شلبي أحمد، أديان الهند القديمة: الهندوسية، الجينية، البوذية، ج4، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، مصر، ط 10، 1997.
- الصقدي هشام، تاريخ الرومان، بيروت، 1967.
- صلاح مصطفى الفوال، سوسيولوجيا الحضارات القديمة، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر، 1982.
- صلاح مصطفى الفوال، علم الاجتماع في عالم متغير، دار الفكر العربي، مصر، 1996.
- عادل مختار الهواري، أسس علم الاجتماع، مكتبة نهضة الشرق، القاهرة، مصر، 1983.
- عبد الحميد لطفي، علم الاجتماع، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان،1981.
- عبد الرحمان بدوي، موسوعة الفلسفة، 2ج، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، 1984
- عبد اللطيف أحمد علي، التاريخ الروماني، تر: مزالي، القاهرة، 1967.

- عبد الله محمّد عبد الرحمان، علم الاجتماع: النشأة والتطور، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر، 2001.
- فراس السواح، دين الإنسان: بحث في ماهية الدين ومنشأ الدافع الديني، ط3، منشورات علاء الدين، دمشق، سوريا، 1998.
- فركوس دليلة، تاريخ النظم، ج1: النظم القديمة، ج2: النظم الإسلامية، أطلس للنشر، الجزائر، 1993.
- فؤاد إفرم البستاني، منجد الطلاب، دار المشرق، بيروت، لبنان، ط33، 1986.
- القرطبي أبو عبد الله محمّد ابن أحمد ابن أبي بكر ابن فرح، الجامع لأحكام القرآن، تح: أحمد عبد العليم البردوني، ط2، دار الشعب، القاهرة، 1372.
- كولر جون، الفكر الشرقي القديم، تر: كامل يوسف حسين، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والأدب، الكويت، 1995.
- لانجر وليام، موسوعة تاريخ العالم، تر: معن زيادة، مكتبة النهضة المصرية، 1952.
- لبيب عبد الساتر، الحضارات، ط 8، دار المشرق، بيروت، لبنان، 1974.
- لرجان عمر، مدخل للعلوم الاجتماعية، محاضرة لطلبة السنة الأولى، جامعة الجزائر، غير مطبوع، السنة الجامعية 1989/ 1990 – 2002/2001
- لنتون رالف، شجرة الحضارة، 3ج، موفم للنشر، الرغاية، الجزائر، 1990.
- محمد أحمد بيومي، أسس وموضوعات علم الاجتماع، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر، 2001.
- محمّد علي محمّد، تاريخ علم الاجتماع: الرواد والاتجاهات المعاصرة، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1983.

- محمود عودة، أسس علم الاجتماع، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، د.تا
- معن خليل عمر، نظريات معاصرة في علم الاجتماع، دار الشروق، عمان، الأردن، 1997.
- مفيد رائد العابد، دراسات في تاريخ الإغريق، المطبعة الجديدة دمشق، سوريا، 1979.
- هونكة زيغريد، شمس العرب تسطع على الغرب، مكتبة رحاب، دار البعث، قسنطينة، الجزائر، 1986.
- ووين، الصينيون المعاصرون، التقدّم نحو المستقبل انطلاقاً من الماضي، 2ج، تر: عبد العزيز حمدي، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1996.

2-المراجع باللغة الفرنسية:

- Akoun A., Ansar P. et al, Dictionnaire de sociologie, Le Robert, Seuil, 1999.
- Aron. R, les étapes de la pensée sociologique, Gallimard, CERES édition, Tunis, 1994.
- Barbusse B.; Glaymann D., La sociologie en fiche, Ellipses édition, 2005.
- Beiton A. et alii, sciences sociales, Dalloz, 2e éd, 2000.
- Berthelot. J.M, la construction de la sociologie, P.U.F, Que sais-je ?, 1991.
- Boudon R, Bourricaud F, Dictionnaire critique de la sociologie, PUF, 1982, 2éme éd, 1986.
- Boudon. R(Dir), Traité de la sociologie, P.U.F, 1992.
- Boutefnouchet M, Introduction a la sociologie: Les Fondateur, OPU, Alger, 2004.

- **Bouthoul. G, <u>Histoire de la sociologie</u>, P.U.F, Que sais- je ?, 1982.**
- **Corcuff P., Les nouveelles sociologie: construction de la réalité social, Nathan, France, 1995.**
- **Cuin Ch, Gresle F, <u>Histoire de la sociologie</u>, La découverte, 1992, 02 Tomes.**
- **Delas. J.P, Bruno. M, <u>Histoire des pensée sociologique</u>, Dalloz, 1997.**
- **Demeulenaere P., Histoie de la théorie sociologie, Hachette, Paris, France, 1997.**
- **Dubois M, et alii, <u>la sociologie de l'envers</u>, Ellipses, 1994.**
- **Dubois. M, <u>les fondateurs de la pansée sociologie</u>, Ellipses, 1993.**
- **Ferréol. G, et alii, <u>Histoire de la pensée sociologie</u>, Colin, coll. Cursus, 1994.**
- **Ferrette J. Ledent d., <u>la sociologie à travers les grands auteurs</u>, Ellipses, Paris, France, 2006.**
- **Gerard F, <u>Sociologie général</u>, Ellipses édition, 2006.**
- **Giraud C, <u>Histoire de la sociologie</u>, Dar El- Afaq, Alger, 1997**
- **Grawitz M, <u>Méthodes des sciences sociales</u>, Dalloz, Delta, 10e éd, 1996**
- **Jonas. F, <u>Histoire de la sociologie</u>, Larousse, France, 1991.**
- **Lallement. M, <u>Histoire des idée sociologique</u>, Nathan, Coll. Cira, 1993, 02 Tomes.**
- **Mendras. H, <u>Elément de sociologie et textes</u>, Colin, U sociologie.**
- **Morin J.Michel, <u>Précis de Sociologie</u>, NATHAN, France, 1996.**
- **Nisbet. R, <u>la tradition sociologique</u>, P.UF, France, 1966.**
- **Simon. P. j, <u>Histoire de la sociologie</u>, P.U.F, France, 1991.**
- **Vart meter. K.M, <u>Sociologie</u>, Larousse, France, 1990.**

المحتويات

الفصل الأوّل: تاريخ الفكر الاجتماعي وتطوّره

المبحث الأوّل: الفكر الاجتماعي في الحضارات الشرقية

تمهيد: 9
أ- حضارات الشرق الأوسط: 10
1- الحضارة الميزوبوتامية MESOPOTAMIE: 10
أ- الموقع والتاريخ: 10
ب- الخصائص الحضارية: 13
1 – المنظومة القانونية: 13
2 – النظام الزراعي: 14
3- الصناعة والتجارة: 14
4 – النظام الطبقي: 15
5 – المعتقدات الدينية: 15
6 – النظام السياسي: 17
7 – نظام الأسرة: 18
8 – العمران: 19
9- التعليم: 20
2- الحضارة المصرية الفرعونية Egypte pharaonique: 20
أ- الموقع والتاريخ: 20
ب- الخصائص الحضارية: 24
أ- النظام الإداري: 24
ب) النظام الاقتصادي: 24
ج) النظام الاجتماعي: 25

د) الحياة العلمية: 28
ه- النظام الديني: 30
ب- حضارات الشرق الأقصى: 33
1- الـــــهند: 33
أ- التسمية والتاريخ: 33
ب- الخصائص الحضارية: 35
1- النظام الاجتماعي: 35
2- المعتقدات الدينية: 36
أ- الجاينية 38
ب- البوذية 39
3- الحياة العلمية: 41
2- الـــصين: 42
أ- التسمية والتاريخ: 42
ب- الخصائص الحضارية: 46
1- تاريخ التعدّد الديني: 46
1- المرحلة ما قبل الكونفوشيوسية: 47
2- المرحلة الكونفوشيوسية: 47
3- مرحلة تعدّد الفلسفات: 48
4- مرحلة البوذية الصينية أو الكونفوشيسية الجديدة: 48
2- سيطرة الطابع الزراعي: 49
3- قداسة النظام الأسري: 50
4- الطابع العلمي: 51

المبحث الثاني: الفكر الاجتماعي في الحضارات الغربية

تمهيد: 53
1- الحضارة الإغريقية GRECQUE: 53

أ- الموقع والجذور: 53
ب- التطوّر والتاريخ: 56
أوّلا- أثينا قبل الحروب الفارسية 58
أ- العهد الملكي الأرستقراطي 58
ب- مرحلة الإصلاح الاجتماعي 58
1- الحاكم دراكون 58
2- الحاكم صولون 58
3- الحاكم بيزيسترات 59
ج – مرحلة الانحراف (الانتقالية): 59
ثانيا- أثينا بعد الحروب الفارسية 59
أ- عهد الازدهار 60
ب- عهد الانحطاط 60
ثالثا- الهيلنة 60
ج- الخصائص الحضارية: 61
1- النشاط الاقتصادي: 61
2 – النظام الاجتماعي: 61
أ- ما قبل العهد الديمقراطي 61
ب – العهد الديمقراطي 62
3- النظام الديني: 63
أ- قبل عهد بريكلاس 63
ب – التأثّر بالديانة الشرقية 64
4 – النظام السياسي (الديمقراطية): 64
5- الحياة العلمية: 66
2- الحضارة الرومانية Romaine: 66
أ- الموقع والتاريخ: 66

ب- الخصائص الحضارية: 68
1- النظام القانوني: 68
2- التطوّر الاقتصادي: 69
3- النظام الاجتماعي: 70
أ- طبقة الأغنياء.. 70
ب- طبقة الفقراء.. 70
ج- طبقة العبيد والموالي.. 70
4- النظام الديني: 72
أ) ما قبل الدّيانة المسيحية 72
ب) العهد المسيحي 73
5- الحياة الفكرية: 74

المبحث الثالث: الفكر الاجتماعي في الحضارة الإسلامية

تمهيد: 76
1- العرب قبل الإسلام: 76
أ- الموقع والتاريخ: 76
1) دويلات الجنوب: 77
2) دويلات الشمال: 78
3) دويلات الوسط: 79
ب- الخصائص الحضارية: 80
1) الحياة الاقتصادية: 80
2) الحياة الاجتماعية: 81
3) الحياة الفكرية: 82
2- الحضارة الإسلامية: 83
أ- التأسيس والتطوّر: 83

ب- الخصائص الحضارية: 85
1) النظام السياسي والإداري: 86
2) النظام القضائي والحربي: 88
3) النظام الاجتماعي: 90
4) النظام الاقتصادي: 91
5) الحياة العلمية: 92
الخصائص العامة للحضارات: 100

الفصل الثاني: نشأة علم الاجتماع العام وأبعاده

المبحث الأوّل: تطور علم الاجتماع وحدوده

تمهيد: 103
1 ظروف نشأة علم الاجتماع في الغرب: 103
2 إشكالية تعريف علم الاجتماع: 106
1- المنطلقات المنهجية الخاطئة: 106
أ- على المستوى النظري 106
ب- على مستوى المنهج 106
2- الطرق الخاطئة: 106
أ- تعريف علم الاجتماع عن طريق المؤلفين 107
ب- تعريف علم الاجتماع عن طريق المناهج 107
ج- تعريف علم الاجتماع عن طريق النظريات 107
د- تعريف علم الاجتماع عن طريق الموضوع 108
3 صعوبات تعريف علم الاجتماع 108
أ- الخصوصية 109
ب- العمومية 109
4- تطوّر المصطلح: 109

5- بعض التعاريف: 111
6- تقسيم التعاريف: 112
أ- النظرة الماكرو- سوسيولوجية 112
ب- النظرة الميكرو- سوسيولوجية 112
ج- النظرة النفسو- اجتماعية 113
3- تاريخية علم الاجتماع: 113
1- المراحل التاريخية: 113
أ- مرحلة ما قبل الكلمة 114
ب- مرحلة الكلمة 114
ج- مرحلة المؤسّساتية 114
2- البحث عن السوسيولوجي الأوّل: 115
أ- المستوى النظري 115
ب- المستوى الوطني 115
3- تاريخ علم الاجتماع والنظام السياسي (تطبيق) 116
3- تموقع علم الاجتماع: 118
4- إشكالية الرواد 120
أ- المؤسسون السبع: 120
ب- دائرة السوسيولوجيّين المفقودين: 122
ج- اهتمامات المؤسّسين: 123
أ- الأسلاف: 123
ب- المنسيون 124
ج- السوسيولوجيون الأساسيون في ثلاث دول: 124
5- المعاصرون والاتجاهات: 126
6- حقول (مجالات) علم الاجتماع: 129
7- حدود علم الاجتماع: 131

أ- الحدود مع العلوم الاجتماعية 131
ب- حركية الحدود 132

المبحث الثاني: الظاهرة الاجتماعية:

1- تحديدها: 134
1- الموضوعية 134
2- الخارجية 134
3- القهرية 135
4- التجميعية 135
5- العمومية والتلقائية 135
6- الثلاثية 135
7- الإنسانية 136
2- قواعد دراستها: 136
أ- التخلّص من الأفكار المسبقة: 136
ب- دراسة الظواهر الاجتماعية باعتبارها أشياء: 138
ج- تفسير الاجتماعي بالاجتماعي: 138
د- تعريف الظاهرة الاجتماعية: 139
هـ- البحث عن درجة الثبات: 139
3- الظواهر الاجتماعية السليمة والظواهر الاجتماعية المعتلّة: 139
- العمومية في المجتمع 140
- العمومية بين المجتمعات 140
- العمومية في الزمن 140
- الاطّراد أو الانتظامية 140
- الخضوع لنفس الظروف 140

الفصل الثالث: مفكرو علم الاجتماع ونظرياته

المبحث الأول: مفكرو علم الاجتماع:

تمهيد: 143

1- إشكالية تطوّر العلم: 143

2- إشكالية ميلاد علم الاجتماع: 144

3- إشكالية تطوّر علم الاجتماع: 144

4- إشكالية الرواد: 148

5- إشكالية بداية علم الاجتماع المعاصر: 148

I- الكلاسيكيون: 149

1- أوغست كونت (1798- 1857) A. COMTE: 150

أ- بيوغرافيا عن حياته: 150

ب- أهمّ إسهاماته: 152

2- كارل ماركس (1818- 1883) K. MARX: 154

أ- بيوغرافيا عن حياته: 154

ب- أهمّ إسهاماته: 155

3- إميل دوركايم (1858- 1917) E. DURKHEIM: 157

أ- بيوغرافيا عن حياته: 157

ب- أهمّ إسهاماته: 158

4- ماكس فيبر (1864- 1920) M. WEBER: 162

أ- بيوغرافيا عن حياته: 162

ب- أهمّ إسهاماته: 165

5- تالكوت بارسونز (1864- 1920) T. PARSONS: 168

أ- بيوغرافيا عن حياته: 169

ب- أهمّ إسهاماته: 169

6- ميشال كروزي (1922-) 173
أ- بيوغرافيا عن حياته: 173
ب- أهمّ إسهاماته: 174
7- ألان توران A. TOURAINE (1925-) 176
أ- بيوغرافيا عن حياته: 176
ب- أهمّ إسهاماته: 176
1) الحركة العمالية: 176
2) علم اجتما ع التغير الاجتماعي 178
3) تحليل الحركات الاجتماعية: 180
4) التدخّل الاجتماعي: 180
5) التاريخانية: 181
8- بيار بورديو P.Bourdieu (1930- 2002) 182
أ- بيوغرافيا عن حياته: 182
ب- إسهاماته 184
1) مفهوم الحقل: 184
2) مفهوم الرأسمال: 184
3) العنف الرمزي: 185
4) التطبع/ الأبيتوس L'habitus: 187
5) وظيفة علم الاجتما ع: 187
9- ريمون بودون Raymond Boudon (1934-) 188
أ- بيوغرافيا عن حياته: 188
ب- إسهاماته: 189
1) الفردانية المنهجية: أهم ما يمكن توضيحه: 189
2) منطق الاجتماعي: 189
3) التغيّر الاجتماعي "اللانظام": 190

المبحث الثاني: نظريات علم الاجتماع:

1- التاريخية: 191
2- لغة: 191
3- اصطلاحا: 191
4- الاستعمالات المتكرّرة (الشائعة): 192
5- وظيفة النظرية: 193
6- تعاريف للنظرية:: 193
7- التعريف بالمجموع:: 194
8- أنواع النظريات: 194
9- شروط النظرية العلمية: 196
1- النظرية الظاهرتية Phénoménologie: 196
1) الكلمة والتطوّر العام: 196
2) المعنى الاصطلاحي: 196
3) الفكرة الموجّهة: 197
4) الأهداف:: 197
5) مبادئ النظرية: 198
6) الفينومينولوجا وعلم الاجتماع: 198
7) روادها: 200
2- النظرية الثقافوية Culturalisme 200
2) تعريف الثقافوية: 200
3) مراحل تطوّرها: 201
1- المرحلة الأولى: الأبحاث الأولى. 201
2- المرحلة الثانية: المؤسّسون الأوائل: 201
3- المرحلة الثالثة: الانتقال إلى علم الاجتماع. 203
4-المبادئ: 204

أ- الفكرة الموجّهة: 204
ب- المبادئ الأساسية: 204
5) أهمّ رواد الثقافوية: 205
3- النظرية الوظيفية Fonctionnalisme 206
1) معنى الوظيفية: 206
2) المعنى الاصطلاحي للوظيفية: 206
3) جذور الوظيفية: 207
4) الاتجاهات الثلاث للوظيفية: 208
1- الوظيفية المطلقة: 208
2- البنائية الوظيفية: 209
3- الوظيفية النسبية "ذات النزعة المتوسّطة" : 210
5) الفكرة الموجّهة: 212
6) مبادئ النظرية: 212
7) رواد الوظيفية: 213
4- الفردانية المنهجية Individualisme Méthodologie 213
1) اصطلاحا: 213
2) مراحل نشأة النظرية وتطوّرها: 214
3) أهمّ المراحل: 214
أ- الأصول النظرية: 214
ب- الإطار النظري للتفسير: 215
ج- من الفردانية المنهجية إلى سوسيولوجية الفاعل: 217
4) مبادئ النظرية: 220
أ- الأفكار الموجّهة: 220
ب- المبادئ الأساسية: 220
5) رواد الفردانية المنهجية: أعمال ريمون بودون Raymond Boudon: 221

5- التفاعلية Interactionnisme (التفاعلية الرمزية، الإثنوميتودولوجيا) 222
1) تعريف التفاعل: عملية التأثير المتبادل بين نظامين أو أكثر. 222
2) تعرف التفاعلية: 222
3) المدرستان (الاتجاهان): 222
1- التفاعلية الرمزية: 222
أ-النشأة والتسمية: 222
ب-مراحل تطوّرها: 223
1- المؤسّسون الأوائل: 223
2- حركية التفاعلية الرمزية: 224
2- الاثنوميتودولوجيا: 226
ب- المراحل: 227
1- المؤسّسون الرئيسيون: 227
2- مرحلة ديناميكية الإثنوميتودولوجيا: 229
4) رواد التفاعلية: 230
خاتمة 231
المراجع 232
1- المراجع باللغة العربية: 232
2- المراجع باللغة الفرنسية: 235

This document was created with Win2PDF available at http://www.daneprairie.com.
The unregistered version of Win2PDF is for evaluation or non-commercial use only.

هذا الكتاب

يتناول هذا الكتاب تطور الفكر الإجتماعي عبر أهم الحضارات التي عرفها التاريخ الإنساني ، مركزا على جوانبها الإجتماعية ، و ما أنتجه الفكر من ممارسات ، و ما يميز كل حضارة عن أخرى بعيدا عن التاريخية الدقيقة المنحصرة وسط الرقم . فما يهم السوسيولوجي هو السمة العامة للحدث لا الحدث في ذاته .

ثم يعرج على الأبعاد المحددة لعلم الإجتماع بخاصة تعريفه و يحول حوله من إشكاليات و قضية الرواد و النسيين و المراحل التي مرّ بها و التموقعات التي تشكل فيها . ليعالج بعدها مفهوم الظاهرة الإجتماعية و أسسها معتمدا على " قواعد المنهج لدقته . و في فصل مستق أعلام علم الإجتماع البارزين و نظرياته مختصرا إياها في نقاط واضحة و دقيقة .

الكتاب نقطة إنطلاق للمهتم السوسيولوجي في بداية مساره ، و للهاوي الإجتماعي قصد الإطلاع على هذا العلم الذي أصبح اليوم أكثر من ضروري في حياتنا اليومية . و هو يغطي إحتياجات الطالب الجامعي وفقا للبرامج الجامعية الجديدة .

المؤلف

دار نزهة الألباب
للنشر و التوزيع
ساحة العقيد لطفي غرداية الجزائر
029.89.26.41 029.88.35.49
موقعنا على الأنترنت : www.educ4dz.com

الإيداع القانوني
2012-4377

ردمك ISBN
978-9947-880-32-6

9 789947 880326